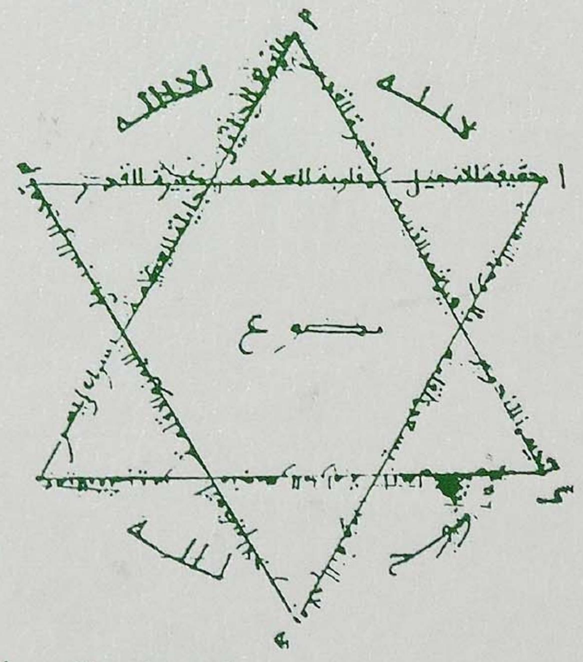
سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة 15

كَعب الأحبار

وتسبقه دراسة للأثر اليهودي في الحديث النبوي والتفسير

تأليف: د. إسرائيل بن زئيف (ولفنسون)

راجع الترجمة وكتب الدراسة: د. لويس صليبا





دار ومكتبة بيبليون

جبيل - لبنان

كتب للدكتور لويس صليبا

صدرت عن دار ومكتبة بيبليون

في الدراسات الإسلامية I

1 - بحث في جذور النظرة الذكورية إلى المرأة في الثقافة الإسلامية. دراسة وتحقيق لكتاب بستان الراغبين لمحمد مصطفى العدوي. طبعة ثالثة. (ط3). 250 ص

2 - النساطرة والإسلام: جدلية علاقة منذ ما قبل البعثة إلى ما بعد سقوط العباسيين/دراسة وتقديم لكتاب المجدل للاستبصار والجدل. ط2. 420 ص

3 - من تاريخ الهرمسية والصوفية في الإسلام/جمع. ترجمة. وتقديم لدراسات للمستشرق البروفسور بيير لوري. ط3. 315 ص

4 - مفكّر مسيحي طالب بالإسلام ديناً للدولة/دراسة وتحقيق لكتاب الأزاهير المضمومة في الدين والحكومة لأمين خيرالله صليبا. 640 ص

5 - صدام الأديان والمذاهب في لبنان: شهادة من الماضي عبرة للآتي. دراسة وتحقيق وملاحق لكتاب مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان. لميخائيل مشاقة. 721ص

6 - معراج محمد/المخطوطة الأندلسية الضائعة: ترجمة لنصّيا اللاتيني مع دراسة وتعليقات وبحث في جذور النظرة الغربية إلى الإسلام. تقديم سحبان مروة. ط 2. 370 ص

7 - المعراج في الوجدان الشعبي: دراسة لأثره في نشأة الفِرَق والفنون والأسفار المنحولة في الإسلام. ط2. 340 ص

8 - المعراج من منظور الأديان المقارنة. دراسة لمصادره السابقة للإسلام ولأبحاث المستشرقين فيه. تقديم د. جوزف قزي. ط2. 422 ص

9 - الاغتراب اللبناني ملحمة أم مأساة. دراسة وتذييل لكتاب تاريخ الهاجرة اللبنانية مع دراسة لأوضاع المسيحيين في الولايات العثمانية. 433 ص

10 - كتاب قتل كاتبه. دراسة. تعليق وتحقيق لـ تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمّونة الإسرائيلي. (ت683 هـ). تقديم سحبان مروة. ط2. 590 ص

11 - دراسة للأثر اليهودي في الحديث النبوي والتفسير، مدخل نقدي وتنقيح وترجمة كتاب كعب الأحبار لإسرائيل ولفنسون. 284 ص

12 - توما الأكويني والإسلام: بحوث في مصادره الإسلامية وردوده على الفلاسفة.

13 - رسالة في الردّ على المسلمين للقدّيس توما الأكويني، دراسة وتحقيق. 260ص

14 - جدلية الجاهلية والإسلام والمسيحية عند النجفي. دراسة وتحقيق لمذكرات الصافي النجفي.

15 - الديانات الإبراهيمية بين العنف والجدل والحوار مع بحوث في اليوغا والتصوفين الإسلامي والهندوسي 300 ص.

(يتبع في آخر الكتاب)

سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة 15

إسرائيل بن زئيف (ولفنسون)

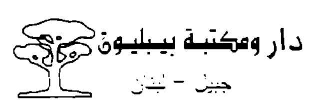
كَعب الأحبار

وتسبقه دراسة للأثر اليهودي في الحديث النبوي والتفسير

كتب الدراسة وراجع الترجمة:

د. لويس صليبا

طبعة ثانية مزيدة ومنقحة


دار ومكتبة بيبليون
جبيل - لبنان

المؤلّف/*Auteur* : د. **إسرائيل بن زئيف** (ولفنسون) ***Israïl Ben Zeev Wolfinson***
عنوان الكتاب/Titre : **كعب الأحبار** *Ka^{c}b Al- Ahbâr*
عنوان الدراسة/المدخل : الأثر اليهودي في الحديث النبوي والتفسير
كاتب الدراسة : **د. لويس صليبا** ***Dr Lwiis Saliba***
أستاذ وباحث في الدراسات الإسلامية/باريس
www.thoughts.com/Lwiissaliba
عنوان السلسلة : سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة 15
عدد الصفحات : 336 ص.
سنة النشر : طبعة أولى2010/ طبعة ثانية 2011
الإخراج الداخلي : صونيا سبسبي
الناشر **دار ومكتبة بيبليون**
طريق المريميين – حي مار بطرس- جبيل/ بيبلوس ، لبنان
ت: 09/540256-03/847633 ف: 09/546736
Byblion1@gmail.com


إهداء
إلى وفاء أمان الدين
ذكرى تعاون منتج
ورفقة مثمرة
ووفاءً لقيَم جمعتنا...
ولمّا تزل
Lwiis

سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة

1 - صدر منها

1- م. حاي بن شمعون، كتاب الأحكام الشرعيّة في الأحوال الشخصيّة للملة اليهوديّة.
2- الدكتور هلال فارحي، كتاب أساس الدين: تعاليم الديانة اليهوديّة وقواعد إيمانها، ويليه كتاب أصداء التوراة للحبر ولش.
3- ماكس مارجوليز والكسندر ماركس، تاريخ الشعب اليهودي في العصور الوسطى، أو كيف يروي اليهود تاريخهم.
4- إسرائيل ولفنسون، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، قدّم له د. طه حسين، مع دراسة مدخل: صراع اليهوديّة والإسلام من منظور يهودي، للدكتور لويس صليبا.
5- إسرائيل ولفنسون، موسى بن ميمون: حياته ومصنّفاته، تقديم مصطفى عبدالرازق.
6- جوزف هرتس، خلاصة الفكر اليهودي عبر العصور، نصوص أساسية من التلمود وأحبار اليهود وفلاسفتهم، تحوي زبدة العقائد اليهودية في الدين والمجتمع، مع دراسة تحليلية للدكتور لويس صليبا: الفكر اليهودي بين الخصوصية والشمولية.
7- د. سليم شعشوع، تاريخ الفلسفة والعلوم اليهودية في أرض الإسلام: دراسة في تراث اليهود في الدولة الإسلامية وخصوصاً في الأندلس. مع دراسة وتكملة لـ د. لويس صليبا: الفلسفة والعلوم اليهودية جسر تواصل بين العرب والغرب.
8- إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ويسبقه كتاب: من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام: دراسة لجذورها في المشرق وتلفيقاتها لتاريخه لـ د. لويس صليبا.
9- تاريخ يوسيفوس اليهودي (ت 100م)، نشره نقولا مدوّر. مقدمة ودراسة لشاهين مكاريوس.
10- شاهين مكاريوس، تاريخ الإسرائيليين: اليهود قديماً وحديثاً مع تراجم مشاهيرهم شرقا وغربا. خاتمة لـ روفائيل بن شمعون حاخام مصر الأكبر.
11- رحلة الرابي بنيامين التطيلي (1160 - 1173)، وفيها وصف لأوضاع اليهود في مختلف البلدان ولفِرَق الدروز والحشّاشين وغيرها. ترجمة، دراسة وتعليق عزرا حدّاد.
12- عزّ الدولة بن كمّونة، تنقيح الأبحاث في الملل الثلاث اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، قدّم له بدراسة وعلق عليه: د. لويس صليبا.
13- العلامة دي بفلي، المعاملات والحدود في شرع اليهود طبقا لأحكام التوراة والتلمود مع مقارنة بالشريعة الإسلامية. تعريب القاضي محمد حافظ صبري.
14- موسى بن ميمون (ت 601 هـ)، شرح أحكام التوارة والتلمود، دراسة وتقديم د. عباس زرياب.
15- د. إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب)، كعب الأحبار وتسبقه دراسة للأثر اليهودي في الحديث النبوي والتفسير، للدكتور لويس صليبا.

سلسلة اليهودية بأقلام يهودية

2 - تعريف

لا يصعب علينا إدراج هذه السلسلة تحت شعار "**إعـــرف عــدوّك**". ولكن الهدف منها يتخطّى هذا الطرح الأيديولوجي الديماغوجي، ليتناغم مع مبدأ غدا اليوم من أبرز أسس علم الأديان المقارنة وركـــائزه. ألا وهـــو دراسة الأديان من الداخل.

فالظاهرة الدينيّة، كموضوع للدّراسة والبحث، تختلف عن الظـــواهر الطبيعيّة في العلوم البحتة. ولا يمكن بالتالي فقهها بمجـــرّد الملاحظـــة الخارجيّة. إذ تبقى هذه الطريقة مجتزأة وغير كافية.

كيف يفهم اليهودي دينه؟ كيف يشرحه، ويعبّر عنه؟ كيـــف يعيشـــه ويطبّق شرائعه ونواميسه؟ كيف يعي، هو نفسه، تاريخه ويرويـــه؟ كيـــف يقونن شرائعه لتتجاوب مع العصر؟ كيف يعلّم مبادئ دينه لأبنائه؟

إنّها المقاربةُ الداخليّة للأديان. وأول شروطها أن نصغي إلى الآخـــر كآخر وكمختلف. وأن نجتهد لندعه يتكلم، لا بل حتى أن نفرض الصمت، لحين، على وجهات نظرنا. وذلك كي نفهم هذا الآخر كما يفهم هو نفســـه، وليس كما كنّا نتخيّل، أو نتمنّى فهمه قبل أن يتكلّم.

ليس الغرض من هذه السلسلة الدفاع عن اليهوديّة بأيّ شـــكل مـــن الأشكال. وإلاّ لغدت هي الأخرى عملاً دعائيّاً، ديماغوجيّاً. وإنّما التعريف عن النفس. فحتّى في المحاكم، يُطلب من المُتّهم أن يعرّف هو عن نفســـه في البدء، وقبل الشروع بمحاكمته. كيف الأمر إذاً في العلـــوم الإنســـانيّة والأبحاث. ففي إطار التعريف عن النفس، تندرج هـــذه السلســـلة. وهـــي ستضمّ إن شاء الله فئتين من المؤلّفات:

1 - **المؤلّفات الحديثة:** ممّا كتبه اليهود في الزمن المعاصر، لا سيّما باللّغة العربيّة. وقد عرفت مصر خاصّة نهضة في بداية القرن العشرين، على هذا الصعيد. فصُنّفت، فيها العديد من الكتب ونشرت، لمؤلّفين وباحثين يهود: أمثال إسرائيل ولفنسون، فارحي، وغيرهما.

والكتب هذه لا تزال تتميّز بشيء من العصرنة.

2 - **الكتب التراثيّة:** شارك اليهود في النشاط الأدبي الفلسفي في الدولة الإسلامية. ولكن المكتبة العربيّة تفتقد اليوم إلى كثير من كتب ابن كمونة، ابن ملكا البغدادي، أبو الحسن اللاّوي (يهودا هاليفي)، موسى بن ميمون وغيرهم. وهذه الكتب جزء من التراث العربي- الاسلامي.

لذا ستفسح هذه السلسلة المجال لنشر عدد من مصنّفات هؤلاء، في طبعات محقّقة.

وإلى أيّ من الفئتين، انتمى الكتاب، فسلسلة "اليهوديّة بأقلام يهوديّة" تلتزم نشر نصّه الكامل، مع إمكانيّة التقديم له، أو التعقيب عليه، بدراسة نقديّة. كما هو الحال في كتاب ولفنسون "تاريخ اليهود في بلاد العرب" مثلاً.

أملنا أن تؤدّي هذه السلسلة خدمة، إلى القارئ، طمحت إليها. وتشغل بالتالي حيّزاً لها في المكتبة العربيّة.

دار ومكتبة بيبليون

جبيل – لبنان

مقدّمة المترجم للطبعة الثانية

يتناول كتابنا هذا موضوعاً دقيقاً وحسّاساً في التاريخ الإسلامي والأديان المقارنة. فكعب الأحبار شخصيّة مركزيّة ملتبسة أثارت الكثير من التساؤلات والشبهات،ولا نجد في العربيّة دراسة وافية عنها غير هذه. ولعلّ في هذه العوامل وغيرها ما يفسّر ما لقيته الطبعة الأولى من هذا المصنّف من إقبال ورواج وسرعة نفاد. ولكنني، ورغم إلحاح الطلبات. لم أشأ أن أدفعه ثانية إلى الطبع قبل أن أدخل عليه الكثير من التصحيحات والإضافات.

فعمدت أوّلاً إلى تنقيح إضافي لترجمة أطروحة إسرائيل بن زئيف إلى العربيّة وعدت إلى الدراسة التي قدّمت لها،فأردتها أن لا تكون مجرّد بحث نقدي لهذه الأطروحة وحسب، بل تكملة لها. فقد نشرت مخطوطات العديد من المصادر الإسلاميّة في طبعات محققة بعد تأليف بن زئيف كتابه كعب الأحبار ولم يكُن له إليها وصول في يومها، فعدت إلى الكثير منها إتماماً للفائدة وتوسيعاً لأفق البحث. وإلى ذلك فقد أغفل ولفنسون، عن سهو أو عن عمد، على الأرجح، تظهير صورة كعب الأحبار في المصادر المسيحيّة القديمة، ونظراً لما لهذا الأمر من فائدة في إظهار ملامح ومعطيات أخرى مِمّا نسب إلى كعب الأحبار من دور، فقد أضفت إلى دراستي فصلاً جديداً هو الخامس يعرض لما روي عنه في عدد من المظانّ المسيحيّة القديمة. وهذه الأخيرة على اختلاف في التفاصيل تتفق في إسناد دور خطير لكعب يمكن اختصاره بعبارة "تهويد الإسلام".

وفي هذه المصادر تختلط الوقائع بالأساطير. ولكنها مع ذلك تبقى مؤشراً بارزاً لمحوريّة شخصيّة كعب ودوره في التاريخ الإسلامي. ولا أدّعي أنني وفيت موضوع كعب في المصادر المسيحيّة القديمة حقّه وقتلته بحثاً وتمحيصاً. فالمسألة تتطلّب معرفة بلغات قديمة كالآراميّة- السريانيّة والكلدانيّة وغيرها والعودة إلى مخطوطات في هذه اللغات يصعب توفّرها أو الحصول على صور عنها. فعسى هذا الفصل الخامس الموجز يكون فاتحة لدراسات أكثر تفصيلاً وتعمّقاً.

ومن أبرز الزيادات في هذه الطبعة الثانية ما أضيف إلى الفصل الثالث من دراستنا، أي ذاك الذي يتناول تغيّر هوية الذبيح في المصادر الإسلاميّة، فقد عدت إلى شهادة قيّمة وقديمة في هذا الموضوع وهي للقدّيس يوحنا الدمشقي (ت137 هـ) ونقلت ما ذكر فيها إلى العربيّة محاولاً إبراز أهمّية هذه الشهادة ومركزيّتها، كما أضفت إلى الفصل المذكور قسماً رابعاً جديداً يعادل في حجمه وأهمّيته الأقسام الثلاثة الأولى، ويتناول هويّة الذبيح في أبحاث المستشرقين. وكان هؤلاء وعلى رأسهم جولدتسيهر أوّل مَن أشار إلى تغيّر هوية الذبيح في المصادر الإسلاميّة وحاولوا معرفة أسباب ذلك وخلفياته. وفي القسم الرابع الجديد هذا عرضت لأبحاث استشراقية أربعة في هذه المسألة وأبرز ما توصّلت إليه من نتائج وقارنت بينها.

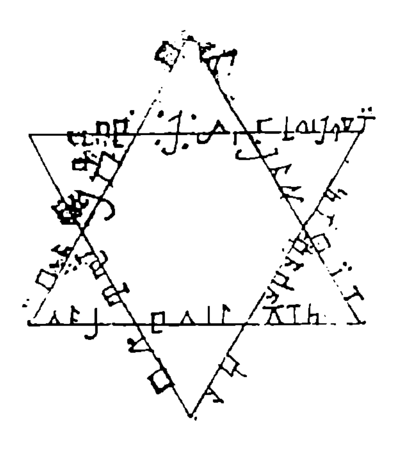
ولو شئت التوسّع أكثر فأكثر في مسألة هوية الذبيح: إسحاق أم إسماعيل في المصادر الإسلاميّة لانتهى بي الأمر إلى تصنيف سِفر مستقلّ في هذا الموضوع،وليس هذا ما أريدَ لهذه الدراسة/المدخل، لذا أحجمت

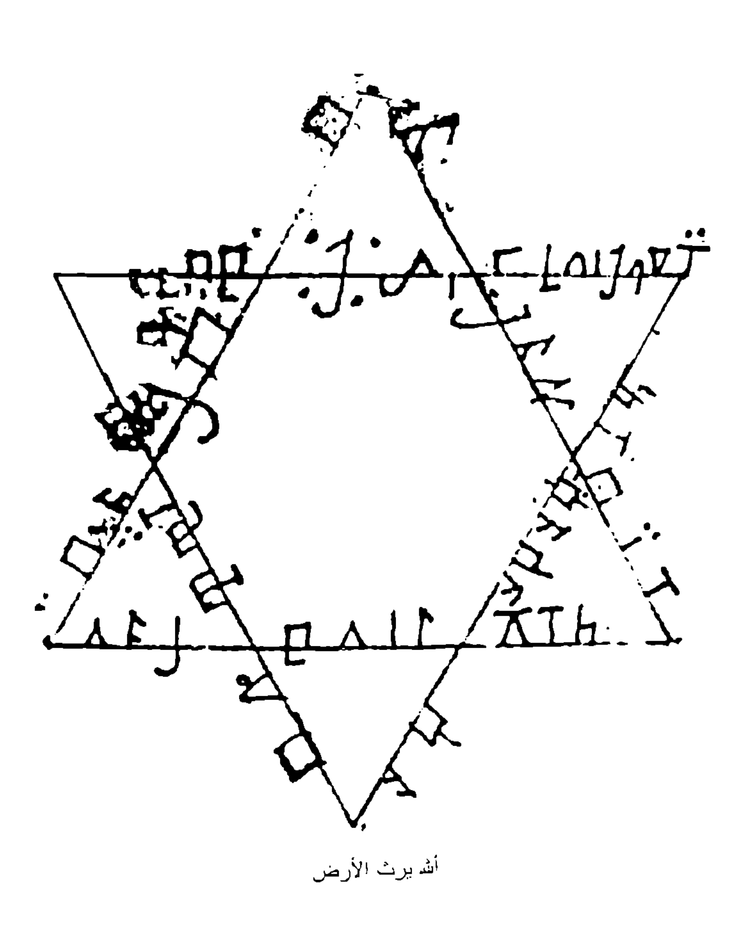
عن مزيد من التوسّع وخلصت إلى دلالة هذه المسألة في دراسة الحديث النبوي وما طرأ عليه من تغيير وإضافات... وموضوعات.

وبكلمة، لقد اجتهدت، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، في أن تكون دراستي مدخلاً وتكملة في آن لأطروحة ولفنسون، فيكون هذا الكتاب بقسميه الدراسة/المدخل والأطروحة مرجعاً وافياً في موضوعه،وفاتحة لمزيد من الأبحاث في شخصيّة مركزيّة في التاريخ الإسلامي حيّرت الدارسين ولم تستوفي بعد ما تستحقّ من اهتمام.

Q.J.C.S.T.B

باريس في 2011/01/15





أشـ يرث الأرض



د . لويس صليبا

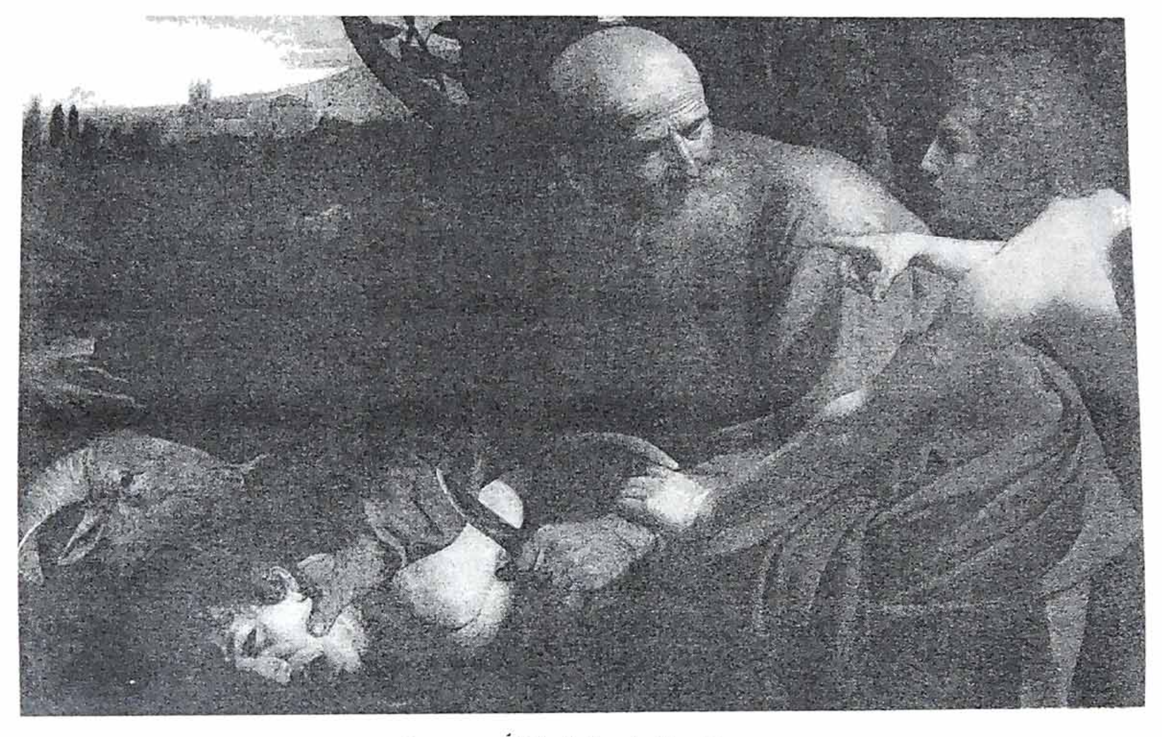
الأثر اليهودي

في الحديث النبوي والتفسير

دراسة ومدخل وتكملة لكتاب

كعب الأحبار

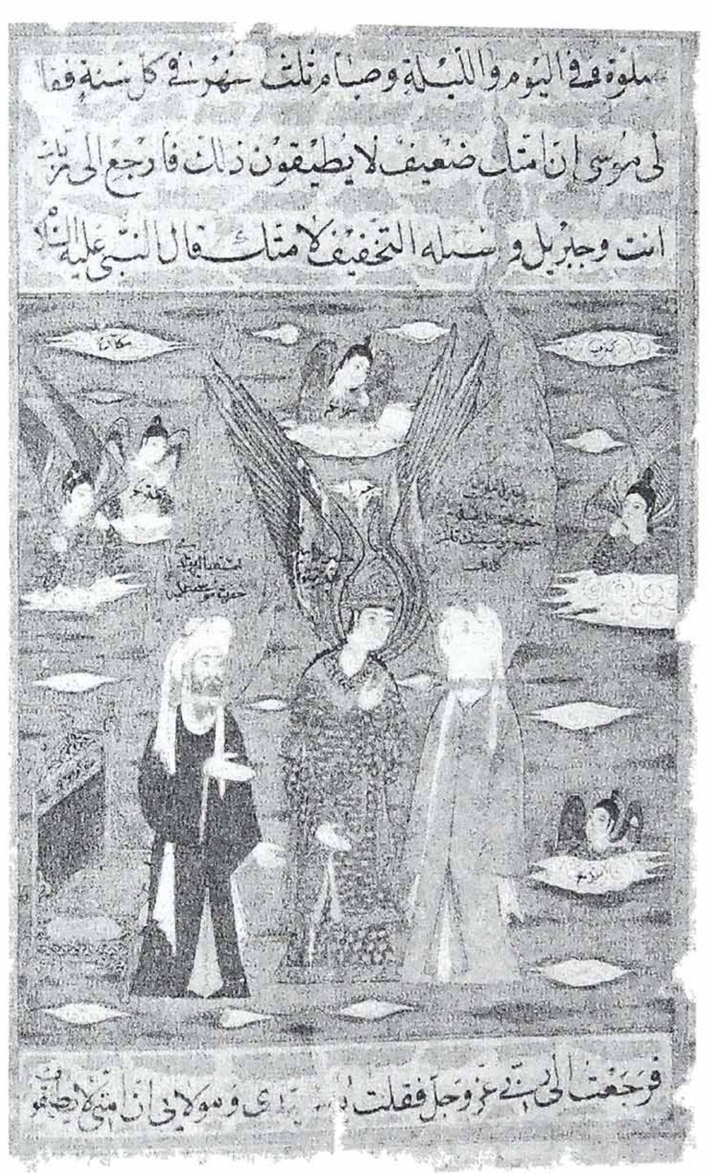
لإسرائيل (ولفنسون) بن زئيف



تضحية إبراهيم بابنه/لوحة للفنّان Caravage



مقدمة الدراسة



لقاء النبي موسى ليلة المعراج، مُنَمْنَمة تركيّة من القرن 16 م/برلين متحف الفن الإسلامي

نعود مجدداً لنلتقي إسرائيل ولفنسون (1899 – 1980) باسم جديد: إسرائيل بن زئيف (أبو ذؤيب)، بعدما غيّر اسمه. وبكتاب آخر: "كعب الأحبار". كان مشروع أبي ذؤيب الأساسي: «إصدار سلسلة أبحاث في تاريخ اليهود في العصور الإسلامية تكون متدرّجة تدرّجاً تأريخياً، يساير الزمن ويتابع الأحداث» وفق تعبيره[1]. ونشر من السلسله هذه ثلاثة كتب: "تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام"، "كعب الأحبار" و"موسى بن مَيْمُونْ". سبق ونشرنا في سلسلة "اليهودية بأقلام يهودية" الكتاب الأوّل مرفقاً بدراسة تحليليّة ومدخل. والكتاب الثالث موسى بن مَيْمُونْ. وها نحن، وبعد زمن من البحث والانتظار والعمل نصدر الحلقة الوسطى من ثلاثية ولفنسون: كعب الأحبار. والكتاب الذي نقدّم اليوم هو في الأصل أطروحة باللغة الألمانيّة نال على أساسها المؤلّف الدكتوراه في الفلسفة من جامعة فرانكفورت/ألمانيا عام 1933. وبعد نيل الشهادة صدرت الأطروحة في كتاب بلغتها الأصلية.

وبعد أكثر من أربعين عاماً، عاد الكاتب إلى أطروحته هذه فنقلها إلى العربية ونشرها في القدس عام 1976. وقد أعانه في إعداد النص العربي محمود عباسي مساعد وزير المعارف والثقافة في الحكومة الإسرائيليّة. أما نحن هنا فقد عمدنا إلى مراجعة الترجمة وتنقيح العديد من الأخطاء، لنصدرها في هذا الكتاب مسبوقة بدراسة نقديّة تحليليّة. ما

1- ولفنسون إسرائيل، موسى بن مَيْمُونْ حياته ومصنّفاته.

سنعود إلى الكلام عليه...

ولا شك أن البحث في سيرة كعب الأحبار، وأثره في الرواية والحديث والتفسير أمرٌ شيّقٌ وشائك في آن= وقت. وأبو ذؤيب باختياره له موضوعاً لأطروحته، كان رائداً ومغامراً في الوقت عينه. وأطروحة ولفنسون جديرة بالنشر من دون شك ولكن بالدراسة والتمحيص كذلك. ففي أثناء مراجعتنا نصّ الترجمة والتدقيق فيه ومتابعة بروفات الصفّ والتنضيد سجّلنا عدداً من الملاحظات على آراء الكاتب، كانت، في الحقيقة، النواة الأولى لهذه الدراسة. وكعب الأحبار، هذا الحِبْر اليهوديّ الذي طوى زمناً مديداً من عمره في اليهوديّة، ولم يدخل الإسلام، على ما يبدو، إلا في الشيخوخة، شخصيّة طالما لفتت نظرنا، وأثارت في النفس التساؤلات. وقد اختلفت آراء الكتّاب فيها، ولا سيما المعاصرون منهم. فبعضهم ذهب في التشنيع عليه إلى حدّ اتهامه بالدخول في الإسلام لإفساده ورمي مسؤولية جريمة اغتيال الخليفة عمر الفاروق عليه. وبعضهم الآخر برّأ ساحته. لا سيما وأن السلف من صحابة وتابعين ومؤرّخين ومحدّثين لم يشكّوا غالباً في حسن إسلامه. هذا التناقض في الآراء حفزنا للعودة إلى المصادر واستقرائها، وإعادة القراءة النقديّة لأطروحة بن زئيف على ضوئها، فكانت هذه الدراسة التي تجيء بمثابة مدخل لهذه الأخيرة ومكمّل لها في آن.

في **الفصل الأول** من دراستنا توقّفنا عند المؤلف إسرائيل بن زئيف (ولفنسون) وبذلنا جهوداً حثيثة للتعرّف على هذا الكاتب. وأوّل عقبة واجهتنا كانت إغفال ذكره في المراجع والقواميس العربية. أما الثانية والأهم فهي تغيير اسمه من ولفنسون إلى بن زئيف. وهو أمر لم نفطن له

بدايةً. فكدنا لا نجد له أثراً في المكتبات الغربية ومواقعها على الإنترنت. أما نشاطه الصهيوني فنعترف أننا لا نزال في بداية التعرّف عليه. وكل ما جمعناه عن هذا الكاتب دوّناه في الفصل الأوّل من الدراسة. وهو وإن لم يكن شاملاً كاملاً، فكافٍ لإعطاء صورة واضحة عنه. ولعلّ دراستنا هذه هي الأولى في العربية التي ترسم ملامح شخصيّة هذا المؤلّف وتعرض لنشاطاته السياسيّة ولنتاجه الفكري. ولا بدّ هنا من أن نسجّل شكرنا الخالص للصديق الباحث **أحمد الحوت** الذي كان له الفضل في البحث والتنقيب عن الكثير من المعلومات عن ولفنسون.

وفي **الفصل الثاني** من الدراسة توقّفنا عند اللوحة التي يرسمها بن زئيف لكعب الأحبار ومدى انطباقها على الواقع التاريخي مقارنة بما جاء عنه في المصادر. فكعب وفق أبي ذؤيب «كان يهودياً من المهد إلى اللحد... وكان بعد إسلامه وكأنه لم يترك دين أجداده». ألا يطرح هذا الحكم السؤال عن حسن إسلام كعب وصدقه. وهو أمرٌ لا يشكّ فيه الكاتب؟! أليس في الأمر مفارقة أن نؤكّد حسن إسلام امرئ وبقائه على يهوديّته في آن؟ هذا ما عمدنا إلى البحث فيه في الفصل الثاني.

أما **الفصل الثالث**، وهو الأطول، فقد خصّصناه لمسألة أثارت الكثير من الجدل في الإسلام، ولا تزال: من هو الذبيح الذي يشير إليه القرآن ولا يسمّيه: إسحَق أم أخوه إسمعيل؟! كعب الأحبار يقول إنه إسحق. وولفنسون بعد العودة إلى المصادر العربية وغيرها يقول إن آراء أهل القرن الأوّل للهجرة في الإسلام كانت تتّفق على أنه إسحاق. ولم يبدأ الخلاف على هويّة الذبيح إلا منذ القرن الثاني هـ، ولأسباب عرقية وعُصَبيّة وشعوبيّة. وهذا ما دفعنا إلى العودة إلى مصادر الكاتب وغيرها مما لم

يطّلع هو عليه، واستكمال بحثه بالتالي في هذه المسألة الشائقة والشيّقة في آن. فكلّما قدُمت المصادر واقتربت من عصر النبي، صلعم، اتّفقت آراؤها على أن الذبيح هو إسحاق. وقد اعتمدنا التسلسل التاريخي لعرض المظانّ، وقسّمنا آراء عُلماء الإسلام في هذه المسألة إلى ثلاثة: فمنهم مَن قال الذبيح إسحق، ومنهم مَن لم يقطع في هويته فأورد الرأيين، ومنهم مَن رجّح أنه إسمعيل. وقد عرضنا لمختلف هذه الآراء متوقّفين عند ما هو أبرز من تفاصيل الخلاف: أي دلالته على ما طرأ من تغيير واضطراب في الرواية والأحاديث.

وهذا ما قادنا إلى موضوع **الفصل الرابع**: ما دَخَلَ الحديث النبوي من إسرائيليات. روايات تنسبها مصادر إلى كعب، وترجع نسبتها أخرى إلى الرسول، صلعم، نفسه. فصحيح مسلم مثلاً ينسب إلى نبي الإسلام، صلعم، أوصافاً للأنبياء نجدها في كتب أخرى مرويّة على لسان كعب. والأمثلة تتعدّد وتكثر. كيف علّل ولفنسون الاضطراب والاختلاف المذكورَين؟ وإلى أي مدى يمكن الكلام على أثر يهودي في الحديث النبوي؟! هذا ما حاولنا الإجابة عنه في الفصل الرابع.

أما **الفصل الخامس**، فمجموعة ملاحظات ونقود على عدد من آراء ولفنسون، تحاول أن تتبيّن منهجيّته وموضوعيّته وتشير إلى بعض آثار الدعاية الصهيونيّة في دراسته التي تعتبر إجمالاً أكاديميّة وموثّقة.

ماذا الآن عن **القسم الثاني من الكتاب**، أي أطروحة بن زئيف نفسها "كعب الأحبار" ومنهجيتنا في نشرها.

قلنا إن النصّ الأصلي لها كتب بالألمانيّة عام 1933. وقد أصدر المؤلّف ترجمة عربيّة له عام 1976. لكن الترجمة شابها عدد من الأخطاء

والتعابير غير الدقيقة أو الواضحة. فعمدنا نحن إلى مراجعة الترجمة وتصحيح الهفوات مقارنة بالأصل، مع الحفاظ على لغة الكاتب وأسلوبه وطريقته في التعبير. فالنصّ نصّ بن زئيف كاملاً غير منقوص. في حين اقتصر عملنا على التنقيح والتصحيح.

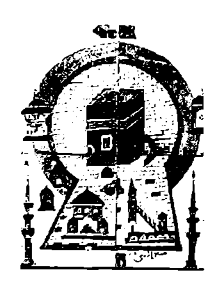
وكانت لنا مساهمة في إخراج الكتاب ووضع بعض العناوين الداخلية وترقيم هذه الأخيرة لتسهيل الرجوع إلى المواضيع. لم نتدخّل في نصّ أبي ذؤيب ولا علّقنا عليه. وملاحظاتنا يمكن العودة إليها في الدراسة التي تسبقه.

نأمل أن يكون عملنا هذا مساهمة مفيدة في حقل الدراسات في الأديان المقارنة الذي نعمل فيه منذ زمن. وللقارئ/الباحث الحكم الأوّل والأخير.

Q.J.C.S.T.B

د. لويس صليبا

السوربون/باريس في 2009/02/06



تقدمة الاخلاص لصديقي

الفاضل الشاعر المطلق

جمال يوسف ليفي ابوعد

من المؤلف

اسرائيل ولفنسن

١٥ مارس ١٩٢٧

إسرائيل ولفنسون يهدي كتابه موسى بن مَيمون إلى صديق له

الفصل الأول

إسرائيل بن زئيف (ولفنسون)

حياته ومؤلفاته

مواضيع الفصل:

- إسرائيل بن زئيف (ولفنسون): حياته وثقافته.
- نشاطه الصهيوني.
- ولفنسون يغيّر اسمه.
- أبرز مؤلّفات ولفنسون
- منهجيّة ولفنسون

إسرائيل بن زئيف (ولفنسون): حياته وثقافته

لا نجد في المراجع العربية عن إسرائيل ولفنسون شيئاً يشفي الغليل. فقد غيّب اسمه عن الموسوعات التي تعرّف بكتّاب اللغة العربيّة مثل الأعلام للزركلي ومعجم المؤلّفين لكحّالة ومصادر الدراسات الأدبيّة لداغر وغيرها. ولا ندري سبباً لإغفال مؤلّف كهذا، في موسوعات حَوَتْ أسماء أقلّ منه شأناً وتأثيراً. هل يعود ذلك إلى أصله اليهودي؟ ربما. والموسوعة الوحيدة التي وجدنا ذكراً له فيها هي: المستشرقون للبناني نجيب العقيقي [1].

وأبرز ما جمعناه عنه ما ورد في مقدّمات كتبه، ونبذ وإشارات متفرّقة في عدد من المقالات على مواقع الإنترنت. ومصادرنا هذه، على محدوديتها، كافية لرسم صورة واضحة عنه.

ولد إسرائيل بن زئيف "ولفنسون سابقاً" والمعروف بأبي ذؤيب في حي مئة شعريم في القدس سنة 1899 في عائلة قدمت من روسيا البيضاء سنة 1809. وهي، كما يقول مترجمه محمود عبّاسي: عائلة متديّنة محافظة [2].

1- العقيقي، نجيب، المستشرقون، موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، القاهرة، دار المعارف، ط 3، 1965، ج 2، ص 762.

2- عبّاسي، محمود، تقديم كتاب كعب الأحبار لإسرائيل بن زئيف (أبو ذؤيب)، القدس، مطبعة الشرق التعاونية، ط1، 1976.



إسرائيل ولفنسون عندما كان محاضراً في جامعة القاهرة

واسم عائلته "ولفنسون" كلمة ألمانيّة مركّبة من عبارتين: "وولف" وتعني الذئب، وسون تعني ابن. ولفنسون هو إذاً الذئب الصغير أو "ذؤيب" أو أبو ذؤيب[1] كما تلقّب في مصر. وبالعبريّة "بن زئيف". وهو الإسم الذي استخدمه كما يبدو بعد عودته إلى فلسطين مفضّلاً اسماً عبريّاً على اسم العائلة الألماني الذي كان يحمله. وسنعود لاحقاً إلى دوافع تغيير الإسم.

درس أبو ذؤيب بداية في الكُتّاب وفي المدارس الدينيّة اليهوديّة. ثم انتقل من مدرسة لامل إلى دار المعلّمين حيث توسّع في دراسة المواد الأدبيّة والعلميّة. وكان لدراسته هذه الأثر الحاسم في شخصيّته. أنهى الدراسة في دار المعلّمين عام 1916. ومارس التعليم في مدرسة يهوديّة أهليّة في يافا.

وبعد نهاية الحرب العالميّة الأولى عاد إلى مقاعد الدراسة في دار المعلّمين التي كان يديرها الدكتور خليل طوطح والأستاذ سامح الخالدي بعده. وأتقن فيها اللغة العربيّة. وتتلمذ على الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي والأديب إسعاف النشاشيبي. وقد ربطته بهذا الأخير صداقة دامت حتى وفاة الصديق. وكان من بين زملائه في دار المعلّمين هذه، المفتي الحاج أمين الحسيني والسيد محمد نمر الهواري قاضي المحكمة المركزيّة في الناصرة.

عام 1922 التحق بجامعة القاهرة. وكان أوّل طالب يهودي يلتحق بها. وينال شهادة دكتوراه منها. وكان الأستاذ المشرف على الأطروحة طه

1- أبو ذؤيب اسم لشاعر مخضرم جاهلي أدرك الإسلام (ت648م)، قال عنه ابن سلاّم الجمجمي: «كان شاعراً فحلاً لا غميزة فيه ولا وهن، اشتهر بقصيدته العينيّة في رثاء أولاده والتي تعتبر أشهر قصائد الرثاء».

حسين. يقول مرتضى العسكري في ذلك:«أوّل دكتوراه منحتها كليّة الآداب في جامعة القاهرة تحت إشراف الدكتور طه حسين كانت بعنوان "القبائل اليهوديّة في البلاد العربيّة" تقدّم بها إسرائيل ولفنسون[1]. وقد أصدر أبو ذؤيب أطروحته هذه تحت عنوان: "تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام"، عام 1927. نشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة مع مقدّمة لِ طه حسين.



إسرائيل ولفنسون برفقة طه حسين وأحمد أمين وعدد من أساتذة الجامعة المصريّة

وعام 1929 أصدر له الناشر عينه كتاباً آخر هو "تاريخ اللغات السامية". وفي هذه السنة سافر ولفنسون إلى ألمانيا والنمسا. والتحق بعدد من جامعات ڤيينا وميونخ وبرلين. وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة فرانكفورت عام 1933. وكان موضوع أطروحته

1- العسكري، مرتضى، مع رجال الفكر في القاهرة، القاهرة، ط 1، 1974، ص 166.

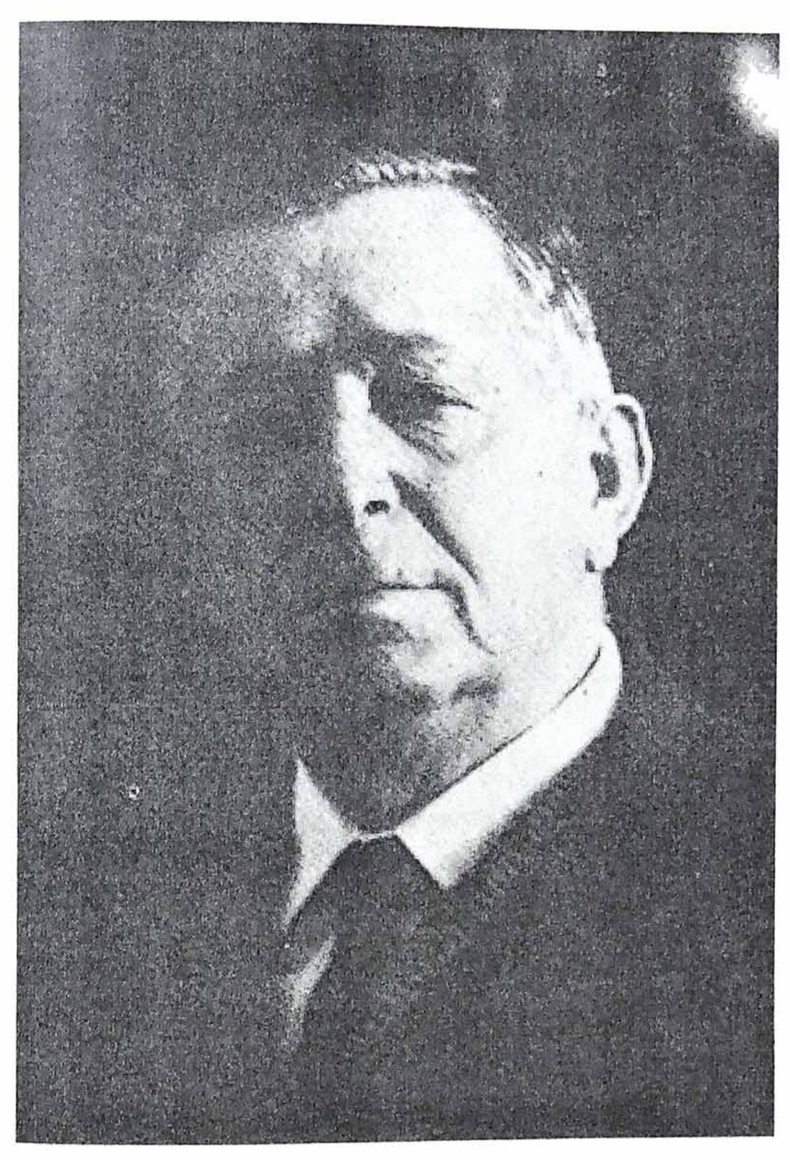
"كعب الأحبار" وقد صدرت في كتاب بالألمانيّة[1]. وفي السنة عينها 1933 عاد إلى القاهرة فعُيّن محاضراً في دار العلوم بجامعة القاهرة. وعمل سكرتيراً للجاليّة اليهوديّة في القاهرة.



إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب) مع عدد من طلاّبه، وإلى جانبه تلميذه إسحاق موسى الحسيني

سنة 1940 استدعته اللجنة القوميّة الإسرائيليّة ليتسلّم منصب رئيس قسم المعارف لتعليم اللغة العربيّة في المدارس اليهوديّة. وبعد قيام دولة إسرائيل (1949) عُيّن مفتشاً عن تعليم اللغة العربيّة في المدارس اليهوديّة، واحتفظ بمنصبه هذا حتى سنة 1965. تعرّف على ملك الأردن عبد الله الذي كلّفه بتحليل ودراسة وتحقيق مخطوطة كشاجم المصائد والمطارد. فنشرها في مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق.

1- نشره F. W. Kalbfleisch عام 1933.



إسرائيل بن زئيف (ولفنسون) في واحدة من أواخر صوره

وحلّ ولفنسون مرّات عديدة ضيفاً في بلاط الملك. وكان من المقرّبين إليه[1].

عمل في السبعينات من القرن العشرين عميداً لجامعة هداسا في تل أبيب[2].

توفي عام 1980[3] فَنَعَتْهُ الحكومة الإسرائيليّة، وأقيم له مأتم رسمي حاشد إقراراً بفضله ومساهماته في الدراسات العربيّة والعبريّة، وجهوده في حقل التربية وتعليم اللغة العربيّة[4].

نشاطه الصهيوني

لم يقتصر عمل أبي ذؤيب في مصر على الجانب الدراسي والتعليمي، بل شارك في العديد من النشاطات السياسيّة والفكريّة التي كان يهود مصر يقومون بها. كانت الحركة الصهيونيّة في بداية القرن العشرين في أوج نشاطها في مختلف أنحاء العالم. وكانت ذروة نتائج هذا النشاط وعد بلفور عام 1917[5]. واليهود في مصر لم يكونوا بعيدين عن طموحات سائر يهود العالم وتوجّهاتهم. بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كان قربهم من فلسطين التي ازدادت فيها حركة الاستيطان اليهودي

1- عبّاسي، محمود، م.س.

2- العسكري، م. س، ص 166.

3- Snir, Reuven, we are arabs before we are Jews, the emergence and demise of arab Jewish culture in modem times, EJOS, VIII, No 9, 2005, p. 18.

4- المركز الفلسطيني للإعلام، ذاكرة أيام مايو، 2008، ص 3.

5- درسنا أصداء هذا الوعد في مصر في كتابنا: صليبا، د. لويس، من تاريخ الصهيونيّة في أرض الإسلام، دراسة لجذورها في المشرق وتلفيقاتها لتاريخه، سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة 8، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007، ص 202 – 207.

حافزاً لمزيد من النشاط السياسي والفكري والديني، وصولاً إلى تحقيق أهداف الصهيونيّة العالميّة، وأوّلها إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

وكان ولفنسون واحداً من اليهود الناشطين البارزين في مصر. وتربطه بزعماء اليهود المصريين ووجهائهم صداقة وعلاقات مميزة. عام 1925 أنشأ اليهود المصريّون جمعيّة الأبحاث التاريخيّة الإسرائيليّة المصريّة تحت رعاية حاخام مصر الأكبر ناحوم حاييم، وشكّلت هذه الجمعيّة لجنة لجرد الكتب والمخطوطات اليهوديّة المصريّة القديمة وأخرى لنشر الكتب. وثالثة للعلاقات الخارجية. وكان د. إسرائيل ولفنسون من أبرز أعضاء هذه الجمعية[1]. وشارك أبو ذؤيب في تحرير جريدة الشمس الأسبوعيّة. وقد أصدرها سعد يعقوب المالكي ابتداءً من عام 1934، لتعبّر عن وجهة نظر الطائفة اليهوديّة في مجريات الأحداث في الشارع المصري. «وكانت هذه الصحيفة تحاول التوفيق بين المشروع الصهيوني وتطلّعات وأهداف الحركة الوطنيّة في مصر في محاولة لإيجاد نقطة التقاء بين التيّارَين»[2]. وكان هدف "الشمس" كما يقول أحد الصحفيين اليهود في فلسطين الذين شاركوا في تحريرها «أن تؤدّي خدمة جليلة ليهود الشرق وأن يُسمع صوتهم على صفحاتها. وأن تعمل على بثّ الروح الوطنية وتأييد النهضة الحديثة الرائعة في فلسطين، وأن ترسل من فوق منبرها كلمة الاستنهاض إلى الطوائف الإسرائيليّة في مصر وسوريا والعراق واليَمَن وتونس ومراكش وأميركا. وأن تَحْمِل الجريدة البُشرى إلى تلك

1- أبو الغار، د. محمد، المحذوف من تاريخ يهود مصر، القاهرة، دار الهلال، 2008، ص 8.

2- م. ن.

الطوائف عن نهضة فلسطين. وأن تقوم بتقوية الروابط التي ربطت اليهود برغم تشتّتهم، وتبعث فيهم الشعور الوطني، لكي ينهضوا ويعملوا بحزم ونشاط لتجديد موطن أجدادهم وإحياء لغة أمّتهم»[1].

والطابع المصري الوطني الذي حاولت "الشمس" جهدها أن تضعه في الواجهة، للاحتماء به والاختفاء خلفه على الأرجح، مكّنها أن تواصل صدورها حتى العام 1948. «ولم تُدرك الحكومة المصريّة أهمّية الدور الذي أدّته هذه الصحيفة التي ظلت تعمل من أجل أهدافها بهدوء إلا بعد قيام دولة إسرائيل عام 1948 وبعد أن تقدّمت الجامعة العربيّة إلى إدارة المطبوعات بشكايات ضدّ هذه الصحيفة تتّهمها بأنّها دَأَبَتْ على الطعن في رجال العروبة والجامعة العربية والدسّ للقضايا العربيّة عامة، والدعوة إلى تأييد مطامع صهيونيّة في القطر الشقيق. وبأنها تصدر بأموال الحركة الصهيونيّة في مصر. فأصدرت الرقابة العامّة قرارها بتعطيل "الشمس" اعتباراً من 1948/06/11، ومُصادرة جميع النُسخ التي قد تكون موجودة بالمكاتب أو بأيدي الباعة»[2].

وكان لإسرائيل ولفنسون دوراً فاعلاً في جريدة الشمس تحريراً ودعماً. ففي عددها الأوّل الصادر في 1934/09/14 نجد مقالة له على صدر الصفحة الأولى. وقد استمرّ يراسل الجريدة بعد عودته إلى فلسطين عام 1940. يقول في رسالة له إلى صاحب "الشمس" ورئيس تحريرها سعد يعقوب المالكي نشرت في الجريدة: «لقد سرّني ما رأيت منكم من

1- صحيفة الشمس في 1934/10/12 نقلاً عن: نصار، سهام، اليهود المصريّون صحفهم ومجلاّتهم، القاهرة، العربي للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص 63.

2- نصار، سهام، م. س، ص 67.

العزيمة على نشر جريدة تكون لسان حال الشعب اليهودي بالديار المصريّة. إن هذا العمل جريء وسيؤدّي إلى انقلاب في الحياة الاجتماعيّة والأدبيّة اليهوديّة ليس في الأمصار المصريّة فحسب، بل في الأقطار الشرقية والإسلامية التي فيها جماعات وطوائف من بني إسرائيل»[1].

ومن القُدس وجّه ولفنسون نداءً إلى المسؤولين من رجالات اليهود في القاهرة والإسكندريّة، «دعاهم فيه إلى تكوين لجنة مالية تتكفّل بنفقات صدور الصحيفة يومياً، ولمدّة عام، وبعد سيمكنها الاعتماد على نفسها»[2].

ومن القُدس كذلك راسل «أبو ذؤيب» صحفاً يهوديّة مصريّة أخرى. ففي 1945/02/16 أصدرت جمعيّة الشبّان الإسرائيليين القرّائين في القاهرة مجلة نصف شهرية تُدعى "الكليم" لتكون لساناً معبّراً عن أماني طائفة القرّائين، وداعية إلى رفع مستواها، والنهوض بجميع مرافقها الاجتماعيّة والفكريّة.

وعلى أثر صدور "الكليم"، بعث ولفنسون، وكان يومها مدرّساً بالجامعة العبريّة بالقدس، رسالة إلى مراد ليتو رئيس تحرير المجلة نشر في عدد 1945/04/01. وقد أعرب فيها عن سروره البالغ لصدور الكليم كصحيفة ناطقة بلسان القرّائين بمصر. وهي أمنية طالما تحدّث بشأنها مع الأُدباء اليهود المصريين إلى أن وُفّقوا إلى تحقيقها.

وطالب ولفنسون في رسالته، القيّمين على المجلّة «بضرورة الاهتمام بأخبار اليهود القرّائين، وخصوصاً بعد المِحن والمصائب التي حلّت باليهود

1- نصار، م. س، ص 65.

2- م.ن، ص 66.

في جميع بلدان المعمور في أثناء الحرب العالميّة الثانية. وأَوْضَح أن لهذه المجلّة أهمّية تكمن، لا في أنها الصحيفة الناطقة بلسان القرّائين في مصر وحسب، بل في أنها الناطقة بلسانهم في العالم كلّه. لأنه لم يكُن للقرّائين في أي من البلدان مجلة أو صحيفة تنطق باسمهم في ذلك الوقت. ولذلك دعا إلى الحصول على أخبار البقيّة الباقية من الطوائف اليهوديّة للقرّائين التي لم يسمعوا عنها شيئاً منذ بداية الحرب».

«والى جانب ذلك أَعْرَب ولفنسون عن أمله في أن تكون "الكليم" منارة الاتصال بين طائفتَي القرّائين والربّانيّين حتى يعملا معاً على إحياء مجد اليهود الغابر»[1].

وقد استمرت مجلة الكليم بالصدور في القاهرة بعد قيام دولة إسرائيل. ولكنها امتنعت عندها عن نشر الأخبار السياسيّة. واقتصرت على الموضوعات الدينيّة والأدبيّة. وبقيت تصدر حتى عددها الأخير في 1957/05/4.

هذا أبرز ما نملكه حتى الآن من معطيات عن نشاط ولفنسون الصهيوني في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين في مصر، ومتابعته له عبر التواصل مع يهود مصر بعد عودته إلى القدس.

ولفنسون يغيّر اسمه

نعلم، كما أسلفنا، أن ولفنسون استدعي عام 1945 إلى فلسطين، ليتسلّم منصب رئيس قسم المعارف لتعليم العربيّة في المدارس اليهوديّة.

ويبدو أنه عمد بعد رجوعه إلى فلسطين إلى تغيير اسم عائلته فصار يوقّع باسم إسرائيل "بن زئيف". و"بن زئيف" كما رأينا هي الترجمة العبريّة لاسم عائلته الألماني "ولفنسون"[1]. وكان سبق له أن استعمل في مصر لقب "أبو ذؤيب" وهو الترجمة العربيّة لاسم عائلته. ولكن ما هي الدوافع والأسباب التي حدت به إلى تغيير اسمه من ولفنسون إلى بن زئيف؟؟ لا سيما بعد أن اشتهر بالإسم الأوّل، ونشر أربعة كُتُب وعدداً كبيراً من المقالات التي عرفت رواجاً جيّداً! غالباً ما يعمل الكاتب، والإنسان عموماً، سحابة حياته من أجل اسمه وصِيْطه وسُمعته وشُهرته إلخ... والإسم رمز لكل هذه، ونوع من تأكيد الذات فلِمَ التنكّر لهذا الإسم وتغييره؟! أَهُوَ تحاشٍ لإسم ألماني في حقبة الجرائم النازية بحقّ اليهود؟! رأينا ملامح التغيير في الإسم في الحقبة المصريّة من حياة ولفنسون إذ عمد، كما أسلفنا، إلى استخدام لقب "أبو ذؤيب" إلى جانب "إسرائيل ولفنسون". أما في فلسطين فقد حذف اسم العائلة "ولفنسون" نهائيّاً واستخدم الصيغة العبريّة "بن زئيف" له. هذا التغيير في الإسم عقّد عمليّة البحث عن معلومات عن هذا المفكّر وكُتُبه. فالمكتبات العامّة العالميّة تورد كُتُبه تحت اسم بن زئيف. في حين أن المكتبات العربيّة أبقت على "ولفنسون" وتجهل تماماً، على الأرجح، الإسم الجديد. وقد عانيْنا في بداية بحثنا هذه المشكلة، وما كنا ندري أن "بن زئيف" هو نفسه إسرائيل ولفنسون.

ولكن لِمَ هذا التغيير؟! ليس في الأمر تخفٍّ، على ما نرجّح، ولعلّ الدافع الرئيسي كان تأكيد الهويّة الجديدة، الهويّة الأصليّة بالنسبة إليه:

1- البهنساوي، أحمد، مقالة عن كتاب يهود ولكن مصريّون، القاهرة، مجلّة ولاد البلد، 2008/02/02، ص2.

الانتماء العبري هويّة كل إسرائيلي ويهودي بشكل عام. والصيغة العبريّة للإسم تُترجِم هذا الانتماء وتعبّر عنه. مع العودة إلى فلسطين بدأت حقبة ثالثة من حياة إسرائيل ولفنسون. فتحوّل أبو ذؤيب المصري الإقامة إلى بن زئيف الإسرائيلي إقامة وهويّة. والإسم الجديد، أو بالأحرى الإسم الأصلي تأكيد للهويّة هذه. فإسم الإنسان يختصر هويّته ويحدّدها. وبمعرفة اسمه تعرف كل شيء عنه، كما يقول متصوّفو القبالا اليهوديّة.

أبرز مؤلّفات ولفنسون

1- تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام.

صدر في طبعته الأولى عن لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة، عام 1927 وكان أساساً أطروحة دكتوراه، في الجامعة المصريّة، أشرف عليها د. طه حسين. وقد درسناه في الجزء الخامس من سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة ونشرنا نصّه الكامل[1]. فنحيل إلى الدراسة تلافياً للتكرار.

2 - تاريخ اللغات السامية

أصدرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في طبعته الأولى عام 1929، في القاهرة 294 ص. ولعلّه أوّل بحث أكاديمي في اللغات السامية يصدر بالعربيّة. جاء هذا المصنّف نتيجة خبرة سنوات في تدريس بعض اللغات السامية في الجامعة المصريّة. وهو، وفقاً لمؤلّفه، يسدّ ثغرة في المكتبة

1- صليبا، د. لويس، صراع اليهوديّة والاسلام من منظور يهودي، دراسة ومدخل لـ تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط2، 2009.

العربيّة لأنه: «إذا كان عُلماء الغرب قد اعتنوا منذ القرن الثامن عشر بالبحث في تاريخ اللّغات السامية، وأمكنهم أن يصلوا إلى نتائج باهرة، فإن هذه البحوث لا تزال مجهولة لدى الأمم الشرقيّة إلى الآن»[1].

ولعلّ أبرز أهداف هذا الكتاب وميّزاته في آن، هو دراسة أثر اللغات السامية على شقيقتها اللغة العربيّة نحواً وصرفاً.

يقول ولفنسون:«إننا لا نعفي من دراسة اللّغات السامية كل مَن يشتغل بدراسة اللغة العربيّة، ويتوغّل في تحليل نحوها وصرفها وبلاغتها، إذ كانت في ذلك كلّه متأثرة بأخواتها من اللّغات السامية»[2]، والبحث في نشأة اللغة العربيّة، هي برأي ولفنسون أبرز مساهمات هذا الكتاب. حيث توصّل في هذا المضمار إلى نتائج شخصيّة، لم يعوّل فيها على مَنْ سبقه مِن المستشرقين، كما هو الأمر في سائر فصول الكتاب. يقول في ذلك:«وقد عنيت بالبحث في نشأة اللغة العربيّة. ووصلتُ فيه إلى نتائج هي ثمرة جهودي الشخصيّة. إذ كانت بحوث المستشرقين في نشأة اللغة العربيّة ناقصة وموجزة، بل وغامضة. في حين كانت بحوثهم في أغلب اللغات السامية وافية. لا سيّما في العبريّة. فلهم فيها أبحاث جليلة، لذلك اهْتَمَمْت جدّ الاهتمام بالبحث في اللغة العربيّة. ووضعت لها ثلاثة أبواب مفصّلة. ألمَمت فيها بكلّ أطوار حياتها منذ الجاهليّة إلى الآن»[3].

يمتاز هذا الكتاب، كما سائر كتب ولفنسون، باتّساع دائرة مراجعه باللغات الغربيّة فرنسيّة وإنكليزيّة وألمانيّة وإيطاليّة وغيرها... إضافة إلى مراجع بالآراميّة والعبريّة.

---

1 - ولفنسون، إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، ص 5.

2 - ولفنسون، م. س، ص 5.

3 - م.ن، ص 6.

لقي "تاريخ اللغات السامية" الاستحسان والترحيب لدى عدد من الباحثين والمستشرقين. يقول البروفسور ليتمان وهو مستشرق وعالِم آثار ألماني في رسالة إلى المؤلِّف، عن الكتاب: «لقد قضَيت يوماً آخر كاملاً في قراءة فصولك عن اللغة العربيّة. وسرّني أنك جمعتَ موضوعات عويصة. واجتهدتَ أن تشرحها للقارئ بعبارة كانت دائماً واضحة ومفهومة»[1]، كما يقول المستشرق عينه في رسالة أخرى: «وإن لك الفضل العظيم، إذ أنت أوّل مَن وضع كتاباً في هذه المادة باللغة العربيّة. إن أسلوبك يعجبني جداً، وطريقتك في الكتابة تستحقّ الثناء العظيم، وكثير من تحليلك للآراء والنظريّات صحيح»[2].

3 - موسى بن ميمون، حياته ومصنّفاته

صدر أيضاً عن لجنة التأليف والترجمة والنشر في القاهرة عام 1936، (190 ص).

وقدّم للكتاب المفكّر المعروف الشيخ مصطفى عبد الرازق.

نلاحظ هنا، أن كُتُب ولفنسون الثلاثة، صدرت في طبعاتها الأولى عن ناشر رصين، وهو لجنة التأليف والترجمة والنشر. ما يدلّ لوحده على ميزة هذه الكُتُب وأهمّيتها ورصانتها. وقد اشتهرت هذه اللجنة بالفعل بتخيّر أبرز مصنّفات مشاهير كُتّاب ذلك العصر، ونشرها في حلّة فاخرة، وعنها يقول ولفنسون: «عناية فائقة تبذلها دائماً في نشر الكُتب القيّمة، والمؤلّفات الجدّية، متوخّية في ذلك رفع «المستوى الفكري العام

---

1 - م. س، ص 6.

2 - م. س، ص 7.

لجمهور المستنيرين»[1].

وكتاب "موسى بن مَيْمُون" هو الآخر أوّل دراسة موثّقة ومعمّقة تنشر عن هذا الفيلسوف اليهودي العربيّ باللغة العربيّة. وفيه كما في الكتب الأخرى عودة إلى مئات المراجع باللغات الغربيّة والسامية. ويقول في ذلك مصطفى عبد الرازق «ويكاد يشعر القارئ بأن المؤلّف لم يَفُته مرجع من مراجع بحثه»[2].

ويندرج هذا الكتاب في إطار الموضوع العام، الذي أَوْلاَه ولفنسون العناية الكُبرى في أبحاثه وكُتبه، وهو كما سبق وأشرنا "تاريخ اليهود في العصور الإسلاميّة" وكان على ما يبدو يودّ أن يصدر سلسلة من الكُتب في هذا المجال تتوافق والتسلسل التاريخي للأحداث.

وهذا ما يشير إليه في مقدّمة كتابه حيث يقول:«كنت معتزماً، منذ وجّهت عنايتي للكتابة في تاريخ اليهود في العصور الإسلاميّة أن أفرد موسى بن مَيْمُون، بمؤلّف خاصّ، أبحث فيه سيرة حياته، وأفصّل الكلام على مصنّفاته، بعد أن أتحرّى الأخبار التي سَبَقَت زمن وجوده، منذ انبثاق فجر الإسلام، **كي تكون سلسلة بحوثي في هذا الموضوع متدرّجة تدرّجاً تأريخياً، يساير الزمن، ويتابع الأحداث**».

ليست عندنا معلومات دقيقة، حول إذا ما كان ولفنسون، قد أكمل مشروع سلسلته هذه، المتدرّجة تدرّجاً تاريخيّاً. ولكن ما وصلنا من هذه السلسلة، حلقات ثلاث، الأولى كتاب "تاريخ اليهود في بلاد العرب" الذي نحن بصدد تقديمه، والثانية مُصنّف "موسى بن مَيْمُون" هذا. أمّا الثالثة

---

1 - ولفنسون، م. س، ص 7.

2 - ولفنسون، موسى بن مَيْمُون، ص ط.

فهي كتابه في اللغة الألمانيّة عن "كعب الأحبار". وسيَلي البحث عنه.

وبكلمة تقييميّة سريعة لهذا الكتاب، نقول: إنه يبقى إلى الآن، وبعد مضيّ سبعين سنة على صدوره، أبرز ما صدر بالعربيّة، عن هذا العالِم والفيلسوف، ومرجع لا غِنى عنه لدراسة الفلسفة الإسلاميّة في المغرب والأندلس، وانتقالها إلى أوربا العصور الوسطى، ودورها وتأثيرها في الفكر الغربيّ. وكذلك لبيان مدى التفاعل بين فلاسفة الإسلام واليهوديّة في العصور الوسطى.

أمّا منهجيّة ولفنسون العلميّة في هذا الكتاب، فنؤجّل الحديث عنها لنتناولها عندما نعرض لمنهجيّته بشكل عام.

4 - كتاب "كعب الأحبار"

وضعه ولفنسون بالألمانيّة. وهو كما أشرنا يندرج في سياق مشروعه لدراسة تاريخ اليهود في العصور الإسلاميّة. وكعب الأحبار شخصيّة بارزة في التاريخ الإسلاميّ وقد أثارت الكثير من الجدل، بل وأحياناً الشُبهات. وذلك يعود إلى نشاطه الكثيف في عصور عدد من الخُلفاء، وأثره في نشأة عدد من العلوم الإسلاميّة، كالحديث النبويّ، وعلم التفسير ما سنشير إليه بإيجاز هنا. اسمه كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري وكنيته أبو إسحاق. وكان من كبار عُلماء اليهود في اليَمَن قبل إسلامه، ومن هنا يأتي لقبه "كعب الأحبار". لم تكُن لكعب الأحبار صُحبة، أي أنه لم يعرف الرسول، صلعم، بل أسلم في خلافة أبي بكر أو عمر، فهو تابعيّ إذاً وليس صحابياً. قدم إلى المدينة في عهد عمر بن الخطاب. وكان له دور بارز في نشأة ما عُرف بالإسرائيليّات في كتب تفسير القرآن.

وتفصيل ذلك، أن الصحابة والتابعين أخذوا عن كعب كثيراً من

أخبار الأمم الغابرة، لا سيّما بني إسرائيل منها. وهي أخبار يلمع القرآن بإشارات إليها من دون تفصيل في الغالب. من هنا شكّلت روايات كعب الأحبار معيناً لتفسير إلماعات القرآن وأخباره. وكانت النواة الأولى للإسرائيليات. وقد أثارت هذه الأخيرة الكثير من الجدل واللّغط في العلوم الإسلاميّة، نظراً لمصدرها اليهوديّ غير الإسلاميّ، ممّا لا مجال هنا للخوض فيه. وبعد إقامته في المدينة، خرج كعب إلى الشام، وسكن حمص وتوفي فيها (32 هـ/652 م) عن مئة وأربع سنين، على ما تذكر بعض المصادر[1]. وذلك في خلافة عثمان بن عفّان.

وكان من المقرّبين إلى معاوية عندما كان هذا الأخير والياً على الشام. لذا يتّهمه الشيعة بوضع الكثير من الأحاديث، ويجرّحونه. كما يشكّك آخرون في صحّة إسلامه ويتّهمونه بالتآمر على الإسلام.

ومن هنا يظهر أن تناول كعب الأحبار بالبحث أمرٌ يثير الكثير من الحساسيّات بين الفِرَق الإسلاميّة. ولعلّ ذلك ما دفع إسرائيل ولفنسون إلى الكتابة عنه بالألمانيّة.

5 - كتاب "المصائد والمطارد"

وهو أبرز ما وصلنا من تحقيقات إسرائيل ولفنسون. "والمصائد والمطارد" كتاب وضعه شاعر عربيّ معروف هو أبو الفتح كشاجم (ت 360 هـ/ 970) وكان معاصراً للمتنبي في بلاط سيف الدولة الحمداني. عُرف عنه كثرة الترحّل. وقد نشر ولفنسون نصّ كتاب كشاجم هذا، محقّقاً عن المخطوطات، في مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق.

---

1 - الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم، بيروت، دار العِلم للملايين، ط 5، 1980، ج 5، ص 228.

6- الفصول المختارة من الأدب العربي

نشره باسمه الجديد إسرائيل بن زئيف. وهو كما يشير عنوانه مجموعة مختارة من النثر والشعر العربيَين، مع شرح وتعليق. كتاب ذو طابع مدرسي في تعليم اللغة العربيّة وآدابها. صدر عام 1954 في الناصرة عن مطبعة الحكيم.

7- مجموعة مقالات

كَتب أبو ذؤيب عدداً من المقالات في عدة مجلاّت وصُحُف. وأبرز ما حصلنا عليه منها مقالات في مجلّة الرسالة التي كان أحمد حسن الزيّات يصدرها في القاهرة.

الأوّل عن المستشرق برجستريس، كتبه إثر وفاة هذا الأخير ونشر في العدد 19 تاريخ 1933/10/15.

والثاني دراسة ومراجعة لكتاب أنساب الأشراف في العدد 180 من مجلّة الرسالة السنة 24.

- مقالة عن الإمام عبد الله بن وهب القرشي في جريدة الأهرام 1933/11/25 العدد 17590.

8- الكتب العبرية

بعد عودته إلى فلسطين، كَتَب أبو ذؤيب عدداً من المصنّفات باللغة العبريّة، صدرت في القدس بين 1944 و1965. وقد أحصينا منها سبعة كُتب صدرت باسم إسرائيل بن زئيف.

هذا أبرز ما وصَلَنا من مؤلّفات ولفنسون. ننتقل الآن إلى الحديث عن

أسلوبه العلمي بشكل عام.

منهجيّة ولفنسون

تبدو منهجيّة ولفنسون، من النظرة الأولى إلى آثاره، علميّة، رصينة، حديثة، ومتماسكة. ولكن من يدقّق النظر في النتائج والأحكام التي يطلقها، قد يختلف معه في الكثير من الآراء والاستنتاجات. وهذا ما سنتوسّع فيه في عرضنا لكتاب كعب الأحبار. فهل يعني ذلك أن في منهجيّته هذه هنات؟ أو بُعداً عن الحياد والموضوعيّة التي يُعلن ولفنسون دائماً التزامه بها؟ وهل يلجأ عن سابق تصوّر وتصميم إلى التستّر بمنهج أكاديميّ علميّ لتمرير جملة من الأحكام التي تتوافق مع مشاربه وانتمائه الديني؟!

ليس من السهل الإجابة بشكل قاطع عن أسئلة كهذه. ومعلوم أن الحياد التام، والموضوعيّة المطلقة في البحث، أمر ينتمي إلى عالم المثال أكثر منه إلى الواقع.. إذ تبقى ذاتيّة الباحث وانتماءاته... الخ تلعب دوراً في أبحاثه وتوجيه نتائجها.

إسرائيل ولفنسون رجل يهودي، وهو لا يخفي انتماءه هذا. يقول مثلاً في مقدّمة كتابه موسى بن مَيْمُون: «ولسنا نعلم رجلاً آخر، من أبناء جَلَدَتِنا، غير ابن مَيْمُون إلخ»[1].

وقد أهدى هذا الكتاب إلى يوسف قطاوي باشا، رئيس الطائفة الإسرائيليّة بمصر ووزير الماليّة السابق. وهو حتى لو أراد إخفاء انتمائه، لما استطاع، إلاّ بتغيير اسمه "إسرائيل" ربما، أو اعتماد اسم مُستعار.

---

1 - ولفنسون، موسى بن مَيْمُون، م. س، ص ك.

وطبيعيّ أن اختيار ولفنسون مواضيع دقيقة وحسّاسة مثل الصراع بين اليهود ومحمّد، صلعم، أو دور كعب الأحبار في نشأة علوم الحديث والتفسير، أو ما أشيع عن إسلام موسى بن مَيْمُون وارتداده، إلى ما هنالك من مواضيع خلافيّة، أثارت الكثير من الجدل، هو بحدّ ذاته كالسَيْر في حقل للألغام. فكيف يَأْمَن الباحث انتقادات، بل تهجّمات الفئة هذه أو تلك، من أطراف الصراع التي قد يثيرها بعض ما خلص إليه أو أورده في أبحاثه؟

وولفنسون من موقع انتمائه، موضع اتّهام القرّاء، قبل القراءة أحياناً، حتى يُثبت هو العكس. ولنا عودة إلى ملاحظات مختلفة بشأن "كعب الأحبار" ومنهجيّته. ونركّز كلامنا هنا على كُتبه الأخرى.

فإذا أخذنا كتابه تاريخ اللغات السامية مثلاً، نجده غنيّاً بالمراجع كما أشرنا. وعلى الرغم من أن كثيراً من موضوعاته ألسنيّة وفيلولوجية عويصة، فقد جاء شرحها في الغالب مبسّطاً ومفهوماً كما أشار المستشرق ليتمان. ما يدلّ على عمق في فهم الموضوع. ومقاربة ولفنسون لمواضيعه واسعة وشاملة. إذ تضمّ نماذج وأمثلة من كل لغة «لأن الآثار هي المرآة التي تتراءى فيها الصوَر الصحيحة للغات الأُمَم وعقليّاتها»[1]. ويضيف المؤلّف إلى النماذج الأدبيّة عرضاً ودراسة للنقوش والكتابات الأثريّة تدعم الطابع التقني العلمي للمقاربة.

أمّا كتاب موسى بن مَيْمُون، فمثال على النضج والدقّة في المنهجيّة العلميّة عند الباحث. وإذا قارنّا مصنّفه هذا بالأبحاث العربيّة المعاصرة له اتّضحت لنا ميزته من النواحي المنهجيّة والعلميّة. ويشير المؤلّف إلى ذلك في

---

1 - ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، م. س، ص 6.

المقدّمة فيقول:«وقد عنيت بذكر المصادر والمراجع في كلّ صفحة من صفحات الكتاب، كما فعلت في كُتبي السابقة. لأني أعدّ ذلك الإهمال الذي يقع فيه أكثر المؤلّفين للكتب العلميّة باللغة العربيّة، بعدم ذكر المصادر التي استقوا منها معلوماتهم، نقصاً علميّاً فاحشاً، يحطّ من قيمة ما دوّنوا. فوق ما لذلك من الصلة بناحية خلقيّة من الأخلاق الفرديّة أو العامّة»[1].

والجملة الأخيرة من كلامه، إشارة لبقة إلى السرقات الأدبيّة التي تكثر في الكتب العربيّة، التراثيّة منها، وكذلك المعاصرة للمؤلّف.

ونقد المصادر وغربلتها، وفصل الغثّ عن الثمين منها أمر أساسيّ في منهجيّة ولفنسون: يتابع القول في المقدّمة «وهناك مؤلّفات كثيرة تبحث في موسى بن مَيْمُون أو تشير إليه، لم أنقل منها شيئاً، إما لأن مؤلّفيها من المتأخّرين الذين لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم رَوُوا ما قاله الذين سبقوهم، أو لأنهم بحثوا في موضوعات لم أجد حاجة لأن أنقل عنهم فيها شيئاً. وقد نشأ عن ذلك أنني أهملت رسائل كثيرة تتعلّق بموضوعنا»[2]. ولكن الكاتب ذكر في نهاية مؤلّفه عناوين كل الكتب التي تناولت موضوعه، تسهيلاً للعودة إليها.

وقد نوّه الشيخ مصطفى عبد الرازق – مقدّم الكتاب – بمنهجيّة ولفنسون وأثنى عليها قائلاً: «والأستاذ ولفنسون بذكائه ونشاطه واستكماله لأدوات الدرس العلمي أهلٌ لأن يستوفي البحث في فلسفة القرون الوسطى اليهوديّة. فيكمل بذلك ما ينقص الآداب العربيّة في هذا

---

1 – ولفنسون، موسى بن مَيمُون، م. س، ص ل.
2 – م. ن، ص ل.

الباب. وهو جدير بالتشجيع والثناء»[1].

وكشاهد عمليّ ملموس على منهجيّة ولفنسون، سنعرض طريقة بحثه في موضوع أثار الكثير من الجدل، وهو قضيّة إسلام موسى بن مَيْمُون في الأندلس، قبل قدومه إلى مصر.

يبدأ ولفنسون بالقول أن ليس في جميع المصادر اليهوديّة أقلّ إشارة إلى إسلام أسرة مَيْمُون ، في الأندلس، أو في المغرب الأقصى[2]. ويشير إلى أن العديد من الكُتّاب اليهود قد وجّهوا على مرّ العصور انتقادات عنيفة لموسى بن مَيْمُون، لا سيّما بسبب استناده إلى فلسفة أرسطو، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى تكفيره وتسمية كتابه المشهور "ضلالة الحائرين" بدلاً من "دلالة الحائرين"[3]. ولكن، وعلى الرغم من كل ذلك، لم يتّهمه أحد باعتناق الإسلام، في أيّة مرحلة من مراحل حياته.

هنا يعود ولفنسون إلى المصادر العربيّة لاستقرائها. فهي الوحيدة التي رَوَتْ أشياء من هذا القبيل، فيفنّدها واحداً تلو الآخر. وهكذا يستنتج أن ابن العبري في تاريخ مختصر الدُوَل «قد نقل عن تاريخ الحُكماء للقفطي ما ذكره عن موسى بن مَيْمُونْ»[4] فيعود عندها للقفطي، ويورد نصّه بهذا الشأن. ويحلّل روايته ذاكراً ما فيها من ضعف. ثم يورد المصدر الثاني لهذا الخبر، وهو ابن أبي أُصَيْبَعَة في كتابه طبقات الأطبّاء، ويتوقّف عند عبارته: «وقيل إن الرئيس (ابن مَيْمُونْ) قد أسلم في المغرب»[5] ويسأل لماذا

1 - م. ن، ص ط.
2 - م. ن، ص 27.
3 - م. ن، ص 29.
4 - م. ن، ص 30.
5 - م. ن، ص 32.

يكتفي ابن أبي أُصَيْبَعَة بكلمة (وقيل)، على الرغم من أنه أقام في مصر فترة طويلة وعاشر إبراهيم بن موسى بن مَيْمُونْ؟!

ويقارن نصوصاً لمصادر عربيّة أخرى هاجمت ابن مَيْمُونْ، ولكنها لم تذكر خبر إسلامه وارتداده. وبعد عرض لمصادر القفطي وابن أبي أُصَيْبَعَة يخلص ولفنسون «نقل عن القفطي دون أن يتبصّر فيما نقل، بل اكتفى بالسماع دون البحث في مؤلّفات ابن مَيْمُونْ»[1].

ويفنّد ولفنسون خبراً آخر للصّفدي (ت 764هـ) في الوافي بالوفيات، ويبيّن تهالك هذا الخبر.

كما يعرض للأسباب التي يمكن أن تكون وراء تلفيق مثل هذه الأخبار «كالنَيْل من كرامة الوزير عبد الرحيم البيساني لمصاحبته طبيباً ارتدّ عن الإسلام»[2] إلخ.

وبعد عرض طويل، ونقد للمصادر وإيراد لآراء مختلف المستشرقين المعاصرين الذين بحثوا في هذا الأمر، يخلص ولفنسون إلى القول:«هذا مجمل القول في مسألة لا يمكن الترجيح فيها نهائيّاً، على أنّنا نميل إلى أن الأقرب إلى الحقيقة هو القول الثاني»[3].

ثمّ يختُم مشيراً إلى «أنّي لم آثر هذا الموضوع رغبة فيه لذاته، وإنّما أثرته، لكي لا ينقص بحثي في أمر يتعلّق بموسى بن مَيْمُون من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنّه كان سبباً في حركة فكريّة مباركة اشترك فيها فطاحل عُلماء اليهود، فظهرت مدوّناتهم (...)».

فهو من ناحية لا يقطع برأي في هذه المسألة، بل يرجّح رأياً على

---

1 - م. ن، ص 34.

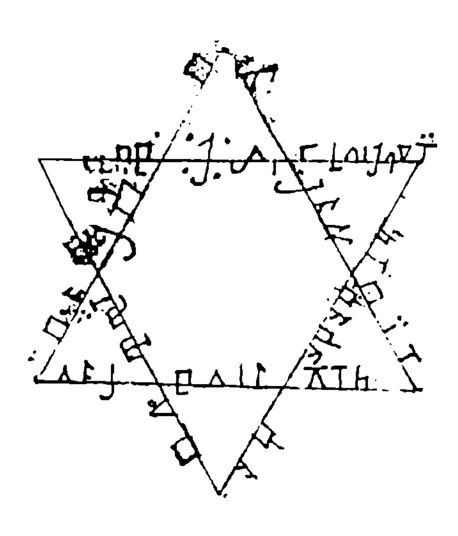
2 - م. ن، ص 36.

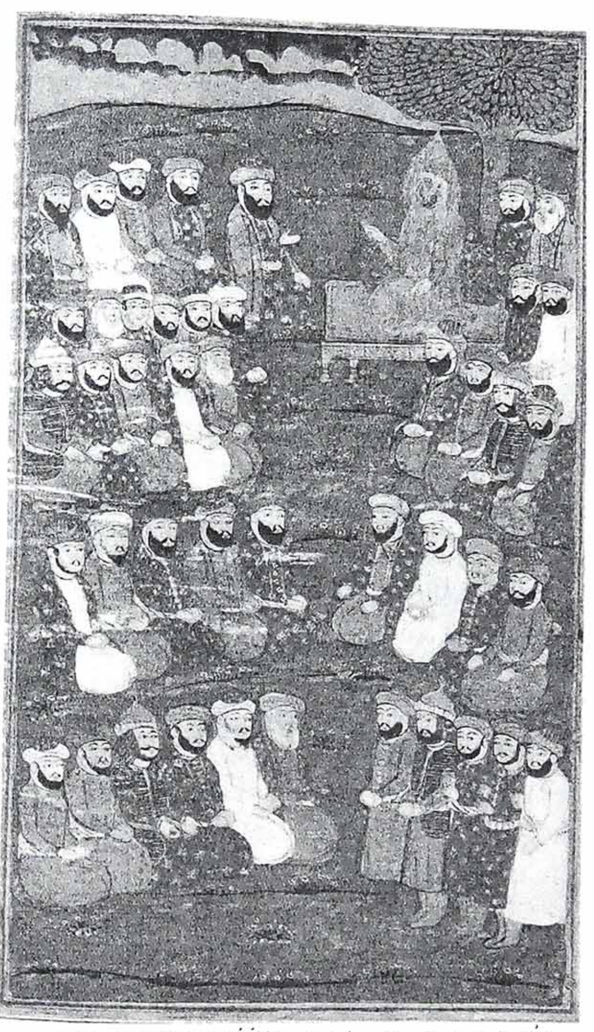
3 - م. ن، س 40.

آخر، وذلك بعد تحليل وعرض طويلَيْن.

ومن ناحية أخرى يقلّل حتّى من أهميّة هذه المسألة التفصيليّة في حياة بن مَيْمُونْ. ولا يرى فيها من أثر إلاّ بما شكّلت من حافز للبحث في فكر ابن مَيْمُونْ، والتفاعل الثقافي بين المسلمين واليهود في القرن الثاني عشر.

وكِلا هاتَين الخُلاصتَين دليل برأينا على رزانة في البحث والاستنتاج.





الخُلفاء الراشدون والصحابة يحيطون بالرسول/مُنَمْنَمة فارسيّة/المكتبة الوطنيّة باريس

الفصل الثاني

كعب الأحبار شخصية تثير التساؤلات

مواضيع الفصل الثاني:

- كتاب كعب الأحبار
- شخصيّة كعب من منظور أبي ذؤيب
- كعب الأحبار والصحابة

1-كعب والخليفة عمر بن الخطاب

2-كعب الأحبار وابن عبّاس

كتاب كعب الأحبار

سبق أن قلنا في دراستنا "لتاريخ اليهود في بلاد العرب" لأبي ذؤيب «من البديهيّ القول أن الباحث الشاب ولفنسون قد اختار لأطروحته في الدكتوراه موضوعاً شائكاً وشديد الحساسيّة. وهو خيار يدلّ على طموح بعيد ورغبة في مواجهة التحدّي. والتحدّي هذا، ليس فقط لمجابهة صعوبات البحث وتعقيداته. بل هو أوّلاً تحدٍّ مع الذّات، والانتماء الديني، في سبيل تحقيق مسافة بين الباحث وموضوعه، من شأنها تأمين الحدّ الأدنى من الحياد، وهو الشرط الأوّل والأساسي للموضوعيّة، ومصداقيّة النتائج بالتالي. فهل استجاب ولفنسون للتحدّي هذا؟ وهل نجح في رهانه على الموضوعيّة والحياد؟».

والأسئلة عينها تطرح بشأن أطروحة ولفنسون الثانية "كعب الأحبار". وقبل البدء بدراسة هذه الأطروحة وتحليلها، نرى من المفيد أن نعرّف بكعب الأحبار نقلاً عن مصادر لم تُتح لأبي ذؤيب العودة إليها في أثناء إعداده لأطروحته. ففي ذلك استكمال للصورة المرسومة لهذه الشخصيّة الإستثنائيّة في تاريخ الإسلام.

ومن أقدم المصادر التي ترجمت لكعب الإمام والمحدّث والمؤرّخ الشهير شمس الدين الذهبي (673 – 748هـ)، في كتابه سيَر أعلام النبلاء. يقول الذهبي:«هو كعب بن ماتع الحِميري اليماني العلاّمة الحبر، الذي كان يهوديّاً فأسلم بعد وفاة النبي، صلعم. وقدم المدينة من اليَمَن في أيام عمر. فجالس أصحاب محمد، فكان يحدّثهم عن الكتب الإسرائيليّة،

ويحفظ عجائب، ويأخذ السنن عن الصحابة. وكان حسن الإسلام، متين الديانة، من نُبلاء العُلماء.

حدّث عن: عمر، ومهيب، وغير واحد.

حدّث عنه: أبو هُرَيْرَة ومعاوية وابن عبّاس. وذلك من قبيل رواية الصحابي عن التابعي، وهو نادر عزيز.

وحدّث عنه أيضاً: أسلم مولى عمر، وتبيع الحِميري ابن امرأة كعب، وأبو سلاّم الأسود. وروَى عنه عدّة من التابعين كعطاء بن يسار، وغيره مرسلاً.

وكان خبيراً بكُتب اليهود، له ذوق في معرفة صحيحها من باطلها في الجملة.

وقع له رواية في سُنن أبي داود والترمذي والنسائي. سكن بالشام بآخرة، وكان يغزو مع الصحابة.

رَوى خالد بن معدان عن كعب الأحبار، قال: لأن أبكي من خشية، أحبّ إليّ من أن أتصدّق بوزني ذهباً.

توفّي كعب بحمص، ذاهباً للغزو في أواخر خلافة عثمان، فلقد كان من أوعية العِلم»[1].

ومن اللوحة التي يرسمها الإمام الذهبي لكعب نسجّل الملامح التالية:

- أكّد على صدق إسلامه
- حدّث عنه حتى كبار الصحابة: «أبو هُرَيْرَة ومعاوية وابن عبّاس. وهذا أمر استثنائي. ويدلّ على مكانة كعب.

---

1 - الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق حسّان بن عبد المنان، عمّان، بيت الأفكار الدولية، ط1، 2004، ج 2، ص 3120 - 3121.

- خبرته بكُتب اليهود صحيحها من باطلها. وسعة عِلمه.
- تقواه وخوفه الله.

ويضيف ابن حجر العسقلاني (773 – 852 هـ) إلى لوحة الذهبي ما يلي:

- رَوى عنه من الصحابة ابن عمر وأبو هُرَيْرَة ، وابن عبّاس، وابن الزبير ومعاوية[1]. وينقل ابن حجر عن الصحابي أبي الدرداء قوله عن كعب أن «عند ابن حميرية لَعِلماً كثيراً»[2].

وعن معاوية بن أبي سفيان: «ألا إن كعب الأحبار أحد العُلماء. وإن كان عنده لَعِلْم كالبحار، وإن كنّا فيه لمفرّطين»[3] وعن معاوية كذلك من طريق حميد بن عبد الرحمن بن عوف ذكر العسقلاني بشأن كعب: «إن كان لَمِن أصدق هؤلاء المحدّثين من أهل الكتاب، وإن كنّا مع ذلك لنبلوا عليه الكذب»[4].

ويدافع ابن حجر العسقلاني هنا عن كعب. فيفسّر حديث معاوية الذي أخرجه البخاري كما يلي: «وأوّله بعضهم بأن مراده بالكذب عدم وقوع ما يخبر به أنه يقع، لا أنه هو يكذب.»[5]

ويذكر ابن حجر في سبب إسلام كعب «حكى الرشاطيّ عن كعب الأحبار قال: لما قدم عليّ (بن أبي طالب) اليمن أتيته فسألته عن صفة النبي، صلعم، فأخبرني، فتبسّمت. فسألني فقلت: من موافقة ما عندنا.

---

1 – ابن حجر العسقلاني (ت 852) الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ط 1، 2004، ج3، ص 1712.

2 – م. ن.

3 – م. ن.

4 – م. ن.

5 – م.ن، ج 3، ص 1712 – 1713.

وأسلمت. وصدّقت به. ودعوت من قبلي إلى الإسلام. فأقمت على إسلامي، إلى أن هاجرت في زمن عمر. ويا ليتني تقدّمت في الهجرة[1]». ولكن العسقلاني يرجّح أن كعباً أسلم في خلافة عمر.

تلك هي أبرز الملامح المرسومة في المصادر لشخصية كعب.

ولكن ما هي الصورة التي يرسمها لنا بن زئيف (ولفنسون) عن كعب إستناداً إلى المصادر، وما مدى مطابقتها للواقع التاريخي؟!

شخصية كعب من منظور أبي ذؤيب

لا شكّ أن بن زئيف قد بذل مجهوداً قيّماً ومضنياً في العودة إلى غالبيّة المصادر المتاحة له واستقرائها، ليقدّم لنا صورة وافية عن هذه الشخصيّة التاريخيّة الخطيرة في تاريخ الإسلام، والتي كثرت بشأنها الآراء، بل تضاربت.

وأبرز ما يستوقفنا في هذه الشخصيّة بريشة ولفنسون الملامح اليهوديّة الواضحة، والتي لم يستطع الإسلام أن يمحوها أو حتى يخفّف منها.

فكعب هو أوّل مَنْ قصّ القصص في الإسلام. يقول أبو ذؤيب نقلاً عن الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب: «وكان معاوية قد أذن لكعب أن يقصّ القصص في جامع حمص» (باب1/فصل9) ويعقّب على ذلك: «فكان هو أوّل مَن قصّ القصص في الجوامع الإسلاميّة. وهي من عادات اليهود، فإن الأحبار يقصّون على المجتمعين للتعبّد والصلاة قَصص أنبياء بني إسرائيل للعظة والاعتبار».

---

1 - م. ن، ص 1711 - 1712.

وليس كعب قصّاصاً في الجوامع على عادة أحبار اليهود وحسب، بل هو أيضاً مفسّر للقرآن على طريقة تأويل أحبار اليهود للتوراة. يقول ولفنسون: «والطريقة التي يتّبعها كعب حين يناقش الناس في آيات القرآن، هي عينها الطريقة التي يتّبعها أحبار التلمود في كثير من الأحوال ويتّضح ذلك إذا أمعنّا النظر في ما رواه مالك الخ...»، (باب 2/فصل1).

وكعب هو شيخ الإسرائيليات، أي ما دخل التفاسير القرآنية من روايات يهوديّة عن الأنبياء. إنه، في إسلامه، كواحد من حُكماء التلمود وأحباره. يقول بن زئيف «ولم يخفِ كعب يهوديّته، ولم يحمل عليه أحد بسبب ذلك. بل كان في إسلامه يحمل أسفار التوراة، ويتلو ما ورد فيها وفي التلمود، أمام الجموع الحافلة في المساجد، وفي مجلس الخليفة نفسه. فهو لذلك يُعدّ شيخ عُلماء عصره الذين وجّهوا العلوم الدينيّة الإسلاميّة إلى الوجهة المعروفة بالإسرائيليّات. وكان مقصد الكثير من الصحابة، يعرضون عليه أسئلتهم ومشاكلهم» (الباب الثاني/الفصل الأوّل).

وفي قراءته للقرآن وتفسيره له يقارن كعب بينه وبين التوراة. فيفهم الكتاب الأوّل على ضوء الثاني. ويجد في الاثنين أوجُه شبه عديدة. يذكر بن زئيف نقلاً عن الأصبهاني: «يدرس كعب القرآن، ويقابل ما ورد فيه بآيات التوراة، حيث يقول: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام. وخاتمة التوراة خاتمة سورة هود. أو أن أوّل ما أنزل من التوراة عشر آيات وهي العشر التي نزلت في آخر الأنعام. وسمع كعب رجلاً يقرأ :(قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ). فقال: والذي نفس كعب بيده، إنها لأوّل شيء نزلت في التوراة»، (الباب الثاني/الفصل الأوّل).

ولم يوجّه كعب، وفق ولفنسون، إلى التوراة التُهمة الإسلاميّة

التقليديّة بالتحريف. يقول: «لم يرمِ (كعب) اليهود بتهمة تزوير بعض آيات التوراة، كما فعل عبد الله بن سلام. ومحمد بن كعب القرظي، اللذان قرّرا أن اليهود حرّفوا بعض آيات التوراة لأغراض معيّنة. ولو صحّ أن كعباً رمى بمثل هذه التهمة لما أحجم أصحاب المصادر الإسلاميّة عن التنويه بذلك والإشارة الصريحة إليه. فعدم وجود شيء من هذا في المصادر العربيّة القديمة دليل ساطع على صحّة ما ذهبنا إليه من رأي في كعب الأحبار» (الباب الثاني/الفصل الأوّل).

ولكننا نجد في مصدر إسلامي رواية قد تعارض أبي ذؤيب أقوال هذه إذ أورد الذهبي في سِيَر أعلام النُبلاء الخبر التالي: «ثم قال همّام، وحدّثني بسطام بن مسلم، حدّثنا معاوية بن قرّة، أنهم تذاكروا ذلك الكتاب، فمرّ بهم شهر بن حوشب فقال: على الخبير سقطتم؛ إن كعباً لما احتضر، قال: ألا رجل أأْتمنه على أمانة؟ فقال رجل: أنا. فدفع إليه ذلك الكتاب، وقال: إركب البحيرة، فإذا بلغت مكان كذا وكذا، فاقذفه. فخرج من عند كعب، فقال كِتاب فيه عِلم، ويموت كعب لا أفرّط به. فأتى كعباً وقال: فعلتُ ما أمرتني به. قال: فما رأيت؟ قال: لم أرَ شيئاً. فعلم كذبه: فلم يزل يناشده، ويطلب إليه حتى ردّه عليه. فقال: ألا من يؤدّي أمانة؟ قال رجل: أنا. فركب سفينة، فلما أتى ذلك المكان، ذهب ليقذفه، فانفرج له البحر، حتى رأى الأرض، فقذفه، وأتاه فأخبره. فقال كعب: إنها التوراة كما أنزلها الله على موسى، ما غُيِّرت ولا بُدّلت. ولكن خشيت أن يتّكل على ما فيها. ولكن قولوا: لا إله الا الله، ولقّنوها موتاكم».

ويختم الذهبي روايته: «هكذا رواه ابن أبي خيثمة في تاريخه عن

هدبة، عن همّام. وشهر لم يلحق كعباً»[1].

ثم يعقّب الإمام الذهبي على هذه الرواية بالقول:«وهذا القول من كعب دالّ على أن تيك النسخة ما غُيّرت ولا بُدّلت. وأن ما عداها بخلاف ذلك. فمَن الذي يستحلّ أن يورد اليوم من التوراة شيئاً على وجه الاحتجاج معتقداً أنها التوراة المنزّلة له؟ كلا والله»[2].

هل تدعم رواية الذهبي نظريّة أبي ذؤيب القائلة أن كعباً لم يتّهم التوراة بالتزوير، أم تكذّبها؟!

ما يلفت في حكاية الذهبي طابعها الأسطوري "إنفراج البحر" وبُعدها بالتالي عن الواقع والتاريخ. والذهبي نفسه يطعن فيها ويضعّف سندها فيقول «وشهر لم يلحق كعباً». وتعقيب الذهبي على الرواية قد ينحو في اتجاه تأكيد نظريّة ولفنسون، إذ كان بحوزة كعب توراة غير محرّفة ولكنها الوحيدة وقد ذهبت بذهابه. ولعلّ في هذه الأسطورة تبرير لكثير من الأخبار التي ترد عن كعب واستشهاده بالتوراة، وأخذه الأخبار والقصص والتفاسير منها! إنها محاولة لرفع المفارقة التي حَوَتْها روايات كعب: كيف يحمل، وهو المسلم، التوراة ويقرأها ويستشهد بها، علماً أنها محرّفة؟! الجواب يقول الذهبي عبر روايته: لقد كان الوحيد الذي يملك نسخة من ذلك الكتاب ما غيّرت ولا بدّلت. ولعلّ في خلاصة الذهبي هذه ما يؤكّد نظريّة ولفنسون أكثر ممّا ينفيها.

ولكن إلى أين يصل أبو ذؤيب في تركيزه على هذا الطابع اليهودي الثابت وغير المَمْحي في شخصيّة كعب؟! إنه يخلص إلى استنتاج قد

---

1 – الذهبي، م.س، ص 3121.

2 – م. ن.

يصدمنا ويفاجئ الكثيرين. فكعب يختلف عن غيره من اليهود الذين أسلموا أمثال عبد الله بن سلام ووهب بن منبه يقول: «أما كعب فقد كان يهودياً من المهد إلى اللحد. إذ تشبّع بالعقليّة اليهوديّة، حتى برزت فيه هذه النحلة بروزاً لم يُرَ مثله عند غيره من مسلمة اليهود. فقد كان بعد إسلامه، كأنه لم يترك دين أجداده. لأنه كان ينظر إلى الإسلام بالعين اليهوديّة. ويحلّ جميع ما يعرض له من المشاكل الدينيّة الإسلاميّة، بعد أن يغوص في الآداب اليهوديّة. وكأن إسلامه لم يكُن إلا تطوّراً طبيعيّاً لحياته في بلاد العرب، أي في المجتمع العربي، الذي خضع للإسلام، بعد أن ظلّ دهراً طويلاً خاضعاً لديانات أخرى»، (ص191 - 192).

هل هذا يعني أن كعباً كان يهودياً ومسلماً في آن؟! أَوَلَيْسَ ذلك تشكيكاً في صدق إسلامه؟! فكيف يكون مَن أسلم "يهودياً" من المهد إلى اللحد؟ وكيف نفهم أن كعباً «كان بعد إسلامه، كأنه لم يترك دين أجداده»؟!

لا يشكّك ولفنسون في حسن إسلام كعب وصدقه. إنه أمر غير مطروح أساساً عنده. ولكن هذا الأثر اليهودي الحاسم في شخصيّته ونظرته الدينيّة، ألا يدفعنا إلى طرح سؤال كهذا؟! وهل يغالي أبو ذؤيب في إظهار هذا الجانب اليهودي من شخصيّة كعب والتأكيد عليه؟! أليس في الأمر تناقض ومفارقة: أن لا نشكّك في صدق إسلام كعب وأن نعتبره يهودياً من المهد إلى اللحد في الوقت عينه. وكيف استطاع كعب أن يجمع في شخصه صفة المسلم واليهودي، في آن، وبقي صادقاً في إسلامه؟!

ما يلفت الانتباه أن ولفنسون يورد أخبار إسلام كعب عن المصادر الإسلاميّة على علاّتها، ومن دون أيّة قراءة نقديّة لها! (الباب الأول/الفصل الرابع: أسباب إسلام كعب). وهي روايات استُعملت واستُهلكت مراراً في أدب الجدل والدفاع بين المسلمين من جهة وأهل الكتاب (اليهود والنصارى) من جهة أخرى. وَتَتَمَحْوَر حول مسألة البشارة بنبيّ الإسلام في التوراة[1].

والكثير من عناصرها أقرب إلى أدب الحكايات منه إلى التاريخ. ولا يحاول أبو ذؤيب أن يبحث عن دوافع أخرى لإسلام كعب.

هل كان كعب الأحبار مخلصاً في إسلامه؟ هل جاء إسلامه عن قناعة أم عن مصلحة؟! نسمع الكثير عمّن أسلموا من اليهود ليدسّوا سموماً في الإسلام. وأشهر المتّهمين بذلك عبد الله بن سبأ الذي يذكره ولفنسون في الفصل التمهيدي لكتابه. فأين موقع كعب من هؤلاء؟، لا يطرح بن زئيف أيّة إشكاليّة بشأن إسلام كعب. فإسلامه خالص لا تشوبه شائبة. وإغفاله للإشكاليّة هذه، تأكيداً أو دحضاً ودفعاً، قد يكون من أبرز ما يؤخذ على دراسته والإشكاليات التي تطرحها. ونحن نجد في المصادر الإسلاميّة أحياناً نوعاً من التشكيك بحسن إسلام كعب. يقول ابن كثير (ت 774 ﻫ) في تفسيره مثلاً: «إن كعب الأحبار لمّا أسلم في الدولة العُمريّة جعل يحدّث عمر، عن كتبه قديماً. فربما استمع له عُمر فترخّص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثّها وسمينها.

---

1 - تناولنا هذا الموضوع في دراستنا والتحقيق والتعليق على: تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمّونة، سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة 12، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2009، الباب الثالث، الفصل السادس.

وليس لهذه الأمّة، والله أعلم، حاجة إلى حرف واحد مما عنده»[1]. وسبق وأن ذكرنا عن ابن حجر قول معاوية فيه «وإن كنا مع ذلك لنلبوا عليه الكذب». هذا وبعض المراجع المعاصرة لا تتردّد بتاتاً في التشكيك بإسلام كعب. بل إن عدداً منها، يذهب بعيداً فيُخوّنه ويعتبره «الصهيوني الأوّل»[2] ويقول عن إسلامه ورواياته: «لمّا قدم (كعب) إلى المدينة في عهد عمر وأظهر إسلامه، أخذ يعمل بدهاء ومكر لِمَا أسلم من أجله، من إفساد الدين وافتراء الكذب على النبي، صلعم[3]، وقبل أبو ريّة «فإن كلاً من الشيخ رشيد رضا والدكتور أحمد أمين قد قاما بالطعن في كعب الأحبار والنيل من عدالته والتحذير من روايته، وتابعهما آخرون»[4].

وردّ عليهم الشيخ الزرقاني والدكتور محمد حسين الذهبي والدكتور أبو شهبة وغيرهم، مؤكّدين على عدالة كعب وتوثيقه بناءً على توثيق وتعديل عُلماء الجرح والتعديل له، وأخذ الصحابة والتابعين عنه[5].

ومن الذين ردّوا على هذه التهمة واعتبروها باطلة وليس لها دليل صحيح د. خليل اسماعيل إلياس في أطروحته عن كعب[6].

---

1 - ابن كثير، الإمام إسماعيل بن كثير (ت 774)، تفسير القرآن العظيم، تقديم يوسف المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، ط 2، 2004، ص 1348.
2 - أبو ريّه، محمود، أضواء على السنة المحمديّة أو دفاع عن الحديث، تقديم طه حسين، قم/ إيران، مؤسسة أنصاريان، ط3، 2004، ص 152.
3 - م. ن، ص 157
4 - الزغبي، د. فتحي محمد، قصّة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين، القاهرة، دار البشير، ط1، 1994، ص 195.
5 - م. ن.
6 - إلياس، خليل إسماعيل، كعب الأحبار وأثره في التفسير، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط1، 2007، ص 41 - 54.

والدكتور فتحي الزغبي كذلك. إذ قال في خاتمة كتابه قصّة الذبيح: «إنني لن أجرؤ على الطعن في كعب هذا والنيل من عدالته، بعد أن وثّقه عُلماء الجرح والتعديل»[1].

لا يفنّد بن زئيف روايات إسلام كعب، ولكنه ينقد الروايات عن عمره عند إسلامه وزمن وفاته (الباب الأول/الفصل الخامس) ولا نرى نقده هذا بعيداً عن المنطق.

ويذكر أبو ذؤيب، استناداً إلى المصادر، أن كعباً لم يُسلم وحده، بل ومعه زوجته وابنَا زوجته وعمّه وابن عمّه. فهذا التحوّل بالجملة إلى الدين الجديد في جزيرة العرب، ألا يمكن أن يطرح أسئلة عن أسباب اقتصاديّة وسياسيّة له، لا سيما بعد أن عمد الخليفة عمر إلى طرد غير المسلمين من الجزيرة إنفاذاً لوصيّة منسوبة إلى الرسول على فراش الموت؟!

يبقى أن الصورة التي يرسمها ولفنسون لكعب لا تكتمل إلا بالحديث عن علاقاته بالصحابة والخُلفاء.

كعب الأحبار والصحابة

1- كعب والخليفة عمر بن الخطاب

يرفض ولفنسون كل الروايات التي تزعم تكذيب الصحابة لبعض أقوال كعب أو احتقارهم له مثل قول ابن عبّاس عنه «هذه يهوديّة يريد إدخالها في الإسلام» (الباب الأول/الفصل السادس) أو ضرب الخليفة عمر له بالدرّة. ويعتبرها أخباراً مختلقة ومن زمن متأخر.

---

1 - الزغبي، م.س، ص 195.

ويتوقّف مطوّلاً عند رواية مقتل الخليفة، وما نسب إلى كعب من تحذير لِعُمر بذلك. ويؤكّد أن المصادر القديمة لم تتّهم كعباً بالمشاركة في المؤامرة. في حين أن بعض المؤرّخين المعاصرين ذهبوا إلى ذلك. ومنهم نبيه العظم وعبد الوهاب النجّار. يرفض أبو ذؤيب هذه الروايات، بل التحليلات ويعتبرها واهية، ولا تستند إلى أي مصدر أو منطق.

ويعتبر أن رواية تنبّؤ كعب بقتل الخليفة، إذا صحّت، فلا تعدو كونها نوعاً من الحدس. ويميل إلى التشكيك بها مظهراً الاختلاف في التفاصيل بين روايات الطبري وابن سعد وغيرهما في ذلك.

ولا بأس من التذكير هنا أن بعض المؤرّخين المعاصرين يعتبرون ما ذكر في المصادر القديمة عن تنبّؤ كعب بمقتل عمر دليلاً واضحاً على مشاركته في المؤامرة. يقول محمود أبو ريّه في كتاب مشهور له قرّظه طه حسين وقدّم له «وهذه الأدلّة كلها تثبت أن قتل عمر على يد أبي لؤلؤة لم يكُن إلا نتيجة لتلك المؤامرة التي دبّرها له الهرمزان (...) ولِمَن اشترك فيها. وكان له أثر كبير في تدبيرها كعب الأحبار وهذا أمر لا يمتري فيه أحد إلا الجُهلاء»[1]. وهو استنتاج نرى فيه شططاً. فما رُوي عن كعب في مقتل عمر أقرب إلى الأساطير منه إلى "الأدلّة". ولو كان كعب مشاركاً فعلاً بالمؤامرة فَلِمَ يفشي السرّ ويضع نفسه في دائرة الشكّ والاتهام؟!

ويصعب الفصل في هذه القضيّة. ولكن مسألة الوضع في هذه الأخبار ليست بمستبعدة. وتبقى الرواية الأقرب إلى الواقع عن كعب الأحبار ومقتل الخليفة عمر ر ما ذكره ولفنسون نقلاً عن طبقات ابن

---

1 - أبو ريّه، م.س، ص 159 - 160.

سعد (الباب الأول/الفصل السابع): «لما طعن عمر جاء كعب فجعل يبكي بالباب ويقول: والله لو أن أمير المؤمنين يقسم على الله أن يؤخّره لأخّره».

ويعود ولفنسون (الباب الثاني/الفصل الأوّل) إلى هذا الخبر عن ابن سعد: «كان في بني إسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عُمر، وإذا ذكرنا عُمر ذكرناه. وكان إلى جنبه نبيّ يوحى إليه. فأوحى الله إلى النبيّ أن يقول له أعهد عهدك (...) فإنك ميّت إلى ثلاثة أيام. فأخبره النبيّ بذلك. فلمّا كان اليوم الثالث (...) فأوحى الله إلى النبيّ (...) أن قد زدته في عمره خمس عشر سنة».

رواية ابن سعد هذه، كما يعلّق أبو ذؤيب في الهامش، مأخوذة عن سِفْر الملوك في التوراة (2 ملوك 20/1-7). ونحن نرى أنه ليس بالمُستبعد أن تكون كل الأخبار التي رويَت عن علاقة كعب الأحبار باغتيال الخليفة عُمر قد نُسجت من وحي القصّة التَوراتيّة هذه، لا أكثر ولا أقل. وأن دور كعب التاريخي في كل ذلك لا يعدو المقارنة بين الخليفة عمر والملك منسّى بطل القصّة التَوراتيّة المذكورة.

2- كعب الأحبار وابن عبّاس

سبق أن ذكرنا أن بعض الصحابة نقل عن كعب، وهو كما قال الإمام الذهبي من قبيل رواية الصحابي عن التابعين وهو نادر عزيز، وهذا ما يُعرف في علوم الحديث بأخذ الأكابر (الصحابة) عن الأصاغر (التابعين). وكعب من أشهر التابعين الذين رَوى عنهم الصحابة وقد رَوى عنه عُمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وغيرهما.

يقول السخّاوي في ذلك: «ومنه (أي أَخذَ الأكابر عن الأصاغر) أَخذَ

الصحابة عن تابع لهم، كرواية عدّة من الصحابة فيهم العبادلة الأربعة[1] وعُمر وعلي وأنس ومعاوية وأبي هُرَيْرَة رضي الله عنهم عن كعب الأحبار»[2].

ويذكر ولفنسون عن المصادر خبر احتكام بعض الصحابة إلى كعب للفصل في خلاف في التفسير بينهما (الباب الثاني/الفصل الثاني). وقد رفض ابن العربي الإشبيلي (ت 546 هـ) حتى فكرة أن يكون كعب قاضياً بين صحابيين.

ويتوقّف ولفنسون عند العلاقة الوطيدة التي كانت تربط عبدالله بن عبّاس بكعب الأحبار. فيعتبر أن الأوّل كان تلميذاً للثاني. يقول:«أغلب ما وصل إلى عبد الله بن عبّاس من مَعارف ومعلومات إسرائيليّة، إنما أخذه من مسلمة يهود المدينة بصفة عامة، ومن كعب الأحبار بصفة خاصّة» (الباب الثاني/الفصل الثاني) ويورد أبو ذؤيب أخباراً عديدة يفسّر كعب فيها عدداً من الآيات القرآنية لابن عبّاس.

ولَعَلّ أبرز ما يذكره ولفنسون من مقتبسات ابن عبّاس عن كعب الأحبار مسألة رؤية النبيّ لربّه فهي «بعَينها المذكورة في التوراة عن موسى الذي رأى ربّه»، (باب1 /فصل6).

وهنا يعلّق أبو ذؤيب «ومن العجيب أن ابن عبّاس وعكرمة وغيرهما

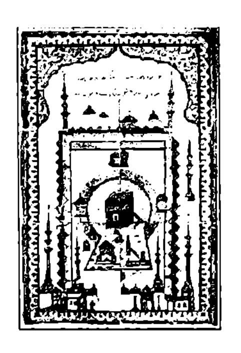
---

1 - العبادلة الأربعة هم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن العباس وعبد الله بن عمرو بن العاص.

2 - السخاوي، فتح المغيث شرح ألفيّة الحديث، نقلاً عن الياس، خليل اسماعيل، كعب الأحبار وأثره في التفسير، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 2007، ص 90.

الذين سلكوا مسلك كعب في شرح الآية المذكورة، لم ينسب إليهم الكذب (المنسوب إلى كعب) ولم يوجّه إليهم أقل لَوْم»، (باب1/فصل6).

ويخلص الكاتب بشأن العلاقة بين كعب وابن عبّاس أن تلمذة الثاني على الأوّل قد أنتجت «تلك العبقريّة الفذّة التي كانت سبباً في تخليد إسم ابن عبّاس في كُتب السنّة الإسلاميّة وفي تفسير القرآن»، (باب2/فصل2). ونحن وإن كنا نرى في خلاصة ولفنسون هذه شيئاً من مغالاة فلا ننكر إمكانيّة قربها من الواقع التاريخي وبالتالي صلاحيتها لأن تكون أساساً للتأمّل والبحث.





إبراهيم مضحّياً بابنه، لوحة للفنّان Titien (1490 – 1576).

الفصل الثالث

إسحاق أم إسماعيل؟

هويّة الذبيح في المصادر الإسلاميّة

مواضيع الفصل الثالث:

- **الذبيح إسحاق أم إسماعيل؟!**
- **المصادر الأولى: الذبيح إسحاق**

إسحاق الذبيح في شعر الفرزدق

تفسير مقاتل: إسحاق الذبيح

ابن سلام الجمحي وابن قُتَيْبَة

البخاري والذبيح

الطبري يؤكّد أن الذبيح إسحاق

ابن عبد ربّه وإسحاق الذبيح

السهيلي على رأي الطبري

ابن عربي وإسحاق القربان

القرطبي يوافق الطبري

ابن خلدون يرى أن الذبيح إسحاق

مصادر الدروز تؤكّد أن إسحاق الذبيح

- **مصادر ذكرت الرأيين ولم تحكم**

الجاحظ على الحياد

المسعودي يذكر الرأيين

البغوي والزمخشري يذكران الرأيين

الفخر الرازي وابن الأثير لا يقطعان برأي

- **المرجّحين أن الذبيح إسماعيل**
- **هويّة الذبيح في أبحاث المستشرقين**
- **دلالة الخلاف على الوضع في الحديث**

الذبيح إسحاق أم إسماعيل؟!

نصل إلى مسألة يتوقّف أبو ذؤيب عندها مطوّلاً. فالتساؤل عن هويّة الذبيح بحدّ ذاته مؤشّر لإهمال الرواية عن كعب منذ القرن الثاني هـ وفق ولفنسون. فرأي كعب واضح، في كل ما رُوي عنه، وهو أن الذبيح إسحاق كما يقول اليهود والنصارى. ويؤكّد ولفنسون أن المسلمين الأوّلين من أهل القرن الأوّل هـ كانوا يتّفقون مع النصارى واليهود في ذلك. ودليله على ما يقول مصدر غير إسلامي: «إنه الأسقف (القدّيس) يوحنّا الدمشقي. وقد أشار في رسالته التي نشرها في أواخر القرن الأوّل للهجرة مناقشاً فيها المسلمين في قداسة الحجر الأسود بمكّة المكرّمة إلى أن الذبيح هو إسحاق. وقد جاءت إشارته إلى ذلك بعبارة يفهم منها أن هذا الأمر متّفق عليه بين الفريقَين. ولو كان هناك خلاف بين المسلمين والأسقف في هذا الأمر لما سكت عنه». وكلام بن زئيف هذا منقول عن المستشرق جولدتسيهر.

ولكن الاختلاف في الرأي بين المسلمين في هذه المسألة بدأ منذ القرن الثاني هـ. ويعود إلى يهودي أسلم وإلى محمد بن كعب القرظي اليهوديّ الأصل. وما أتاح هذا الخلاف خلو النص القرآني من ذكر صريح لهويّة الذبيح. (وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)، (الصافات/107).

ورأي بن زئيف جدير بالبحث ويشاركه فيه كثير من المستشرقين والعُلماء. والمسألة لا تزال موضع جدل إلى اليوم. وعرض الخلاف فيه خطوة أولى نحو دراسة مشكلة الوضع والاضطراب في الحديث النبوي. لذا

وجدنا في المفيد عرض التطوّر التاريخي لقضيّة هويّة الذبيح في الإسلام وآراء مختلف العُلماء والمصادر متتبّعين في ذلك التسلسُل الزمني. هذا وقد عرض أبو ذؤيب عدداً من هذه الآراء، وفاته آخر.

المصادر الأولى: الذبيح إسحاق

يوحنا الدمشقي: شهادة عفويّة من القرن1هـ.

بداية وقبل الغوص في المصادر العربيّة، يبدو لنا من الأهمّية بمكان أن نتحقّق مِمّا قاله ولفنسون بشأن يوحنا الدمشقي. فهذا الأخير لم يكُن أسقفاً. بل راهباً متوحّداً وقدّيساً. فهو من الجيل الأخير لآباء الكنيسة أي كبار القدّيسين والمعلّمين فيها ويعتبر خاتمتهم. وهو سليل أسرة دمشقيّة عريقة عملت في الوظائف السياسيّة والإداريّة وتوارثتها أبّاً عن جدّ. فجدّه منصور بن سرجون كان أحد أبرز وجهاء المدينة وموظفي الإدارة البيزنطيّة، وقد حافظ على منصبه بعد سقوط المدينة بأيدي الغزاة العرب. وجعله معاوية بن أبي سفيان زمن ولايته على الشام وتوليه الخلافة من ثمّ على رأس ديوان المال أي ما يوازي وزير الماليّة في أيامنا[1]. وقد ورث ابنه عنه وظيفته وعنه حفيده يوحنا (675 – 754م/56 هـ/137). وهذا الأخير ترك منصبه في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز (717 – 720م) بعد أن خيّر الخليفة المذكور الموظّفين المسيحيين بين دينهم ووظيفتهم فحظّر عليهم تسلّم المراكز الرفيعة في الدولة ما لم يعتنقوا الإسلام. فاختار يوحنا البقاء على دينه ووزّع أمواله على الفقراء، وترهّب في دير مار سابا

1 – مخول، موسى، يوحنا الدمشقي ضمن السريان نقلة حضارات، بيروت، مركز الدراسات والأبحاث المشرقيّة، ط1، 2005، ص 97.

القريب من القدس[1]. ما يهمّنا من كل ما روينا أن الدمشقي كان على احتكاك يومي ودائم بالمسلمين من خلال وظيفته في البلاط الأموي. وكان يناقشهم ويجادلهم في عقائدهم ودينهم.

ونصّ القديس يوحنا الذي يلمع إليه ولفنسون نقلاً عن جولدتسيهر في غاية الأهمّية لبحثنا. وهذا الأخير يشير إليه إشارة عابرة في كتابه مذاهب التفسير الإسلامي[2]. أما نحن فقد عدنا إلى النصّ الأصلي للدمشقي وترجمناه وقدّمنا له بدراسة في كتابنا "الإسلام والهرطقات المسيحيّة" دراسة وترجمة لكتابات يوحنا الدمشقي في الإسلام.

يرد كلام هذا القدّيس في سياق الردّ على تهمة عبادة الأوثان والسجود للصليب التي يلحق المسلمون المسيحيّين بها، فيقول:«إنهم يتّهموننا أيضاً بعبادة الأوثان لأننا نجثو أمام الصليب الذي يشمئزون منه. فنردّ عليهم: لماذا إذاً تمسحون الحجر في كعبتكم وتحبّونه حتى تقبّلوه؟! بعضهم يقول على هذا الحجر ضاجع إبراهيم هاجر، والبعض الآخر بهذا الحجر ربط ناقته عندما **ضحّى بإسحاق** فنجيبهم: لقد كان هناك، بحسب الكتاب المقدّس جبلاً وأشجاراً قطع إبراهيم منها حطباً للمحرقة وحمّله لإسحاق»[3].

ولنتمعّن قليلاً بهذا النص، فله دلالة استثنائيّة في دراستنا وهو بيّنة واضحة. يجادل الدمشقي المسلمين، ينقل آراءهم بأمانة، ثم يردّ عليها. هم يقولون له بهذا الحجر ربط إبراهيم ناقته عندما ضحّى بإسحاق. فيجيبهم

---

1 – مخول، م. س، ص 103 – 104.

2 – جولدتسيهر، المستشرق اجنس، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبدالحليم النجار، باريس، دار بيبليون، ط جديدة، 2010، ص 99.

3- Jean Damoscène, écrits sur l'Islam, traduction Raymond le Coz, Paris, Cerf, 1992, p 219.

بل قطع إبراهيم شجراً على جبل وحمّل الحطب لإسحاق. الفريقان متّفقان على أن الذبيح كان إسحاق، ولكنهما يختلفان على تفاصيل أخرى. والدمشقي ينقل عن المسلمين ومن دون التباس، تأكيدهم أن إسحاق كان الأضحية، ولو كان بين الفريقَين أيّ اختلاف في تحديد هويّة الذبيح لكان المجادل (القدّيس يوحنا) ذكره وفنّده.

هذه الإشارة البريئة والعفويّة في نصّ الدمشقي كافية لوحدها للتأكّد من أنّ المسلمين كانوا يجمعون في عصره (نهاية القرن الأوّل هـ) على أن الذبيح هو إسحاق، ويتّفقون في ذلك مع أهل الكتاب اليهود، والمسيحيين.

إسحاق الذبيح في شعر الفرزدق

تدلّ غالبيّة النصوص القديمة على أن المعتقد الجاري عند العرب والمسلمين حتى أواخر العصر الأموي كان أن الذبيح هو إسحاق. ولنا في ذلك بيّنة واضحة. إنه الشاعر الأموي الفرزدق (ت 110 هـ). فهذا الأخير يذكر الذبيح إسحق في قصيدتَين من أواخر شعره. أولاهما في مدح مالك بن المنذر بن الجارود عامل خالد القسري على البصرة. وكان قد حبس الفرزدق وهو في حدود التسعين من عمره. فمدحه الشاعر مستعطفاً تائباً في قصيدة جاء فيها:

إنــي حلفــتُ بصــارع لابــنٍ لــه

إســحقُ فــوق جبينــه المتلــولِ

ولقد حلفــتُ بمقبلــين إلــى منًــى

جاءوا عصائب فوق كــل ســبيلِ

شُعثَ الرؤوس ملبّدين رَفَـت بهـم

أتقـاء كـل تنوفـة وهجـولِ[1]

يُقسم الشاعر بإبراهيم والد إسحق الذبيح. ويأتي ذكر هذا الأخير عرضاً ودون تكلّف. ويفهم من البيت أن صفة الذبيح أمرٌ بديهي ومرافقة لاسم النبي إسحاق. ويتبع الشاعر قسمه الأوّل بآخر بالحجّاج والمحرمين المضحّين بمِنَى. والشيء بالشيء يذكر. ما يوحي وكأن المضحّين بمِنَى إنما يُعيدون تذكار الذبيحة الأولى: تضحية إبراهيم بابنه إسحاق.

ذكر الفرزدق إذاً إسحاق الذبيح عرضاً ومن دون تكلّف. وغايته الشفاعة به وطلب دعائه. ولكن الممدوح لم يعطف على المسجون. فوجّه الشاعر قصيدة ثانية إلى ابن الخليفة معاوية بن هشام بن عبد الملك. مادحاً مستعطفاً، راجياً بدُعاء من إبراهيم الخليل. وقد ضمّن شِعْره حكاية الضحيّة إسحاق كما جاءت في القرآن. قال الفرزدق:

أرجو الدعاء من الذي تلّ ابنه

لجبينـه ففـداهُ ذو الأنعـامِ

إسحاق حيث يقول لما هابه

لأبيه حيث رأى من الأحلام

إمضِ وصدّق ما أُمرت فإنني

بالصبر محتسباً لخير غلامِ[2]

---

1 – الفرزدق، همّام بن غالب (ت 110 هـ)، ديوان الفرزدق، شرحه علي فاعور، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط 1، 1987، ص 463.

2 – الفرزدق، الديوان، م.س.، ص 593.

ونسبة الأبيات إلى الفرزدق مؤكّدة. فهي مرتبطة بأحداث معيّنة في سيرته ذكرها الرُواة، ولا سبيل إلى الشكّ فيها.

تفسير مقاتل: إسحاق الذبيح

ولعلّ أبرز بيّنة على توافق أهل القرن الأوّل هـ على أن الذبيح هو إسحاق، ما ورد في تفسير مقاتل بن سليمان (80 – 150 هـ). وهو أقدم تفسير كامل للقرآن وصل إلينا. وجمع فيه مؤلّفه بين النقل والعقل أو بين الدراية والرواية[1]. ومقاتل حجّة في التفسير، وأوّل مَنْ صنّف فيه، وكتابه أوّل تفسير كامل لكل آيات القرآن[2]. وعنه أخذ كل مَنْ أتى بعده من المفسّرين. يقول الإمام الشافعي (ت 204 هـ) فيه: «مَنْ أراد أن يتبحّر في تفسير القرآن، فهو عيال على مقاتل بن سليمان»[3]. ويبدو مقاتل في تفسيره لآيات الذبح واضحاً. وهي برأيه لا تحتمل تأويلاً أو تساؤلاً فيمَن هو الذبيح. يقول في تفسيره ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، (الصافات/101). يعني عليم وهو العالم. وهو إسحاق بن سارة»[4] ويضيف: «فردّ عليه إسحاق ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، وكان إسحاق قد صام وصلّى قبل الذبح[5]». الأمر عند مقاتل واضح لا لِبْس فيه ولا جدل أو تردّد. فالذبيح إسحاق ولا أحد غيره. ومقاتل يذكر ذلك ببَساطة ومن دون أي ذكر للاحتمال الثاني (إسماعيل). فالأمر بديهي عنده لا يختلف فيه إثنان، ولا يحتاج إلى دليل أو

---

1 – مقاتل بن سليمان (ت 150هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق د. عبد الله شحاته، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2002، ج1، ص هـ.

2 – م. ن، ج 5، ص 69.

3 – م. ن، ج 5، ص 51.

4 – م. ن، ج 3، ص 614.

5 – م. ن، ج 3، ص 615.

إثبات. ولهجة مقاتل هذه البسيطة تؤكّد أن مسألة مَنْ هو الذبيح لم تكُن مطروحة في عصره (80 – 150 هـ) وليست موضع نقاش. ما يدعم فرضيّة ولفنسون أنها طرحت للمرّة الأولى في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (99 - 101هـ) والتي تستند إلى رواية ذكرها الطبري في تفسيره وفي تاريخه.

وباختصار فإن تفسير مقاتل، وهو أقدم تفسير كامل للقرآن يؤكّد لنا أن هويّة الذبيح إسحاق كانت أمراً بديهيّاً يُجمع عليه جمهور الصحابة والتابعين وتابعي التابعين طيلة القرن الأوّل هـ. والخلاف لم ينشأ إلا بعد ذلك بزمن.

ابن سلّام الجمحي وابن قُتيبة

وابن سلّام الجُمحي (150 – 232 هـ) في كتابه طبقات الشُعراء يذكر شعراً لجرير يهجو فيه سراقة البارقي وجاء فيه:

ولقد هممتُ بأن أدمدمَ بارقاً

فحفظت فيهم عمّنا إسحاقا[1]

يقول ابن سلام معلّقاً: يعني إسحاق الذبيح[2].

وابن قُتيبة (213 – 276 هـ) يقول في كتابه المعارف إن الذبيح إسحاق.

ويستند ابن قتيبة في قوله هذا إلى رأي غالبيّة أهل العِلم وإلى التوراة

---

1 – البستاني، فؤاد إفرام، دائرة المعارف قاموس لكل فَنْ ومطلب، بيروت، 1977، 1977، ج 12، ص 214.

2 – م. ن.

ففيها قرأ، كما يقول، أن الذبيح كان إسحاق[1]. ويعرض ابن قتيبة في كتابه المعارف للخلاف الواقع بين المسلمين في هويّة الذبيح، وذلك قبل أن يبدي الرأي المذكور فيورد ستة سلاسل من أسانيد الأحاديث القائلة بذبيحة إسحاق وسلسلتي أحاديث تقول بإسماعيل[2].

مزبّد المديني وديكه المفدي

ولنا شهادة أخرى تجمع الطرافة والعفويّة إلى عمق الدلالة. إنها لمزبّد المديني، وهو من مشهوري أصحاب النوادر والفكاهة عند العرب، ويقع التحريف في اسمه كثيراً فيُقال مزيد على ما يذكر عبدالسلام هارون[3]. ومزبّد بن إسحاق المديني هذا معاصر للخليفة العبّاسي الثالث المهدي (158 - 169هـ/775 - 785) نشأ في المدينة المنوّرة ونُسب إليها، وكانت نوادره تدخل بلاط الخليفة المهدي عن طريق أبي حبيب مضحك الخليفة. وقد ذكر له الأصفهاني (ت 306 هـ) نادرة مع عبدالله بن مصعب الزبيري (111 - 182هـ) وبصبص جارية المهدي[4].

أمّا ما يهمّنا من نوادر مزبّد فما يروى عن ديكه الذي صار مضرباً للأمثال فيقال: أغلى من ديك مزبّد. وقد نقل لنا أبو حيّان التوحيدي (ت400هـ) هذه الطرفة كما يلي:«أراد مزبّد أضحيةً فلم يجدها، فأخذ

---

1 - ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة، ط1، 1960، ص 35.

2 - م. ن، ص 35 - 38.

3 - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ)، كتاب الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1965، ج5، ص 184.

4 - الأصفهاني، أبو الفرج (ت356هـ)، كتاب الأغاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، د. ت، ج 15، ص 22 - 26.

ديكاً ليضحّي به، فوجّه إليه جيرانه شاةً شاةً حتى اجتمع عنده سبع شياه، فقال ديكي أفضل عند الله من إسحاق لأنه فُدي بكَبش، وديكي بسبعة»[1].

هذه، الشهادة غنيّة بعفويّتها وطرافتها عن التعقيب. فهي تبيّن لنا أن الوجدان الشعبي الإسلامي كان وحتى منتصف القرن الثاني الهجري لا يزال يقرّ أن الذبيح إسحاق، وأبو حيّان ناقل خبر ديك مزبّد يمكن إدراجه مع سائر الكُتّاب معاصريه من القرن الرابع ﻫ القائلين إن الذبيح إسحاق.

والجدير ذكره في ختام وقفتنا عند ديك مزبّد أن المراجع الحديثة التي تروي هذه النادرة تحوّر عمداً اسم الذبيح فتضع إسماعيل مكان إسحاق. فتقدّم لنا مثلاً، آخر على ما طرأ على مسألة الذبيح وهويّته من تحريف وتحوير.

البخاري والذبيح

لا يعيّن الإمام محمد بن اسماعيل البخاري (194 – 256 ﻫ/ 810 – 870م) في صحيحه هويّة الذبيح. وكأنه شاء عمداً عدم الخوض في هذه المسألة. ولكنه «اختار في تاريخه أنه إسحاق وليس إسماعيل. رغم وجود روايات صحيحة على شرطه تقول إنه إسماعيل. ومن البعيد جداً أنه لم يرها!»[2]

الطبري يؤكّد أن الذبيح إسحاق

ولعلّ أبرز القائلين من القُدماء إن الذبيح هو إسحاق الإمام المؤرّخ والمفسّر ابن جرير الطبري (224 – 310ﻫ). فهو في تاريخه وفي تفسيره لا

---

1 – التوحيدي، أبو حيّان (ت400ﻫ)، كتاب الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ط، د.ت، ج3، ص 78.

2 – المقدسي، الشيخ، مَن الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟ مقالة على موقع إنترنت.

يخفي رأيه في هويّة الذبيح، وإن كان يذكر الآراء المخالفة.

يقول الطبري في التاريخ: «واختلف السَلَفُ من عُلماء أمّة نبينا في الذي أُمر إبراهيم بذبحه من إبنَيه. فقال بعضهم هو إسحاق بن إبراهيم. وقال بعضهم هو إسماعيل بن إبراهيم. وقد رُوي عن رسول الله كِلا القَوْلَين. لو كان فيهما صحيح لم نَعْدُه إلى غيره، غير أن الدليل من القرآن على صحّة الرواية التي رُوِيَتْ عنه، صلعم، أنه قال: «هو إسحاق، أوضح وأبين منه على صحّة الأخرى»[1].

وبعد ذكر مختلف الأحاديث والمأثورات. ومنها الخبر الذي يورده ولفنسون عن الخليفة عمر بن عبد العزيز ومحمد بن كعب القرظي (الباب الثاني/الفصل السابع). يعود الطبري ليؤكّد رأيه في هويّة الذبيح، فيقول: «وأما الدلالة من القرآن التي قلنا إنها على أن ذلك إسحاق أصحّ، فقوله تعالى مخبراً عن دعاء خليله إبراهيم حين فارق قَوْمه مهاجراً إلى ربّه إلى الشام مع زوجته سارة، فقال:﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(99)،﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، (الصافات/99 – 100). وذلك قبل أن يعرف هاجر، وقبل أن تصير له أم إسماعيل. ثم أتبع ذلك ربّنا عزّ وجلّ الخبر عن إجابته دُعاءه وتبشيره إيّاه بغُلام حليم. ثم عن رؤيا إبراهيم أنه يذبح ذلك الغُلام حين بلغ معه السعي. ولا يعلم في كتاب ذكر لتبشير إبراهيم بولد ذَكَرْ إلا بإسحاق. وذلك قوله:﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسحاق وَمِنْ وَرَاءِ إسحاق يَعْقُوبَ﴾، (هود/71). وقوله ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاَ تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ﴾،(28). ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، (الذاريات/ 28 – 29). ثم

---

1 – الطبري، ابن جرير (ت 310 هـ)، قصص الأنبياء من تاريخ الطبري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الفكر، ط1، 2002، ص 158.

كذلك في كل موضع ذكر فيه تبشير إبراهيم بغُلام، فإنما ذكر تبشير الله إياه به من زوجته سارة. فالواجب أن يكون ذلك في قوله ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، (الصافات/101). نظير ما في سائر سُوَر القرآن من تبشيره إياه من زوجته سارة.»[1] أي أن الطبري يستمدّ من القرآن نفسه، لا من الأحاديث، الدليل على أن الذبيح هو إسحاق.

وفي تفسيره يعيد الطبري تأكيد رأيه أن الذبيح هو إسحاق. وإن كان يفسح المجال لذكر الآراء الأخرى. يقول مثلاً في تفسير قوله ﴿قَالَ يا أبتِ إفعَل مَا تُؤمَر به﴾، (الصافات 102). يقول تعالى ذكره: قال إسحاق لأبيه:﴿يَا أَبتِ إفعَل مَا يَأمُرك به ربّك مِن ذَبْحِي﴾[2].

وبعد عرض مختلف الأحاديث والمرويات في هذه المسألة، يؤكّد الطبري رأيه فيها: «قال أبو جعفر (الطبري) وأولى القَوْلَيْن بالصواب في المفدي من ابني إبراهيم الخليل على ظاهر التنزيل قول مَن قال: هو إسحاق. لأن الله قال: وفدينه بذبح عظيم، فذكر أنه فدى الغلام الحليم الذي بُشّر به إبراهيم حين سأله أن يهب له ولداً صالحاً من الصالحين. فقال ربّ هب لي من الصالحين. فإذا كان المفدي بالذبح من إبنيه هو المبشّر به، وكان الله، تبارك اسمه، قد بيّن في كتابه أن الذي بشّر به هو إسحق. ومن وراء إسحاق يعقوب (هود/ 71). وكان في كل موضع من القرآن ذكر تبشيره بولد، فإنما هو معني به إسحاق، كان بيّنا أن تبشيره إياه بقوله:﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ في هذا الموضع نحو سائر أخباره عن غيره من آيات القرآن»[3].

---

1 - الطبري، م. س، ص 165 - 166.

2 - الطبري، ابن جرير (ت 310 هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق صدقي العطار، بيروت، دار الفكر، ط1، 2005، ج23، ص 84.

3 - الطبري، م. ن، ج23، ص 92.

ثم يناقش الطبري الآراء والمرويّات التي تقول إن الذبيح إسماعيل، فيدحضها.

ابن عبد ربّه وإسحاق الذبيح

ومن القُدماء الذين قالوا إن الذبيح هو إسحاق الكاتب ابن عبد ربّه الأندلسي (ت 328 هـ). فقد ذكر خبراً عن وفاة إبراهيم يؤكّد أن الذبيح إسحاق. يقول في العقد الفريد: «وفي بعض الحديث أن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه كان من غير الناس. فلمّا حضرته الوفاة، دخل عليه ملك الموت، في صورة رجل أنكره. فقال له: مَنْ أدخلك داري؟ قال الذي أسكنَك فيها منذ كذا وكذا سنة. قال ومَنْ أنت؟ قال أنا ملك الموت. جئت لقبض روحك. قال: أتاركي أنت حتى أودّع ابني إسحاق؟ قال نعم. فأرسل إلى إسحاق. فلما أتاه أخبره. فتعلّق إسحاق بأبيه إبراهيم، وجعل يتقطّع عليه بكاءً. فخرج عنهما ملك الموت، وقال: يا ربّ ذبيحك إسحاق متعلّق بخليلك. فقال له الله: قل له إني قد أمهلتك، فَفَعل. وانحلّ إسحاق عن أبيه، ودخل إبراهيم بيتاً ينام فيه. فقبض ملك الموت روحه وهو نائم»[1].

وأبو العلاء المعرّي (ت 449 هـ) الشاعر الفيلسوف، يؤكّد في بيت له أن الذبيح كان إسحاق. يقول في ديوانه سقط الزند:

فلو صحّ التناسخ كنت عيسى

وكان أبوك إسحاق الذبيحا[2]

---

1 - ابن عبد ربّه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد (ت 328 هـ)، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، بيروت، دار الكتاب العربي، 1983، ج2، ص440.

2 - ابن عربي، الشيخ الأكبر محيي الدين (ت 638 هـ)، فصوص الحكم، تحقيق وتعليق أبو العلا عفيفي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1946، ج2، ص70.

السهيلي على رأي الطبري

ومن أبرز القُدماء القائلين إن الذبيح هو إسحاق الحافظ الفقيه والمفسّر الإمام عبد الرحمن السهيلي (508 – 581 هـ) وقد اشتهر بتفسيره السيرة النبويّة وهو كتابه «الروض الأنف في شرح السيرة النبويّة لابن هشام». يقول السهيلي في كتابه التعريف والإعلام متّبعاً خطى الطبري: «وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾، (الصافات/101). يعني إسحاق. ألا تراه يقول في آية أخرى ﴿فَبَشَّرنَاهَا بإسْحَاق وَمِنْ وَرَاء إسْحَاق يَعقوب﴾، (هود 70). وقال في أخرى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾، (الذاريات 29). وامرأته هي سارة. فإذا كانت البشارة بإسحاق نصّاً فالذبيح لا شكّ هو إسحاق. لقوله ها هنا ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾، (الصافات/102). ولم يكُن معه بالشام إلا إسحاق. وأما إسماعيل فكان قد استودعه مع أمه في بطن مكّة. وبهذا القول قال ابن مسعود. ورَواه ابن جبير عن ابن عبّاس. وروي أيضاً عن ابن عبّاس مرفوعاً إلى النبي، (صلعم)[1].

ويعدّد السهيلي بعض الذين رأوا رأيه في الذبيح «وبهذا قال كعب الحبر، وبه قال شيخ التفسير محمد بن جرير، ورُوي أيضاً عن مالك بن أنس»[2].

ويضعّف السهيلي حديث أبي هُرَيْرَة عن الفرزدق الذي نقله ابن قُتيبة

1 – السُهيلي، عبد الرحمن (ت 581 هـ)، التعريف والإعلام في ما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام، تحقيق عبد الله النقراط، طرابلس الغرب، منشورات كليّة الدعوة الإسلاميّة، ط1، 1992، ص 272.

2 – م. ن. ص 273.

في الشِعْر والشُعَراء والقائل إن الذبيح إسماعيل ويقول:«ولو صحّ إسناده لكان في الفرزدق نفسه مقال»[1]. كما يضعّف حديث معاوية عن ابن الذبيحَين ويؤوله بما يتوافق مع قوله إن الذبيح إسحاق. يضيف السهيلي:«ورُوي أيضاً عن طريق معاوية قال: سمعت رجلاً يقول للنبيّ يا ابن الذبيحَين، في حديث ذكره، فتبسّم النبيّ»[2]. ولو صحّ إسناد هذا الحديث لم تقُم به حجّة. لأن العرب تجعل العمّ أباً. قال تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إبراهيم وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسحاق﴾، (البقرة/132). وقال تعالى:﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾، (يوسف/100). وهما أبوه وخالته»[3].

أي أن حديث، أنا ابن الذبيحَين الضعيف، حتى لو صحّ، فليس بحجّة. لأن القرآن اعتبر إسماعيل أباً ليعقوب وهو عمّه.

ويفنّد السهيلي، على طريقة الطبري، حجَج القائلين إن الذبيح إسماعيل: «ومن حجّتهم أيضاً أن الله تعالى، لمّا فرغ من قصّة الذبيح قال: ﴿وبَشَّرْنَاهُ بِإِسحاق﴾، (الصافات/112). فالجواب عنه من وجهَين، أحدهما أن البُشارة الثانية إنما هي بنبوّة إسحاق، والأولى بولادته. ألا تراه يقول ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بإسحاق نَبِيًّا﴾. ولا تكون النبوّة إلا في حالة الكبر. ونبيّاً نصب على الحال. والجواب الثاني أن قوله تعالى وَبَشَّرْنَاهُ بإسحاق تفسير كأنه قال بعدما فرغ من ذكر المبشر به وذكر ذبحه وكانت البشارة بإسحاق»[4]. وبعد تفنيد سائر الحجَج من طريق النحو ودحضها يخلص

1 - م. ن.

2 - ذكر الطبري في تفسيره وتاريخه هذا الحديث. وتعقّبه الذهبي في التلخيص وقال عنه: إسناده واهٍ. وهذا ما قاله ابن كثير في التفسير وابن الديبع في تمييز الطيّب من الخبيث.

3 - السهيلي، م. س. ص 273 - 274.

4 - م. ن، ص 275.

السهيلي إلى القول: «فبطل ما نزعوا، وثبت ما قدّمنا، والله المستعان»[1].

ابن عربي وإسحاق القربان

ويؤكّد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (ت 638 هـ)، أن الذبيح هو إسحاق. يقول في فصوص الحكم، باب فصّ حِكمة حقّية في كلمة إسحاقيّة عن إسحاق النبيّ الذبيح:

فداء نبـي ذَبْـح ذبـح لقربـان وأين نواج الكبش مـن نـوس إنسـان
ولا شكّ أن البدن أعظـم قيمـة وقد نزلت عن ذبـح كـبش لقربـان[2]

القرطبي يوافق الطبري

والإمام القرطبي المفسّر (ت 671 هـ)، يقول، كما الطبري، إن الذبيح إسحاق. جاء في تفسيره: «واختلف العُلماء في المأمور ذبحه. فقال أكثرهم: الذبيح إسحاق. ومَنْ قال بذلك العبّاس بن عبد المطّلب وابنه عبد الله. وهو الصحيح عنه. روى الثوري وابن جريج يرفعانه إلى ابن عبّاس قال: الذبيح إسحاق. وهو الصحيح عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له: يا ابن الأشياخ الكِرام. فقال عبدالله: ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله»[3] ويمضي القرطبي في تعداد الصحابة الذين قالوا إن الذبيح إسحاق. «ورَوى أبو الزبير عن جابر قال: الذبيح إسحاق. وذلك مروي أيضاً عن علي بن أبي طالب، وعن عبد الله بن عمر أن الذبيح

---

1 - السهيلي، م. ن. ص 274.

2 - ابن عربي، م. س، ج1، ص 84.

3 - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت 671 هـ)، الجامع لأحكام القرآن، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2004، ج2، ص 2604 - 2605.

إسحاق. وهو قول عُمر، فهؤلاء سبعة من الصحابة» [1] ويُعدّد القرطبي أسماء التابعين الذين قالوا إن الذبيح هو إسحاق:«وقال به من التابعين وغيرهم علقمة والشعبي ومجاهد وسعيد بن جبير وكعب الأحبار وقتادة ومسروق وعكرمة والقاسم بن أبي برّة، وعطاء ومقاتل وعبد الرحمن بن سابط والزهري والسدّي وعبد الله بن أبي الهذيل ومالك بن أنس كلهم قالوا: «الذبيح إسحاق» [2].

ويأخذ القرطبي من قول اليهود والنصارى والطبري إن الذبيح هو إسحاق حجّة في ذلك: «وعليه أهل الكتابَين اليهود والنصارى، واختاره غير واحد منهم النحاس والطبري وغيرهما» [3] ويقول القرطبي عن بعض أدلّة من قال إن الذبيح إسماعيل: «وهذا الاستدلال كلّه ليس بقاطع» [4]. وهكذا نجد القرطبي يحتجّ بقول سبعة من كبار الصحابة: العبّاس وابنه عبد الله، وعبد الله بن مسعود وجابر، وعلي بن أبي طالب، وعمر وابنه عبد الله. وقول كبار الأئمة من التابعين: كعب الأحبار ومالك بن أنس والزهري وغيرهم. وقول أهل الكتاب من يهود ونصارى وقول الطبري ليؤكّد نظريته في إسحاق الذبيح.

إبن خلدون يرى أن الذبيح إسحاق

ويبحث العلاّمة المدقّق ابن خلدون (ت 880 هـ) في تاريخه فيمَن هو الذبيح. ويخرج بنتيجة تؤكّد قول عمر وعلي وابن مسعود وكعب الأحبار

---

1 – م. ن. ص 2605.
2 – م. ن.
3 – م. ن.
4 – م. ن.

والطبري وغيرهم. يقول ابن خلدون: «واختلف في ذلك الذبيح من ولدَيه. فَقيل إسماعيل وقيل إسحاق. وذهب إلى كِلا القَولَين جماعة من الصحابة والتابعين»[1]. ثم يذكر ابن خلدون بعض من نُسب إليه القول إن الذبيح إسماعيل. ويورد حججهم ويفنّدها: «وقد يحتجّون له بقوله، صلعم، أنا ابن الذبيحَين، ولا تقوى الحجّة به، لأن عمّ الرجل قد يُجعل أباه بضرب من التجوّز، لا سيما في مثل هذا الفخر. ويحتجّون أيضاً بقوله تعالى فبشّرناها بإسحاق، ومن وراء إسحق يعقوب. ولو كان ذبيحاً في زمن الصِبا لم تصحّ البشارة بابن يكون له، لأن الذبح في الصِبا ينافي وجود الولد» ويردّ ابن خلدون على الحجّة الثانية هذه: «ولا تقوم من ذلك حجّة، لأن البشارة إنما وقعت على وفق العِلم بأنه لا يُذبح، وإنما كان ابتلاءً لإبراهيم»[2].

ويعدّد ابن خلدون أشهر القائلين قوله: «والقول بإسحاق للعبّاس وعمر وعلي وابن مسعود وكعب الأحبار وزيد بن أسلم ومسروق وعِكرمة وسعيد بن جبير وعطا والزهري ومكحول والسدّي وقتادة»[3].

ويختم ابن خلدون موافقاً قول الطبري في أن الذبيح هو إسحاق المبشّر به «فالمبشّر به قبل ذلك كلّه، إنما هو ابن سارة، فهو الذبيح بهذه الدلالة القاطعة. وبشارة الملائكة لسارة بعد ذلك، حين كانوا ضيوفاً عند إبراهيم (...) إنما كان تجديداً للبشارة المتقدّمة»[4].

1 - ابن خلدون، العلاّمة عبد الرحمن (ت 808 هـ)، تاريخ ابن خلدون، كتاب العِبَر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1956، ج2، ص 68.

2 - م. ن.

3 - م. ن، ص 68 - 69.

4 - م. ن، ص 69.

مصادر الدروز تؤكد أن إسحاق هو الذبيح

وتؤكد فرقة الموحّدين الدروز التي تنتسب إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله منصور بن نزار (375 – 411 هـ/ 985 – 1021م) أن الذبيح هو إسحاق. جاء في أحد مصادرها «الدُرَر المضيّة واللُمَع النورانيّة في تلخيص ألفاظ الحِكمة الشريفة ومعانيها الروحانيّة» وهو شرح لرسائل الحِكمة ما يلي:«الذبيح المذبوح. ومن ذلك سمّي إسحاق الذبيح للقصّة المشهورة أن أباه إبراهيم أراد أن يذبحه لأجل تصديق رُؤيا المنام. وفداه الله بالكبش كما قال: وتصحّ لكم دعوة جدّكم إسحاق المغتصبة من أبيكم العيص إلى يعقوب ولد إبراهيم الذبيح. والكلام مقدّر ومعناه: تصحّ دعوة جدّكم إسحاق الذبيح ولد إبراهيم الذي دعاها ليعقوب. فأراد العيص أخذها»[1].

يشرح نصّ المخطوط مقطعاً من رسائل الحِكمة وهي المصدر الأوّل والأساسي عند الموحّدين الدروز. وقد كُتِبت غالبيتها في زمن الحاكم بأمر الله، وبعد اختفائه بعقد من السنين. والمقطع هذا بالغ الدلالة إن لجهة قدمه (أوائل القرن الخامس هـ) أو لِمعانيه الواضحة والتي تؤكّد وتجزم أن إسحاق هو الذبيح كحقيقة بديهية قاطعة لا احتمال للشكّ فيها.

تلك كَوْكَبَة من الأوّلين توارثت التقليد الأوّلي في الإسلام بشأن هويّة الذبيح إسحاق.

---

1 – البستاني، دائرة المعارف، م. س، ج12، ص 215.

مصادر ذكرت الرأيين ولم تحكم

الجاحظ على الحياد

وسنعرض الآن لفئة أخرى، وقفت في هذا الجدل على الحياد. فذكرت الرأيين، من دون أن تحكم من الأصحّ. وأقدم هؤلاء الأديب المتكلّم العبّاسي الجاحظ (ت 255 هـ). يذكر هذا الأخير في كتابه الرأيين، من دون أن يفتي أيهما الأصحّ. يقول: «وقد أمر الله تعالى إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، بذبح إسحاق أو إسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فأطاع الوالد وطاوع الولد»[1].

ولكن، ومن المفارقات المهمّة واللافتة للنظر أن الجاحظ وفي مكان آخر من كتابه يقول:«على أنّا لو تأوّلنا الذبح على مثال تأويل قولنا في ذبح إبراهيم إسماعيل عليهما السلام[2] وهنا يعقّب محقّق الكتاب عبدالسلام هارون بأنه ورد في نسخة أخرى اسم إسحاق بدل إسماعيل ذبيحاً. فأيّة نسخة من مخطوطات الحيوان هي الأقدم؟ لم يوضّح لنا المحقّق هذا الأمر. ولكن هل يعني ذلك أن الجاحظ كان يميل إلى تسمية واحد من الإثنين ذبيحاً؟ في هذه الحال فسيكون قد سمّى حتماً إسحاق في حين أن الناسخ الآخر غيّر الإسم.

ويسترعي انتباهنا هنا رأي المحقّق، وهو مؤرّخ وأديب معروف. فهو موقف ملتبس وعلى شاكلة موقف الجاحظ. إذ يقول تعقيباً على نصّ

---

1 - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ)، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1965، ج1، ص163.

2 - الجاحظ، م. ن، ج4، ص 84.

الجاحظ:«وقد اختلف المؤرّخون المسلمون، وكذلك أصحاب التفاسير في الذبيح منهما. والأعرف عندهم أنّه إسماعيل بأدلّة سردها البيضاوي في تفسيره. وليس في القرآن نصّ على أحد منهما. وفي سِفر التكوين/22 ينصّ صراحة على أن الذبيح إسحاق. وإلى هذا الرأي مال معظم الصحابة»[1] وهنا يرجع إلى ابن قتيبة وابن سلام وغيرهما.

نرى هارون متأرجحاً بين رأيين فرغم إقراره بميل معظم الصحابة إلى القول بإسحاق، فهو لا يجزم بذلك، خوفاً من الرأي السائد ربما. ثم يعود في الهامش التالي[2] فيؤكّد تأرجحه بين الرأيين، فيقول:«فإن إسماعيل أو إسحاق لم يذبح». وباختصار فهو يسير على خطى الجاحظ ويتحاشى أن يفصل في هذا الخلاف، أو حتى أن يبدي فيه رأياً.

أما ابن سعد (ت 230 هـ) في الطبقات، فعلى الرغم من أنه ترجم لإبراهيم الخليل، وابنه إسماعيل[3]، فقد تجنّب كلّياً الخوض في هذا الموضوع الشائك. فلم يشِر إلى مسألة الذبح لا من قريب ولا من بعيد. وهذا ما ألمح إليه أبو ذؤيب. ولعلّه، كما يحلّل هذا الأخير، أراد، شأنه شأن أحمد بن حَنْبَل (ت 241 هـ)، أن يتهرّب من أن يبدي رأياً في المسألة وينتصر لفئة على الأخرى.

اليعقوبي يروي الرأيين

ويقف اليعقوبي (ت نحو 292) في تاريخه على الحياد، فيذكر الرأيين، ولا يقطع بواحد منهما. يقول:«فأمره الله أن يذبح ابنه. فالرواية

---

1 - الجاحظ، م. ن، ج4، ص 84، هامش رقم 5.
2 - م. ن، هامش رقم 6.
3 - ابن سعد (ت 230 هـ)، الطبقات الكبرى، تقديم إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ط2، 1998، ج1، ص 46 - 52.

تختلف في إسماعيل وإسحاق، فيقول قوم: إنه إسماعيل لأنه الذي وضع داره وبيته وإسحاق بالشام، ويقول قوم: إنه إسحاق لأنه أخرجه وأخرج أمه معه، وكان يومئذ غلاماً، وإسماعيل رجل قد ولد له»[1].

المسعودي يذكر الرأيَين

أما المسعودي المؤرّخ المعروف (ت 346 هـ)، فعلى الرغم من عداوته للجاحظ، فقد وقف من المسألة موقفاً مشابهاً له. فذكر في ترجمته لإسماعيل الرأيَين، ولم يفصل فيهما. فأورد في مروج الذهب «وقد تنازع الناس في الذبيح: فمنهم من ذهب إلى أنه إسحاق، ومنهم من رأى أنه إسماعيل. فإن كان الأمر بالذبح وقع بمِنَى، فالذبيح إسماعيل لأن إسحاق لم يدخل الحِجاز. وإن كان الأمر بالذبح وقع بالشام، فالذبيح إسحاق، لأن إسماعيل لم يدخل الشام بعد أن حمل منها»[2].

ولكن المسعودي أشار إلى نقطة مهمّة بشأن النقاش الحامي في زمنه حول هويّة الذبيح. وهو دخول التيّارات الشعوبيّة على خطّ هذا الجدل. أو لعلّها كانت وراءه وسبباً في تأجيجه. كان الفرس الساسانيّون ينتسبون إلى إسحاق. فكان من الطبيعي أن يفتخروا على العرب، وفق تعبير ابن عبد ربّه «بإسحاق بن إبراهيم، وأنه لسارة. وأن إسماعيل لأمة تسمّى هاجر»[3]. فردّ عليهم العرب بالفخر بإسماعيل بكر إبراهيم، ونسبوا إليه إليه فضيلة الذبيح الذي اختاره إليه. فاتخذ الجدل منحى عرقياً أو عَصَبياً،

---

1 - اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر البغدادي (ت نحو 292هـ)، تاريخ اليعقوبي تعليق خليل المنصور، قم المقدسة/إيران، مطبعة شريعة، ط2، 1425هـ. ق، ج1، ص 26.

2 - المسعودي (ت 346 هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل پلا، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط 1، 1965، ج1، ص51.

3 - ابن عبد ربّه، العقد الفريد، م. س، ج3، ص 409.

أو لعلّ هذا المنحى كان في الأساس وراء هذا الجدل. وهذا ما يُفهم من الرواية عن الخليفة الأمويّ عمر بن عبد العزيز مع اليهودي الذي أسلم. والتي يذكرها أبو ذؤيب. والمسعودي الذي عاصر هذا الجدل في العصر العباسي، نقلَ لنا نموذجاً عن هذه المفاخرات، فقال: «وقد افتخر بعض أبناء الفرس بعد التسعين والمائتين بجدّه إسحاق بن إبراهيم الخليل على ولد إسماعيل، بأن الذبيح كان إسحاق دون إسماعيل. فقال في كلمة له:

أيا بني هاجر أبانت لكم ... ما هذه الكبرياء والعظمة

ألم تكن في القديم أمّكم ... لأمنا سارة الجمال أمه

والملك فينا والأنبياء لنا ... إن تنكروا ذاك توجدوا ظلمه

إسحاق كان الذبيح قد أجمع ... الناس عليه إلا إدّعاء لمه

حتى إذا ما محمد أظهر ... الدين وجلّى بنوره الظلمه

قلتم قريش والفخر في الدين ... لا الأحساب إن كنتم بنيه فَمَه[1]

البغوي والزمخشري يذكران الرأيَين

والبغوي (436 – 510 هـ) في تفسيره يذكر القولَين مع الروايات ولا يفصل بينهما[2].

ويقف الإمام الزمخشري (467 – 538 هـ) في تفسيره "الكشّاف" موقفاً محايداً. فيورد روايات كلّ من الفريقَين. فينقل عن علي بن أبي طالب وابن مسعود والعبّاس وعطا، وعكرمة أنه إسحاق[3]. أما حديث أنا

1 – المسعودي، م. س، ج1، ص 282.

2 – الفراهي، الإمام عبد الحميد، الرأي الصحيح في مَنْ هو الذبيح، دمشق، دار القلم، ط1، 1999، ص 126.

3 – الزمخشري، جار الله محمود بن عمر (ت 538 هـ) تفسير الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ط2، 2005، ص 911.

ابن الذبيحَين فيقول عنه الإمام المحدّث جمال الدين الزيلعي مخرّج أحاديث تفسير الكشّاف إنه غريب[1].

الفخر الرازي وابن الأثير لا يقطعان برأي

ومثله الإمام الفخر الرازي (ت 606 هـ) ينقل روايات الطرفَين ولا يبدي حكماً فيها. «فقيل إنه إسحاق وهذا قول عُمر وعلي والعبّاس بن عبد المطلب وابن مسعود وكعب الأحبار وقُتادة وسعيد بن جبير ومسروق وعكرمة والزهيري والسدّي ومقاتل رضي الله عنهم»[2] وينهي الفخر الرازي عرضه برواية عن الزجّاج:«وكان الزجّاج يقول الله أعلم أيهما الذبيح والله أعلم»[3].

والمؤرّخ الإمام العلاّمة ابن الأثير (555 – 630 هـ) يذكر في «الكامل في التاريخ» الرأيَين ولا يقطع في واحد منهما. «واختلف السلف من المسلمين في الذبيح. فقال بعضهم هو إسماعيل وقال بعضهم هو إسحاق. وقد رُوي عن النبي، صلعم، كلا القولَين. ولو كان فيهما صحيح لم نعده إلى غيره. فأما الحديث في أن الذبيح إسحاق فقد رَوَى الأحنف عن العبّاس بن عبد المطّلب عن رسول الله، صلعم، في حديث ذكر فيه ﴿وفَدَيْنَاه بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾، (الصافات/107): هو إسحاق. وقد روي هذا الحديث عن العبّاس لم يرفعه(...)[4]. ويعيد ابن الأثير تسمية أبرز الصحابة والتابعين

---

1 – م. ن.

2 – الفخر الرازي (ت 606 هـ)، التفسير الكبير، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، ج26، ص 153.

3 – م. ن. ص 155.

4 – ابن الأثير، الإمام علي بن محمد (ت 630 هـ)، الكامل في التاريخ المعروف بتاريخ ابن الأثير، تحقيق أبو صُهيب الكرمي، عمّان، بيت الأفكار الدولية، لا ت، ص 317.

الذين قالوا إن الذبيح إسحاق: عمر بن الخطاب وعلي والعبّاس وابنه عبد الله وعبد الله بن مسعود وكعب الخ...[1].

وفي كتابه أسد الغابة في معرفة الصحابة[2] يورد ابن الأثير حديثاً للصحابي نهار العبدي، وقد نقله عنه إبن حجر العسقلاني (ت52هـ) كما يلي:

نهار العبدي، ذكره محمد بن الحسن النقاش في تفسيره بغير إسناد قال: قال نهار العبدي جاء رجل إلى النبي فقال: أي الناس أكرم حسباً، قال: يوسف صدّيق الله بن يعقوب إسرائيل الله بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله[3].

ويذكر ابن حجر العسقلاني حديثاً آخر عن يوسف بن أسباط عن الثوري عن ثور بن يزيد عن نهار (العبدي) وكانت له صحبة عن النبي، صلعم، قال: إسحق ذبيح الله[4].

والإمام الخازن (ت 741هـ) اكتفى في تفسيره بذكر القولَين مع الروايات[5].

ويورد الإمامان جلال الدين المحلّي (ت 864 هـ) وتلميذه جلال الدين السيوطي (ت 911 هـ) الرأيَين من دون ترجيح أيّ منهما. يقولان باختصار في

---

1 - م. ن.
2 - ابن الأثير، الإمام علي بن محمد (ت630هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، ط5، ص 43 (ترجمة رقم 5306).
3 - العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر (773 - 852هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق حسان عبدالمنان، الأردن، بيت الأفكار الدولية، ط1، 2004، ترجمة رقم 9169، ص 1343.
4 - م. ن.
5 - الفراهي، م. س، ص 126.

تفسير قوله «وفديناه»، (الصافات/107). أي المأمور بذبحه، وهو إسماعيل أو إسحاق قولان[1].

ومسألة هويّة الذبيح حيّرت الإمام جلال الدين السيوطي واستوقفته فترة طويلة. إذ تناولها في تفسير الجلالَين، وفي الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور. ثم عاد وخصّها ببحث مستقلّ سمّاه «القول الفصيح في تعيين الذبيح» عرض فيه مختلف الآراء في ذلك، ولم يقطع هو برأي، إذ قال في الخاتمة: «وكنت مِلْت إليه (القول بإسحاق الذبيح) في علم التفسير. وأنا الآن متوقّف في ذلك. والله سبحانه وتعالى أعلم»[2].

أي أن الإمام السيوطي في تفاسيره للقرآن كان يقول إن الذبيح إسحاق. ثم عاد وتوقّف عن إعطاء رأي في هذا الخلاف.

المرجّحين أنّ الذبيح إسماعيل

أما الذين رجّحوا أن الذبيح إسماعيل فأغلبهم من المتأخرين، ومنهم **القاضي البيضاوي** (ت 791هـ) وتفسيره مختصر لتفسير الكشّاف للزمخشري. جاء فيه: «والأظهر أن المخاطب "إني أذبحك" إسماعيل، عليه السلام»[3].

يبقى أن أبرز المتحمّسين لنظريّة "إسماعيل الذبيح" والمتعصّبين لها هو

1 - جلال الدين المحلّي (ت 864) وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالَين، تحقيق محمد عرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1995، ص 450.
2 - السيوطي، القول الفصيح، ص 34، نقلاً عن الزغبي، فتحي محمد، قصّة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين، القاهرة، دار البشير، 1994، ص 85.
3 - البيضاوي، القاضي عبد الله بن عمر (ت 791 هـ)، تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق مجدي السيّد، القاهرة، المكتبة التوفيقيّة، لا ت، ج2، ص 356.

الإمام **إسماعيل بن كثير** (ت 774 هـ). ولعلّه معذور في ذلك فاسمه إسماعيل، ولقبه "أبو الفداء"، وهو لَقَب قُرِن بمَنْ إسمه إسماعيل في العصور المتأخرة، وفق ما يقول أبو ذؤيب: «ولما كان أغلب عُلماء المسلمين في العصور المتأخرة قد أخذوا بالرأي الثاني ولم يعبأوا بالحجج التي استند إليها الفريق الأوّل، فقد شاع تلقيب كل مَنْ سمّي اسماعيل بلقب "أبو الفداء"». ولكن ابن كثير لا يأتي برأي جديد قاطع في هذا المجال، بل يكتفي بذكر روايات الفريقَين. وعن حديث «أنا ابن الذبيحَين» يؤكّد ابن كثير أنه غريب. ويتناول تأويلات الطبري للبشارة بإسحاق ويردّها. ويزعم أن الروايات عن إسحاق الذبيح كلّها مأخوذة من كعب الأحبار(...) وليس لهذه الأمّة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد ممّا عنده»[1].

وعلى الرغم من قوله أن ليس لهذه الأمّة (المسلمين) حاجة إلى حرف ممّا عند كعب الأحبار، فإن ابن كثير نقل في تفسيره الكثير من الروايات عن كعب. منها روايته عن كعب أن معاوية سأله عن صخرة بيت المقدس فقال الصخرة على نخلة والنخلة على نهر من أنهار الجنّة، وتحت النخلة مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم ينظّمان سموط أهل الجنّة حتى تقوم الساعة[2].

كما روى عنه وصفه للنبي يوسف وأصل يأجوج ومأجوج وقصّة النبي إدريس[3].

فابن كثير، كما نرى، ينقل روايات كعب حيث توافق هذه الأخيرة

---

1 - ابن كثير، التفسير، م. س. ص 1348.
2 - الحفني، د. عبدالمنعم، موسوعة فلاسفة ومتصوّفة اليهوديّة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1994، ص 186.
3 - م. ن، ص 186 - 187.

آراءه، ويحجم عن النقل حيث تتعارض معها مدّعياً أن لا حاجة للمسلمين لحرف مما رَوى كعب.

ولكن ابن كثير ينقل ما حكاه البغوي عن كبار الصحابة والتابعين عمر وعلي وابن مسعود والعبّاس وابنه ومقاتل والزهري وغيرهم أن الذبيح إسحاق.

ويردّ **الإمام الشوكاني** (1173 – 1250 هـ) على ابن كثير. فيقول «فإن أدلّته، إن لم تكُن دون أدلّة القائلين بأن الذبيح إسحاق، لم تكُن فوقها ولا أرجح منها. وإنه لم تصحّ عن رسول الله، صلعم، في ذلك شيء، وإن ما روي عنه فهو إما موضوع أو ضعيف جداً. ولم يبقَ إلا مجرّد استنباطات من القرآن. وهي محتملة، ولا تقوم حجّة بمحتمل»[1] ويخلص الإمام الشوكاني إلى الفتوى بوجوب الوقف في هذه المسألة وعدم القطع برأي. يقول:«إن الوقف هو الذي لا ينبغي مجاوزته. وفيه السلامة من الترجيح بلا مرجّح. ومن الاستدلال بما هو محتمل»[2].

وابن القيّم الجوزيّة (691 – 751 هـ)، لا يقلّ حماساً لإسماعيل الذبيح عن زميله وتلميذه ابن كثير. ولا عجب في ذلك. فالإثنان من مدرسة واحدة وتلميذان لابن تيمية. وقد أفرد ابن القيّم الجوزيّة في كتابه زاد المعاد باباً تناول فيه هذه المسألة. وفيه ينقل عن أستاذه ابن تيمية بشأن القائلين إن الذبيح إسحاق:«هذا القول إنما هو متلقّى عن أهل الكتاب»[3].

فرأي أهل الكتاب الذي كان حجّة عند القرطبي، كما أسلفنا، غدا

---

1 – الشوكاني، الإمام محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، بيروت، دار الفكر، ط1، 1983، ج4، ص 403 – 407.

2 – م. ن، ج4، ص 407 – 408.

3 – ابن القيّم الجوزيّة، الإمام شمس الدين (ت 751 هـ)، زاد المعاد في هدى خير العباد، بيروت، دار ابن حزم، ط2، 2005، ص 26.

قولاً يوجب التكذيب عند ابن تيمية. ويمضي ابن القيّم عارضاً حُججاً لنظريّته في إسماعيل الذبيح. والملاحظ أنه يعتمد فيها على تأويل القرآن والتفسير اللغوي له، ويستبعد ذكر الأحاديث مؤيَّدة كانت أم مخالفة لرأيه.

وفي هداية الحيارى، يذهب ابن القيّم إلى أبعد من ذلك، فيتّهم اليهود بإقحام إسم إسحاق في النصّ التوراتي لجعله الذبيح. يقول «وفيها (التوراة) أن الله قال لإبراهيم: إذبح ابنك بكرك إسحاق. وهذا من بهتهم وزيادتهم في كلام الله، فقد جمعوا بين النقيضَين، فإن بكره هو إسماعيل فإنه بكر أولاده. وإسحاق إنما بشّر به على الكبر بعد قصّة الذبح»[1].

ونصّ الجوزيّة، يظهر جهلاً مطبقاً بالتوراة. وقد يعود ذلك إلى جهل الكاتب لغتها. فآية سِفر التكوين 2/22 تقول خذ إذاً ابنك وحيدك χ ח י ח י (يحيدك بالعبريّة) الذي أحببت إسحاق[2] وقد قلب ابن القيّم لفظة وحيدك إلى بكرك، وحوّر الكلم عن مواضعه ليصل إلى ما يريد: الذبيح هو إسماعيل. وبديهي أن يكون حشر اسم إسحاق في النص، كما يزعم الجوزيّة، أمراً غير وارد، فهو لم يذكر مرّة واحدة، بل مراراً في النصّ المشار إليه. ففي تكوين 3/22، حيث يتابع سرد القصّة: «فبكّر إبراهيم في الصباح وأسرج حماره وأخذ الإثنين غلامَيه معه وإسحاق ابنه» ثم وضع على إسحاق ابنه حطب المحرقة، تكوين 6/22 «وقال إسحاق لأبيه

1 - ابن قيّم الجوزيّة، الإمام شمس الدين (691 - 751هـ)، هداية الحيارى في الردّ على اليهود والنصارى، تحقيق سيف الدين الكاتب، بيروت، دار مكتبة الحياة، ط1، 1980، ص 149.

2 - الفغالي، بولس، وعوكر أنطوان، العهد القديم العبري، ترجمة بين السطور، عبري – عربي، بيروت، الجامعة الأنطونيّة، ط1، 2007، ص 31.

إبراهيم.. ها النار والحطب وأين الشاة»، تكوين 7/22 فإذا سلّمنا جدلاً باحتمال حشر اسم إسحاق مرّة في النص، فهل يمكن أن يحشر عشرات المرّات؟! نصّ سفر التكوين واضح لا لبس فيه ولا يحتمل أيّ تأويل أو تحريف بشأن هويّة الذبيح إسحاق.

ولعلّ ابن كثير كان أكثر المتحمّسين لإسماعيل ذبيحاً وأشهرهم. وقد انتشر هذا الرأي في العصور الحديثة. وقرن ذلك بمناسك الحجّ وشعائره. يقول أستاذنا المستشرق بيير لوري: «تضحية إبراهيم بابنه عمل يكرّره الحجّاج في اليوم العاشر من ذي الحجّة ومعهم كل الجماعة الإسلاميّة: إنه عيد الأضحى. فتذكر الجماعة في ذلك اليوم إيمان إبراهيم وابنه وخضوعهما للأمر الإلهي»[1]. فمناسك الحجّ ربطت بتضحية إبراهيم بابنه. وإذا كان مكان التضحية مِنَى فالذبيح يجب أن يكون إسماعيل. وتسمية الذبيح وتعيينه تأخذ اليوم أبعاداً قوميّة وجغرافيّة. فالسلطات السعوديّة مثلاً لا تحتمل فكرة أن يكون الذبيح أحداً غير إسماعيل. لذا ففي المصحف الصادر عن مجمع الملك فهد المقرون بالترجمة الفرنسية للمعاني نجد أن ترجمة آيات سورة الصافات:﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، (الصافات/101). تحدّد الذبيح وتسمّيه مباشرة:

Nous lui fîmes donc la bonne annonce d'un garcon (Ismaïl) longanime[2].

والآية 102﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ تترجم كما يلي:

---

1 – Lory, Pierre, Article Issac et Ismael in Dictionnaire du Coran, Paris, Robert Laffont, 2007, p. 428.

2 – Le Saint Coran et la traduction du sens de ses versets, R.A.S., Complexe du Roi Fahd, 1410h, p 449.

(Ismaël) dit: Ô mon cher père, fais ce qui t'est commendé.

ففي الآيتين حَشَر النص الفرنسي إسم إسماعيل من دون أن يكون له أيّ ذكر في الأصل[1]. وأقلّ ما يُقال في هذا إنّه تدخُّل في النص وتحريف له علماً أن النصّ الأصلي لهذه الترجمة الفرنسيّة والتي قام بها محمد حميدالله لا يذكر اسم الذبيح.

هوية الذبيح في أبحاث المستشرقين

جولدتسيهر ودلالة تغيّر هويّة الذبيح

وأبرز الذين بحثوا في مسألة الذبيح من المستشرقين وأقدمهم المستشرق المجري أجنتس جولدتسيهر (1850 – 1921)، وإسرائيل ولفنسون يستند إليه بشكل أساسي. وجولدتسيهر واحد من أقدر العارفين بالحديث النبوي وعلم التفسير. وخلاصة دراسته وتدقيقه في الموضوع «أن محمّداً نفسه، بإخبار من اليهود والنصارى، كان لا يفترض غير إسحاق ذبيحاً مختاراً للتضحية، ويبدو أيضاً أن أحداً لم يشك في ذلك من القرن الأوّل للإسلام، وكذلك أقدم مفسّري القرآن، الذين وافقهم عُلماء متأخرون، يمثلون هذا الرأي»[2].

ويروي جولدتسيهر كيف نشأ الخلاف في هويّة الذبيح، ممّا فصّلنا الكلام عليه وتناوله ولفنسون، فلا ضرورة تدعو لتكراره، ويتوقف عند ظاهرة لافتة، وهي تسلّح كل فريق بحديث مسند إلى المرجع نفسه

1 – الملاحظ أنّ كتابة اسم إسماعيل في كل آية أتت بطريقة مختلفة Ismaïl و Ismaël رغم ادّعاء الدقّة في المراجعة والتصحيح.

2 – جولدتسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي، م. س، ص 99.

والحجّة في تفسير القرآن: الصحابي عبدالله ابن عباس ابن عمّ الرسول:«بيد أن الحجّة الكُبرى في مسائل تفسير القرآن هو دائماً ابن عباس. فيظهر ابن عباس نفسه إذاً على أنه أساس الإسناد عند كِلا الفريقَين، وتسوق كِلتا الروايتَين قوله المدعوم برجال السلسلة في نسق جيّد دليلاً على صحّة مذهب كل منهما. ففريق إسحاق يتّخذ عكرمة، وفريق إسماعيل يتّخذ الشعبي أو مجاهداً عمدة في الرواية المباشرة عن ابن عباس أنه حسم في هذا الموضوع بما يوافق رأي كلّ منهما»[1].

ولكن ما يهمّ هذا المستشرق وعالِم الحديث، ليس هوية الذبيح وتغيّرها مع الزمن، بل دلالة ذلك وهي تتلخّص بكلمة: الوضع في الحديث. يقول جولدتسيهر مردفاً:«ومِمّا ذكر يتّضح مدى الحجّية التي يمكن الاعتراف بها في إسناد رأي إلى ابن عباس. وما يجري على ابن عبّاس وعلى الأقوال الراجعة إليه عن طريق الرواية، يمكن أن نجده في التفسير المأثور على طول الخط. فالأقوال المتعارضة بعضها مع بعض، يمكن دائماً أن تعتمد على سلاسل من الإسناد المؤيّد لها في نسق جيّد، تنتهي كلّها إلى نفس المصدر. وستتضاءل الثقة بسلاسل الإسناد المؤيدة هذه إلى حدّ كبير، إذا أتاحت لنا بين حين وآخر فرصة النظر في تاريخ نشأة الأسانيد»[2].

ويعطي جولدتسيهر هنا مثلاً معبّراً عن مسألة تزوير السند، يأخذه من تفسير الطبري، وهو حديث «الدخان الذي تتفتّح عنه السماء» والمسند إلى الصحابي حذيفة بن اليمان.

---

1 – جولدتسيهر، م. س، ص 101.

2 – م. ن، ص 102.

ما يهمّنا يقول جولدتسيهر ليس هذا الحديث، بل ما روى الطبري عن سنده. «فأحد رواة هذا الحديث هو: سفيان الثوري (ت161هـ/778م) العظيم الشهرة في الأدب الديني الإسلامي. ويحدّث عنه روّاد بن الجراح وعن هذا ابنه عصام. وعن طريق هذه السلسلة يستند الحديث إلى حذيفة صاحب النبي، صلعم»[1].

وهنا يتابع جولدتسيهر سرد الخبر نقلاً عن الطبري في تفسيره (ج15، ص 72). فهذا الأخير يروي عن محمد بن خلف العسقلاني: أنه سأل روّاد عن هذا الحديث هل سمعه من سفيان بإسناد متّصل بحذيفة؟ فنفى روّاد ذلك. ثم سأله هل قرأه على سفيان فأقرّ به؟ وهذا أيضاً نوع من الرواية. فقال رواد: لا فقال له: فكيف انتشرت رواية هذا الحديث بالإسناد إليك؟ فقال: جاءني قوم فعرضوه عليّ وقالوا لي إسمعه منا، فقرؤوه عليّ، ثم ذهبوا فحدّثوا به عني»[2].

ويعقّب جولدتسيهر بأن هذا نوع من أنواع التلاعب العديدة بالحديث وبسنده. والتزوير الأخير نجده في كثير من أحاديث حذيفة وغير حذيفة من الصحابة. فأيّة ثقة بالحديث متناً وسنداً، وأيّة ضمانة لصحّته؟!

ومن هذا الباب ومن أمثاله دخلت المؤثرات اليهوديّة بل والفارسيّة والهنديّة والنصرانيّة في الحديث. ينطلق المستشرق المجري من هذا المثل الموثق ومن كثير غيره ليبني نظريّة في الحديث وما دخل فيه من عناصر وأقوال من الإنجيل والتوراة والحكم الهنديّة واليونانيّة وغيرها، فغدا خليطاً هائلاً من مؤثرات متعدّدة بل ومتناقضة المصدر. يقول جولدتسيهر

---

1 - م. ن، ص 103.

2 - جولدتسيهر، م. س، ص 103، نقلاً عن تفسير الطبري، ج15، ص 72.

في كتاب آخر له:«تتجلّى في الحديث جهود الأمّة الإسلاميّة في عملها الشخصي الخالص، فلم تندمج فيه أمور القانون والعادات والتقاليد والعقائد والأفكار السياسيّة وحسب، بل قد لفّ فيه كل ما يملكه الإسلام من محصوله الشخصيّ، وكذلك الأمور الغريبة عنه، وقد غيّر هذا الغريب المستعار تغييراً أبعده عن الأصل المأخوذ منه. وضمّ ذلك كلّه إلى الإسلام. فهناك جُمل أُخذت من العهد القديم والعهد الجديد، وأقوال للربّانيين، أو مأخوذة من الأناجيل المنحولة، وتعاليم من الفلسفة اليونانيّة، وأقوال من حكم الفرس والهنود. كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث، حتى لفظ أبونا لم يعدم مكانه في الحديث المعترف به. وبهذا أصبحت ملكاً خاصاً للإسلام بطريق مباشر أو غير مباشر تلك الأشياء البعيدة عنه»[1].

ويعطي جولدتسيهر سيلاً من الأمثلة على ما دخل الحديث من روايات تلموديّة، نسبت بسند متّصل إلى الرسول عن طريق أبي بكر بن عيّاش عن سعيد البقال، عن عكرمة عن ابن عباس وغير ذلك من سلاسل السند الصحيح. ويخلص من ذلك إلى أن «عن هذا الطريق دخل الإسلام، وتسرّب إليه كنز من القصص الدينيّة، حتى إذا ما نظرنا إلى الموادّ المعدودة في الحديث، ونظرنا إلى الأدب الديني اليهودي، فإننا نستطيع أن نعثر على قسم كبير دخل الأدب الديني الإسلامي من هذه المصادر اليهوديّة»[2].

يبدو جولدتسيهر غير معنيّ بهويّة الذبيح وتغيّرها بقدر عنايته بدلالة

---

1 - جولدتسيهر، أجنتس، العقيدة والشريعة في الإسلام، تاريخ التطوّر العقدي والتشريعي في الديانة الإسلاميّة، ترجمة محمد يوسف موسى، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط1، 1946، ص 42 - 43.

2 - م. ن، ص 43.

ذلك. فأنت تستطيع أن تقول الشيء ونقيضه وتجعل من كل منهما حديثاً له سندٌ صحيح. ومن هذا الباب الواسع دخل في الحديث هذا الكم الهائل من المؤثرات الغريبة عن الإسلام.

ينطلق المستشرق المجري من الخاص إلى العام، ليبني نظريّة متكاملة ومتناسقة في الحديث وتجريحه. ولن نغامر هنا في البحث في هذه النظريّة ونقدها، فهو أمر لا يتعلّق بحثه بموضوعنا. ونكتفي بالتأكيد على أن هذا الخلط والتناقض في الحديث وسنده بشأن هويّة الذبيح يحمل دلالات تتخطّى محدويّة المسألة لتطرح إشكاليّة المؤثرات الغريبة (اليهوديّة وغيرها) في الحديث النبوي.

يواكيم مبارك: المهمّ التضحية لا هويّة الذبيح

يواكيم مبارك مفكّر لبناني وتلميذ مقرّب للمستشرق لويس ماسينيون وجامع لتراثه[1] وواحد من كبار الباحثين في الدراسات الإسلاميّة. ومن آثاره خماسيّة الحوار الإسلامي – المسيحي *Pentalogie Islamo-Chrétienne*. ينطلق مبارك في بحثه عن هويّة الذبيح[2] من نتائج دراسة جولدتسيهر، فيقول: «يخلص جولدتسيهر في ختام تحقيقه لمختلف الأحاديث إلى أن الأجيال الإسلاميّة الأولى وعلى رأسها النبي نفسه اعتقدت مثل أهل الكتاب أن الذبيح هو إسحاق. والشهادات التي أوردها جولدتسيهر واضحة بما يكفي لاعتبار رأيه مرجّحاً»[3].

---

1 – هو الذي حقق ونشر مجموعة مقالات ماسينيون Opera Minora المؤلّفات الصغرى في ثلاثة مجلدات ضخمة.

2- Moubarac, Y., Abraham dans le Coran, l'histoire d'Abraham dans le Coran et la naissance de l'Islam, liminaire de Louis Massignon, Paris, Vrin, 1957, pp86 – 90.

3- Ibid, p 87.

وهنا يطرح مبارك السؤال التالي:«إذ كان فحوى رواية القرآن أن إسحاق هو الأضحية، فلِمَ لَمْ يذكر اسمه بوضوح فيها؟!

ويؤكّد يواكيم أن القرآن لم يكتفِ بأن لا يجعل إسماعيل الذبيح وحسب، ولكنه أيضاً لا يورد أي تفصيل أو إشارة حتى تتيح المجال لفرضيّة كهذه لدرجة أنه ما أن يتعلّق الأمر بإسماعيل حتى تغدو مسألة الأضحية غير واردة»[1].

وبعد تحليل لتفاصيل الرواية القرآنيّة يخلص مبارك إلى استنتاج أمرَين مؤكّدَين:

إبراهيم حمل للذبح إبنه إسحاق والحجّ المكّي خلّد هذه التضحية.

وهنا يتساءل يواكيم:«ولكن لِمَ هذان الأمران مضمران في القرآن؟ أو بالحري لِمَ هما مستقلاّن وغير مرتبطَين؟

فأن يخلّد الحج هذه التضحية فذاك أمر لا يرتبط بهويّة الذبيح. لأن التضحية نفسها هي المهمّة. التضحية وحدها لها قيمة دينيّة، يضيف مبارك وإذا كان من إسم يهمّ النبي في مسألة التضحية فهو المضحّي إبراهيم. ومن وجهة نظر الوجدان الديني المهمّ هي التضحية وحدها وأنها كانت تضحية بإبن. أما أن تكون تضحية بهذا الإبن أو ذاك فهذه مسألة ثانويّة.

ويقدّم يواكيم فرضيّة أن النصّ القرآني خرس عن تسمية إسحاق الذبيح لكي يسهّل على سامعيه العرب الأخذ بروايته من ناحية ولكي لا يعطي اليهود مبرّراً آخر للمفاخرة (على العرب) وهم ذرّية إسحاق.

ويقارن مبارك مسألة الذبيح بمسألة القبلة. فهما متشابهتان يقول. فقد بدأ الرسول بالصلاة نحو أورشليم ولكنه عندما أدار القبلة نحو

1- Ibid, p 86 – 87.

مكّة، فهو لم ينكر القبلة السابقة، وإنما أحدث تمايزاً عن أهل الكتاب. إنه يقترب من العرب ولكنه يعيدهم إلى توحيد إبراهيم الصرف.

وبتخليده تضحية إبراهيم في أطر الحرم المكّي الذي أسّسه هذا الأخير مع ابنه إسماعيل وذلك من دون أن يحدّد مكّة مكاناً للذبيحة، فالقرآن لا ينكر التضحية بإسحاق على جبل مريا (فلسطين). ولكنه يخصّ نفسه بها (التضحية) ويعمّمها في آن.

التضحية بإسحاق ليست موضع شك وتساؤل في عرف يواكيم مبارك إذاً. ولكن هويّة الذبيح تبقى مسألة ثانويّة والجدل فيها قد يحجب النظر عن المسألة الأساسيّة: أي التضحية نفسها ورموزها ودلالاتها. التضحية بالإبن هي جوهر المسألة. المهمّ في وجدان النبي وفي الرواية القرآنية ذبيحة الإبن ومقرّبها (إبراهيم)، أما هويّة هذا الإبن فليس من شأنها أن تزيد من قيمة هذا الحدث/المحور أو تنقص منها.

غودوفروا: الالتباس مرتبط بجدليّة العلاقة مع اليهود

ويتناول المستشرق الفرنسي موريس غودو فروا *Maurice Gaudefroy-Demombynes* مسألة الذبيح وهويّته في تأريخه لسيرة نبي الإسلام[1] فيلاحظ أوّلاً أن الرواية القرآنية لذبيحة إبراهيم تعود إلى بداية الحقبة المكّية الثانية من الوحي[2] ويتوقف عن مسألتَين لم تحدّدهما هذه الرواية: إسم الذبيح ومكان الذبيحة، فما من إشارة واحدة إلى أنها جرت في مكّة (منى). ويلاحظ أن الآيات القرآنية التي تروي خبر الذبيحة، تعود وتذكر البشارة بإسحاق (الصافات 112/37) بعد ذكر البشارة بغلام حليم

1- Gaudefroy-Demombynes, Maurice, Mahomet, Paris, Albin Michel, 1ere édition 1957, 2eme édition 1969, 698p.

2- Ibid, p 351.

(الصافات 101/37) ما يجعلنا نميل إلى القول إن الذبيح إسحاق.

والمهمّ بالنسبة إلى هذا المستشرق الفرنسي أن يجد جواباً عن السؤال التالي: لِمَ لم يسمِّ النص القرآني الذبيح؟! وعن ذلك يجيب:«إنني اميل إلى التفكير أن محمداً تعمّد أن يبقي هويّة الذبيح ملتبسة فقد كان يحضّر هداية اليهود»[1].

وبتعبير آخر، فغودوفروا يرى أن النصّ القرآني الذي يروي ذبيحة إبراهيم (سورة الصافات 100/37 – 112) لا يمكن أن يفهم على حقيقته وبكلّ أبعاده ومغازيه بمعزل عن ظروفه التاريخيّة، فقد نزل في بداية الفترة المكّية الثانية وكان محمد، صلعم، قد بدأ يحضّر للهجرة إلى المدينة، وما قد يستتبع ذلك من علاقة باليهود ودعوتهم إلى الإسلام. ولما كانت مسألة تجاوب هؤلاء مع الدعوة غير مضمونة فقد بقيت هويّة الذبيح غير محسومة بانتظار حسم المسألة.

ويلتقي غودوفروا ويواكيم مبارك في نقاط عديدة من نتائج بحثهما، فكِلاهما لا يتوقف عند مسألة هويّة الذبيح بقدر ما يهمّه سبب امتناع القرآن عن تحديد هذه الهويّة. وكِلاهما يعتبر هذا الالتباس أو الغموض مقصوداً ومرتبطاً بجدليّة علاقة محمد والدين الناشئ مع اليهود. تفاصيل تحاليل كل منهما تختلف، لكن النتائج تتشابه. والبحثان وإن تزامنا، فمبارك يذكر غودوفروا في لائحة مراجعه.

أمّا نحن فنكتفي بهذا العرض الموجز لنظريّة الربط بين مسألة هويّة الذبيح في القرآن وجدليّة العلاقة مع اليهود. فهي وجهة نظر جديرة بالبحث ولكن مناقشتها تتخطّى حدود دراستنا هذه.

1- Ibid.

رنيه داغورن وأسطورة إسماعيل

ويحاول المستشرق رنيه داغورن *René Dagorn* في أطروحته ملحمة إسماعيل *La geste d'Ismaël*[1] إعادة رسم خارطة طريق نشوء حكاية أو بالحري أسطورة إسماعيل في الإسلام، وفق تعبيره.

ومن هذا المنظور يقارب مسألة هويّة الذبيح. فيلاحظ أوّلاً أن «غالبيّة المستشرقين تتفق على أنه في ذهن الرسول وصحابته الأول لم يكُن من شك في هذه المسألة: إسحق هو مَن حُمل إلى المحرقة. وبعدها ظهرت الاختلافات في الرأي، وكما العادة كل فريق أخذ يستنجد بالأحاديث النبويّة. والمؤسف، يضيف داغورن أن أسماء الصحابة نفسها تستخدم عند هذا الفريق أو ذاك: مثل ابن عباس وأبو هريرة»[2].

يشير داغورن هنا إلى نقطة أساسيّة في دراستنا لآراء المستشرقين في هويّة الذبيح: فالمستشرقون في الغالب يجمعون على أن الإسلام المبكر لم يعرف سوى إسحاق ذبيحاً. فمنذ جولدتسيهر بل وحتى قبله كان هذا هو الرأي السائد بينهم. ولو شئنا العودة إلى آراء كلٍّ منهم لطال بنا المقام، وأحوجنا الأمر إلى بحث مستقلّ. لا بل فقد اعتبر البعض هذه المسألة بديهيّة ومتعارف عليها. فريجيس بلاشير *Régis Blachère* مثلاً، وهو من كبار الباحثين في تاريخ القرآن بعد نولدكه يعلّق في ترجمته للنص القرآني على آيّة سورة البقرة 124/2 «وإذا ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات» بما يلي: إنها إشارة محتملة للتضحية بإسحاق[3]. ولا يزيد على هذا التعليق

1- Dagorn, René, La geste d'Ismaël d'aprês l'onomastique et la tradition arabe, genève, librairie Droz, 1981, 427p.
2- Dagorn, Ibid, p 375.
3- Blachère, Régis, le Coran, Paris, Maisonneuve et larose, 1966, p 46.

المقتضب بشيء، فالأمر بالنسبة إليه بديهي ومحسوم.

وبالعودة إلى داغورن، فهو بعد عرض مسهب لتطوّر هويّة الذبيح وتغيّرها في التقليد الإسلامي، يطرح، ومن منظور مخطط دراسته، لنشأة أسطورة إسماعيل وتطوّرها، الإشكاليّة التالية: «هل بدأ هذا التغيّر [في هويّة الذبيح] مع نشأة الأسطورة الذهبيّة *Légende Dorée* لإسماعيل أي نحو بداية القرن الثامن م» [1].

وداغورن واثق أن ثمّة عمليّة بدل وتغيير لاسم الذبيح في التقليد الإسلامي، حتّمتها مسألة نشوء أسطورة إسماعيل فيه وتطوّرها. فالرغبة في الدعاية لإسماعيل وإعلاء مقامه ليعادل أو حتى يفوق مقام إسحاق، يقول هذا المستشرق، تجسّدت في الأجيال الإسلاميّة الأولى، وقد نشأت مسألة تسمية إسماعيل ذبيحاً في أجواء من الصراع العرقي (الشعوبية بين العرب والعجم، والديني بين المسلمين واليهود) ولكننا لا نستطيع القول إن عملية إبدال الاسم هذه قد لقيت نجاحاً منذ البدء. فكثيرون هم المؤرّخون والكُتّاب المسلمون، منذ العصر الأموي وحتى العصور المتأخرة، الذين بقوا متمسّكين بتسمية إسحاق ذبيحاً» [2].

ويختم داغورن تحليله لعمليّة بدل اسم الذبيح بالخلاصة التالية: «مشارك لإبراهيم في تأسيس ديانة الحنيفيّة، وضحيّة قدّمت ذبيحة فاستحقت صفة "صابر" إنهما الصفتان اللذان أراد التقليد الإسلامي أن يسبغهما على إسماعيل انطلاقاً من النص القرآني الذي يضمر اللقب الأوّل، ويترك بالتباسه المجال الكافي لظهور الثاني. وإلى لقبي التمجيد هذين جاءت صفات أخرى لتضاف فترسم ملامح وجه الجدّ الأوّل للشعب

1- Dagorn, Ibid, p 375.
2- Ibid, p 362.

العربي»[1].

داغورن في أطروحته ونظريّته في أسباب تبدّل هويّة الذبيح يقدّم لنا تفسيراً تاريخيّاً وانتروبولجياً مميّزاً لإشكاليّة هويّة الذبيح في الإسلام. تفسير جدير بالعناية والتفكّر.

دلالة الخلاف على الوضع في الحديث

وختاماً، ماذا بعد هذه الجولة الطويلة في مسألة الذبيح الشائكة؟ من الواضح أن الرأي فيه، في القرن الأوّل للإسلام، هو غير ما أضحى عليه في القرون التالية. فقضية إسم الذبيح كانت ثانويّة في نظر الأوائل. وعدم ذكر القرآن للاسم دليل على ثانويّتها. ولكن القضيّة الثانويّة هذه غَدَت أساسيّة وخطيرة عندما دخلت فيها العَصبيّات الدينيّة والعرقيّة. فأصبحت أداة للجدل بين المسلمين من جهة وأهل الكتاب من يهود ونصارى من جهة أخرى. وأصل من أصول المفاخرة بين العرب والفرس. ولا تزال إلى اليوم متّخذة طابعاً مشابهاً.

ولكن الأمثولة الأبرز في هذه القضيّة تبقى دلالتها على ما طرأ على الحديث النبوي والروايات من تغيير وتبديل. فللرسول نفسه، صلعم، ينسب حديث أن الذبيح هو إسحاق وآخر مناقض له تماماً. وهذا ما خلص إليه ولفنسون بعد عرض هذه القضيّة. إذ قال:«ولقد توسّعنا في ذكر تفاصيل الخلاف في مسألة الذبيح، لأننا نعتقد أنها من خيرة الأمثلة التي يستطيع الباحث أن يسوقها ليوضح مبلغ التقلّبات التي طرأت على بعض الروايات، ويظهر مقدار ما يلحقها من عبث، بسبب الأغراض المختلفة والأهواء

1- Ibid, p 363.

المتباينة»، (ص217 - 218). وخلاصة بن زنيف هذه لا تبدو بعيدة عن الواقع التاريخي وميزان الناقد المدقّق الموضوعي.

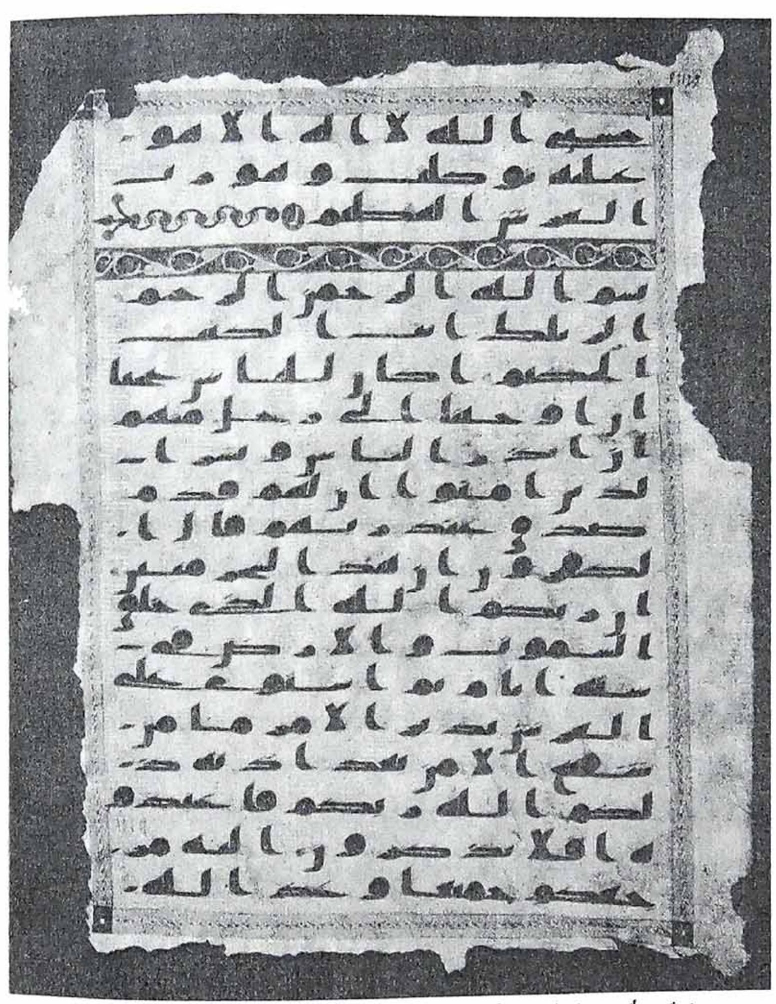
ويشير صديقنا الباحث د. وحيد السعفي[1] إلى ما وضع من أحاديث وحرّف من نصوص لجعل إسماعيل هو الذبيح وإكمال الصورة/الأسطورة فيقول: «كانت القصص تبحث لمحمد عن أصول في ثقافة الكون العظيم فربطته بإسماعيل، وتَفَنَّنَت في جعله الذبيح. وإن اضطرّها ذلك أحياناً إلى التأويل والنسخ والتحريف»[2].

هنا يلتقي هذا الباحث العربي مع نتائج بحث المستشرق داغورن: لقد ربطت مسألة هويّة الذبيح بنشوء أسطورة إسماعيل وتطوّرها في الوجدان واللاوعي الإسلاميين.

المهم كان التضحية وما يستخلص منها من عبر روحيّة ودينيّة تلك كانت ولما تزل روحيّة النص القرآني وروايته لخبر الذبيحة، لكن ظروف الصراعَين الشعوبي-العربي والإسلامي-اليهودي نقلت محور الاهتمام إلى تفصيل ثانوي لم يعره النص اهتمامه: هويّة الذبيح. فالأمّة الناشئة كانت تبحث عن تأصيل لجذورها وتعيد قراءة تاريخها، فجاء تغيير الإسم واحداً من عناصر القراءة الجديدة هذه وتثبيتاً لدور أريد له أن يكون محورياً في نشأة التوحيد وتطوّره وإظهاراً لحق في الإرث الإبراهيمي وتبييناً لحصّة في الوعد الإلهي.

1 - أستاذ الدراسات الإسلاميّة في جامعة تونس.

2 - السعفي، وحيد، القربان في الجاهليّة والإسلام، تونس، تبر الزمان، ط1، 2007، ص 94.



صفحة من أقدم مخطوطات القرآن تعود إلى القرن الأول هـ/وُجدت في جامع صنعاء/اليَمَن

الفصل الرابع

الأثر اليهودي في الحديث

مواضيع الفصل الرابع:

- أحاديث لكعب تنسب إلى الرسول
- أبو هُرَيْرَة يخلط بين أحاديث الرسول وأقوال كعب
- أوصاف الأنبياء بين كعب والرسول
- المصادر المتأخرة يكثر فيها الخلط
- بعض أسباب الخلط في الأحاديث

أحاديث لكعب تنسب إلى الرسول

وخلاصة بن زئيف المذكورة تقودنا الى البحث في مسألة مهمّة يتطرّق إليها الكاتب مراراً وهي مسألة الحديث والوضع فيه واضطراب الروايات، بل وتناقضها أحياناً. إنه موضوع لو شِئنا دراسته من مختلف جوانبه لأعوزتنا مجلّدات. لذا سنكتفي بالإشارات التي يوردها ولفنسون مع بعض تعليق وتحليل.

وأوّل ما يلفتنا في هذا السياق العلاقة التي كانت تربط بين كعب الأحبار وأبي هريرة. والأخير، كما هو معلوم، هو الصحابي الذي رَوى أكبر عدد من الأحاديث عن الرسول، صلعم، وهو أمر توقّف عنده أبو ذؤيب. في بداية الفصل المخصّص للرجُلَين. (الباب الثاني/الفصل الثالث). ومعروف أيضاً أن أبا هُرَيْرَة الصحابي رَوى عن كعب التابعي. وهو أمر استثنائي و"نادر عزيز" وفق تعبير الإمام الذهبي السالف الذكر.

ويبدو أن الرجُلَين ربطتهما علاقة وشيجة. وكان أبو هُرَيْرَة يرجع في المسائل الإسرائيليّة الى كعب. وقد أشار بن زئيف الى ذلك. وهنا يتوقّف الكاتب عند ظاهرة خطيرة في الحديث ونشأته وتطوّره. فبعض ما رواه أبو هُرَيْرَة عن كعب أو عن عبد الله بن سلام (صحابي يهودي الأصل)، لا ينسبه مسلم (ت 261 هـ) في صحيحه الى أي منهما، بل يجعل النسبة مباشرة الى الرسول، صلعم. ويقف أبو ذؤيب عند هذه الظاهرة اللافتة ويعلّق عليها بما يلي:«وهذه إحدى الظواهر الخطيرة التي تعرض للباحث في تطوّر أسانيد الرواية الإسلاميّة. وهي ظاهرة تلقي شعاعاً من النور على

مصدر كثير من الروايات كانت في بدء الأمر منسوبة الى أحد الصحابة أو التابعين ثم حدث أن نحلت في زمن متأخر ونسبت الى الرسول مباشرة».

ويحاول بن زئيف أن يقدّم سبباً للنحل والتغيير والتحريف، فيقول:«وتبدو هذه الظاهرة ساطعة لامعة حينما نجد في المصادر القديمة روايات وجّه فيها أبو هُرَيْرَة السؤال الى كعب الأحبار، أو الى عبد الله بن سلام، ثم نرى هذه الروايات نفسها قد نسبت في المصادر المتأخرة الى الرسول مباشرة. فلا نشكّ أن أصحاب هذه المصادر، وهم بعض جامعي الروايات في القرن الثالث للهجرة، لم يرق لهم، لأمر من الأمور، أن يقبلوا رأياً من مصدر يهودي، أو مِمَّن اعتنق الإسلام حديثاً، فآثروا أن تُروى الرواية وتُنسب إلى الرسول مباشرة»، (الباب الثاني الفصل الثالث). ويذكر أبو ذؤيب أمثلة عديدة على اضطراب الروايات في الأحاديث من أقوال نسبت بداية الى كعب ثم أُعيدت نسبتها الى عبد الله بن سلام وبالعكس. أو نُسبت الى واحد منهما ثم أُرجعت نسبتها، فيما بعد، الى الرسول مباشرة. وهي بلا شكّ ظاهرة خطيرة تطرح أسئلة وعلامات استفهام حول صحّة كثير من الأحاديث المنسوبة الى الرسول، صلعم. لا سيما وأن بن زئيف يأخذ أمثلة من الأحاديث المصنّفة صحيحة (صحيح مسلم) لا تلك الموصوفة بالحسنة أو الضعيفة. ومسألة الأثر اليهودي في الحديث النبوي من أبرز الإشكاليات التي يطرحها مصنّف ولفنسون هذا. ولكنه لا يتوسّع فيها على حدة، بل يكتفي بعدد من الأمثلة وبعض الإشارات. وهي تصلح موضوعاً لبحث أكثر تفصيلاً وتعمّقاً.

أبو هريرة يخلط بين أحاديث الرسول وأقوال كعب

ويعطي ولفنسون مثلاً بيّناً على الخلط بين أحاديث الرسول، صلعم، وروايات كعب عند أبي هُرَيْرَة. ففي الموطأ (للإمام مالك) حديث للرسول عن أبي هُرَيْرَة في فضائل يوم الجمعة. ينقله الطبري في تاريخه عن أبي هُرَيْرَة عن كعب. وهو حديث له أصول في المصادر اليهوديّة كما يبيّن أبو ذؤيب. (بداية الفصل الثاني/الباب الثاني).

ويذكر أبو ذؤيب في خاتمة فصله عن كعب وأبي هُرَيْرَة خبراً خرّجه مسلم في صحيحه، يؤكّد مدى خلط أبي هُرَيْرَة بين حديث الرسول، صلعم، وأقوال كعب: «قال لنا بشر بن سعيد: كنا نجالس أبا هُرَيْرَة فيحدّث عن رسول الله، ويحدّثنا عن كعب الأحبار. ثم يقوم، فأسمع بعض مَنْ كان معنا يجعل حديث رسول الله عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله.»

ولعلّ بن زئيف كان من أوائل الباحثين الذين أشاروا إلى اضطراب الأحاديث المذكورة عن أبي هُرَيْرَة، وحتى الواردة منها في كُتب الصحاح كمسلم والبخاري. وقد توسّع بعده باحثون آخرون في هذه المسألة.

ويورد بن زئيف أمثلة عديدة، وفي مواضع مختلفة من كتابه، عن أقوال لكعب نسبت أحاديث الى الرسول. مثل نظريّته عن العراق والشرّ فيه. وهو كلام يتّفق مع ما جاء في سِفْر إرميا 1/13 – 16. فالطبري في تاريخه والمسعودي في مروج الذهب والأصبهاني في حلية الأولياء ينسبون هذا القول لكعب، في حين ينسبه الثعلبي في قصص الأنبياء للنبي، صلعم، نفسه (الفصل السابع/الباب الثاني).

ومثل آخر؛ ففي موطأ الإمام مالك (93 – 179هـ) رواية عن كعب في تأويل الآية، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، (طه 20/12). نجدها بنصّها في تفسير الطبري منسوبة الى كعب وإلى غيره من المحدّثين مثل عكرمة وقتادة ووهب بن منبّه. في حين نجد الرواية عينها في قصص الأنبياء للثعلبي منسوبة الى النبيّ، صلعم، نفسه (أواخر الفصل الأوّل الباب الثاني). ويشير ولفنسون في آخر الفصل الأوّل الباب الثاني إلى وضع الكثير من الأحاديث عن فضل بيت المقدس في خلافة عبد الملك بن مروان (26 – 86 هـ) عندما كان عبد الله بن الزبير مسيطراً على الحجاز. وهو أمر بحثنا فيه في كتابنا "المعراج من منظور الأديان المقارنة"[1]. كما يذكر الكاتب إلزام الإمام المحدّث ابن شهاب الزهري (ت 124 هـ) بنشر عدد منها. وبعض الروايات عن القدس وضع باسم كعب الأحبار ونسب إليه. وطبيعي أن يكون كعب ذو الأصل اليهودي مِمَّن أشادوا بالقدس وفضلها لا بل إنه غالى في ذلك. ويبدو أن بعضاً من مرويّاته قد نسبت إلى الرسول في تلك الحقبة. وكان المستشرق جولدتسيهر (1850 – 1921 م) أوّل مَنْ بحث في مسألة وضع الأحاديث عن بيت المقدس. ويشير ولفنسون الى واقعة بارزة في تاريخ الحديث النبوي، وهي أن استخدام الأسانيد لم يكُن أمراً مألوفاً في النصف الأوّل من القرن الأوّل هـ. وهذا ما أدّى الى نسبة الكثير من روايات كعب الى أبي هُرَيْرَة أو ابن عبّاس.

---

1 – صليبا، د. لويس، المعراج من منظور الأديان المقارنة، دراسة لمصادره السابقة للإسلام ولأبحاث المستشرقين فيه، تقديم د. جوزف قزي، سلسلة المعراج/النص والواقع والخيال 4، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط 2، 2009، 49 – 50.

ففي تفسير الطبري مثلاً الكثير من الإسرائيليات المنسوبة لأحد الصحابيين هذين أو غيرهما. وهي مأخوذة من التوراة والتلمود. وواضح أنها منقولة عن كعب وعن غيره من مسلمين اليهود، ومنسوبة خطأ إلى هؤلاء الصحابة.

أوصاف الأنبياء بين كعب والرسول

ومما اشتهر عن كعب من مرويات أوصاف الأنبياء: شكلهم، ملامحهم، إلخ.. وقد نقلت كتب الأحاديث وقصص الأنبياء الكثير من هذه الأوصاف عنه. ومعظمها مدسوس عليه، ويلبّي حاجة العامّة وحشريّتهم في معرفة كل التفاصيل المتعلّقة بالأنبياء. ولكن العجيب، يقول أبو ذؤيب: «أننا وجدنا في صحيح مسلم أحاديث نبويّة، تتضمّن وصفاً لهيئة الأنبياء، كالتي وردت عند الثعلبي على لسان كعب الأحبار» (الباب الثالث/آخر الفصل الثالث). وهذا مثل آخر على الخلط في الحديث ودخول المؤثّرات اليهوديّة فيه.

ومثل أخير يورده ولفنسون: إيقاف يشوع بن نون الشمس في جلد السماء. وهي معجزة مشهورة في التوراة. (سِفْر يشوع بن نون 10/12 – 14) فأبو الريحان البيروني (ت 440 هـ) أورد الخبر، في الآثار الباقية، على لسان كعب. في حين نسبه الثعلبي مباشرة للرسول صلعم. ورواه الكسائي باسم وهب من منبه. أما الطبري فذكره في تاريخه باسم السدّي تارة وطوراً من دون إسناد عن أهل التوراة (الباب الرابع/الفصل الأوّل). ويعقّب أبو ذؤيب على ذلك: وهذه الرواية تعطينا صورة صحيحة للتقلّبات التي طرأت

على الأسانيد مع مرور الأجيال.»

المصادر المتأخرة يكثر فيها الخلط

ويشير الكاتب الى أن المصادر كلّما تأخّر زمانها ازداد فيها الخلط والاضطراب. يقول (الباب الثالث/الفصل الثالث):«نلاحظ أن المصادر القديمة لا تنسب الى كعب من الروايات المتعلّقة بموضوعات غير يهوديّة ، إلا القليل النادر، أما المراجع المتأخّرة، فقد اختلط فيها الحابل بالنابل، ولم تميّز الموضوعات التي توافق عقليّة كعب عن تلك التي تخالفها ، فنسبت إليه كثيراً من الروايات الخاصة بالمصادر المسيحيّة. مع أن كعباً اليهودي الأصل، لم يتميّز إلا بالموضوعات المأخوذة من المصادر اليهوديّة».

ويتوقّف بن زئيف عند ظاهرة غياب اسم كعب في الصحاح كالبخاري، ولكنه يرفض أن يكون ذلك بسبب عدم الثقة به كما جاء في بعض المصادر وإنما يعود السبب، في رأيه، الى أن غالبيّة أحاديثها في مواضيع الفقه، وهي ليست من اختصاص كعب. ولكن الكاتب لا يستبعد أن يكون سبب تغييب اسم كعب في صحيح البخاري وغيره عائد الى يهوديّته. فهذا كان شأن عبد الله بن سلام الصحابي اليهودي الأصل. «فرغم طول صحبته واشتهاره بالتقوى، فقد تجنّب المحدّثون أن ينقلوا عنه. ولم يفعلوا ذلك إلا في النادر وعند الحاجة القصوى». (الباب الثاني/أواخر الفصل العاشر).

الملاحظ هنا أن ولفنسون يصرّ دائماً على رفض أي تشكيك بكعب وصدق إسلامه. فغياب اسم كعب عن صحيح البخاري وغيره يعيده إلى

مجرّد اقتصار الصحاح على أحاديث الفقه ومواضيعه. وهو كلام غير دقيق.

بعض أسباب الخلط في الأحاديث

ومما لا شك فيه أن الانتقادات التي يوجّهها ولفنسون للأحاديث سنداً ومضموناً، جديرة بالبحث والتبصّر. وكثيرة هي اليوم أحاديث الصحاح التي يضعها عدد من الباحثين مسلمين ومستشرقين على محكّ النقد والفحص. وهذا الاضطراب والخلط في الأحاديث، يعود الى عوامل لعلّ من أبرزها:

1- تأخّر التدوين، واعتماد الأوّلين على الحفظ. وشعارهم في ذلك الحديث النبويّ «إنّا أمّة أميّة لا نكتب ولا نحسب»[1]. وكان ابن عبّاس يردّد: «إنا لا نكتب العِلم ولا نُكتبه»[2]. ورَوى يحيى بن جعده أن عمر بن الخطّاب، ر، أراد أن يكتب السنّة، ثم بدا له أن لا يكتبها. ثم كتب في الأمصار:«مَنْ كان عنده شيء فَلِيَمْحِه»[3]. ومثل هذه المواقف والأقوال كثير. ما جعل الكثيرين يحجمون عن تدوين الحديث، والبعض يتلف ما دوّن بحجة مخافة الخلط بينه وبين القرآن، أو بحجج أخرى.

2- عناية العُلماء بنقد السند أكثر من نقد المتن في الحديث. وفي

---

1 - رواه ابن ماجة وأبو داود والنسائي مرفوعاً/نقلاً عن الحزيمي، ناصر، حرق الكتب في التراث العربي، كولونيا/ألمانيا، منشورات الجمل، ط1، 2003، ص 11 و15.

2 - جامع بيان العِلم وفصله لابن عبد البر ج1 ص 272/نقلاً عن الحزيمي، م.س.، ص 11.

3 - جامع بيان العِلم/نقلاً عن الحزيمي، م.س. ص 13.

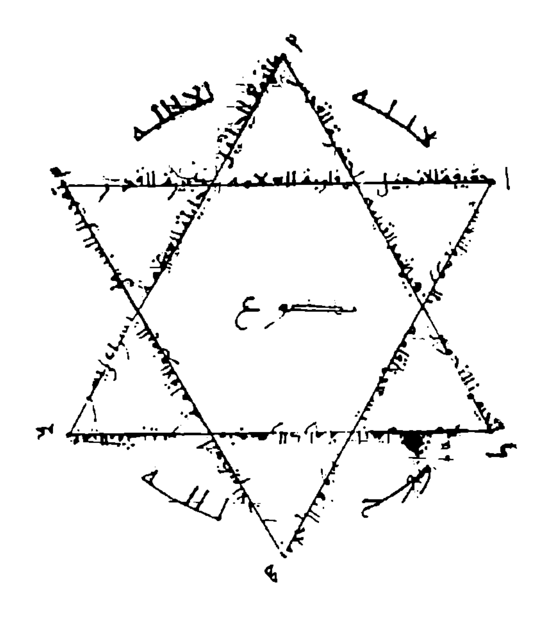
ذلك يقول أحمد أمين: «لقد عني عُلماء الحديث والحقّ يُقال بنقد الإسناد أكثر ممّا عنوا بنقد المتن. فقلّ أن تظفر بنقد من ناحية أن ما نسب الى النبيّ لا يتّفق والظروف التي قيلت فيه، أو أن الحوادث التاريخيّة الثابتة تناقضه، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفي يخالف المألوف في تعبير النبيّ، أو أن الحديث أشبه في شروطه وقيوده بمتون الفقه وهكذا. ولم نظفر منهم في هذا الباب بعشر معشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم. حتى نرى البخاري على جليل قدره يثبت أحاديث دلّت الحوادث الزمنيّة والمشاهدة التجريبيّة على أنها غير صحيحة. لاقتصاره على نقد الرجال، كحديث «لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة». وحديث مَنْ اصطبح كل يوم سبع ثمرات من عجوة، لم يضرّه سمّ ولا سحر ذلك اليوم الى الليل»[1].

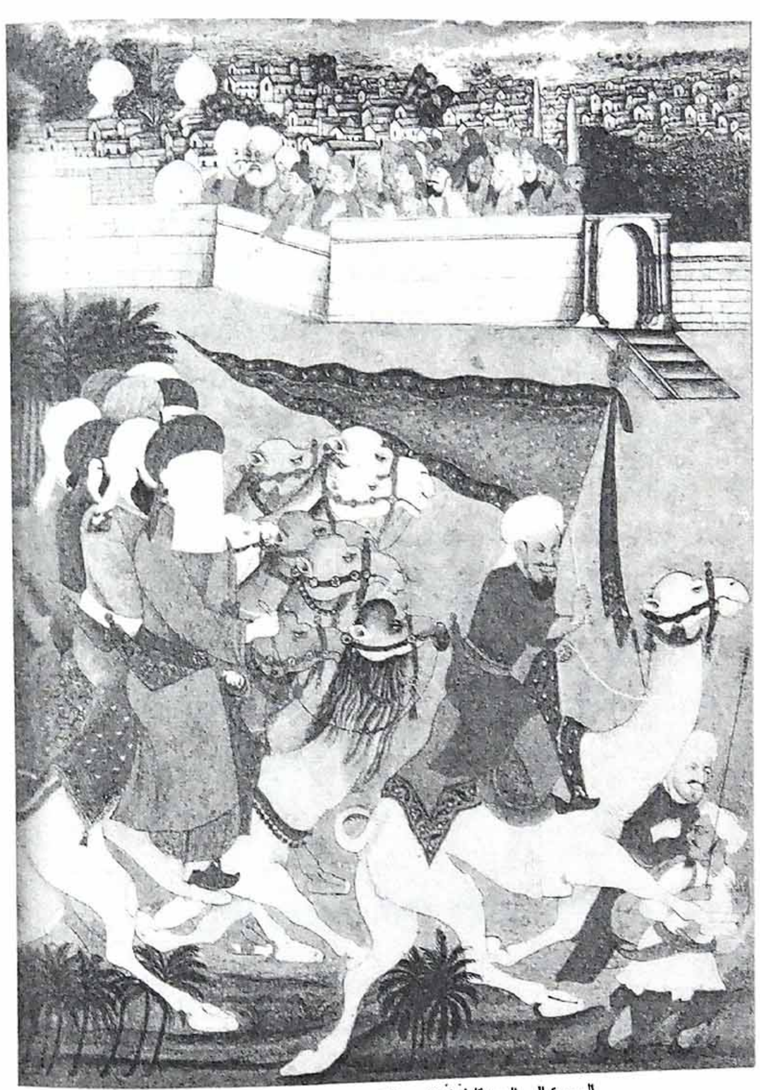
وثمة أسباب أخرى غير تلك أَوْصَلَت إلى ما في الحديث من اضطراب. المهمّ أن إشارات ولفنسون المتكرّرة الى هذه المسألة لا تُعدُّ بحثاً قائماً ومستقلاً، بل هي خطوات أولى ومنارات على طريق هذا البحث. وتبقى إلماعاته الى دخول الأثر اليهودي متون الكثير من الأحاديث عبر نسبة الكثير من أقوال كعب الى النبيّ وغير ذلك حوافز لمزيد من الفحص والتقصّي في هذا الموضوع. وهذا لا يعني التشكيك بالحديث بالمُطلق وإنما ينطبق على الحديث قول بن زئيف في الروايات عن كعب:«أما القول بأن جميع ما نسب الى كعب من الروايات منحول ومدسوس عليه، فقَوْل لا

1 - أمين، أحمد، فجر الإسلام، بحث في الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 10، 1969 ص 217 - 218.

أساس له من الصحّة، ولا نشكّ في بطلانه. لأن من الذين رَوُوا عن كعب كثيرين من العُلماء والمؤرّخين الأثبات الذين بلغوا النهاية القصوى من الفضل والأمانة واليقظة»، (الباب الثاني/أوّل فصل عشرين).

ويبقى الحلّ الذي يقترحه ولفنسون لتمييز صحيح الروايات عن كعب من ضعيفها صالحاً كمقياس ومنهج في النظر الى الأحاديث. يقول: «الطريقة المُثلى، إنما هي أن ننظر في كل رواية على حدة فنفحص أسانيدها ومتنها ونبحث فيها بحثاً تحليليّاً نقدياً، ثم نحكم، لها أو عليها، بالقبول أو بالرفض».

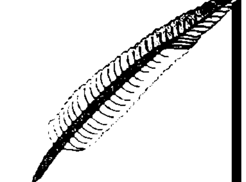




الهجرة إلى المدينة/منمنمة هندية/لاهور البنجاب 1800 م

الفصل الخامس

كعب الأحبار في المصادر المسيحية القديمة



مواضيع الفصل الخامس:

- بن زئيف يغفل دراسة كعب في المصادر المسيحية.
- كعب الأحبار في رسالة الكندي.
- كعب الأحبار في رؤيا بحيرى.
- كعب الأحبار في تاريخ السعردي
- كعب الأحبار في المصادر اللاتينيّة

بن زئيف يغفل دراسة كعب في المصادر المسيحية

تعقّب إسرائيل بن زئيف أثر كعب الأحبار وما روي عنه في مختلف الآثار والكتب الدينية والشعبيّة: الإسلاميّة منها واليهوديّة. فعرض لنا ما روي عنه في كتب قصص الأنبياء وفي الكتابات الشيعيّة وفي أدب طائفة المدجّنين في إسبانيا (الموركس) وفي قصص ألف ليلة وليلة وسيرة عنترة وفي القصة الشعبية الحديثة وفي قصص الأنبياء عند اليهود، ولكن أمراً واحداً أغفله سهواً، أو عمداً على الأرجح، ألا وهو دراسة شخصيّة كعب الأحبار في المصنّفات المسيحيّة، لا سيما في كتب الجدل المسيحي-الإسلامي. ولعلّه أعرض عمداً عن دراسة هذه الفئة من المؤلّفات. لأن اللوحة التي ترسمها لكعب تناقض ما ظهّر له هو من ملامح.

أيّاً يكُن السبب الكامن وراء هذا الإغفال فقد وجدنا من الضروري أن نعرض لما ورد عن كعب الأحبار في التراث المسيحي إتماماً للفائدة.

ولا بدّ أن نذكر بداية أن ثمّة نظريتان أساسيتان سادتا كتب الجدل المسيحي الإسلامي بشأن نشأة الإسلام.

النظرية الأولى تقول إن الإسلام هرطقة (بدعة) مسيحيّة وليس ديانة جديدة. وأبرز مطلقي هذه النظريّة وروّادها القدّيس يوحنا الدمشقي الذي سبق ذكره في الفصل الثالث.

والنظرية الثانية تعتبر الإسلام وليد مؤامرة حاكها عدد من أحبار

اليهود للقضاء على المسيحية[1].

لن نخوض في تفاصيل هاتين النظريتَين، فهو أمر لا يتعلّق ذكره بغرض بحثنا. وما يهمّنا هنا النظرية الثانية، فقد روى مطلقوها في آثارهم دوراً بارزاً لكعب الأحبار في نشأة الإسلام، وظهور كتابه المقدّس وتفسيره... إلى ما هنالك.

وغالباً ما تختلط في كتب الجدل المسيحي – الإسلامي الرواية بالأسطورة، فيصعب أن نفصل فيها كعب الشخصيّة التاريخيّة عن الأسطورة، ولكن يبقى المهمّ دلالة الروايات أكثر من تاريخيتها. فهي تبيّن مدى حضور كعب الأحبار في التاريخ الإسلامي، وتقدّم لنا قراءة أخرى ومختلفة لدوره وأثره في الدين الجديد.

وسنعرض ما استطعنا جمعه عن كعب في التقاليد المسيحية نقلاً عن مصادر عربيّة وسريانيّة ولاتينيّة، معتمدين التسلسل التاريخي في عرض هذه المصادر.

كعب الأحبار في رسالة الكندي

ومن أقدم ما وصلنا عن كعب في المصادر المسيحيّة، ما ذكرته عنه رسالة الكندي. وقد درسنا هذا المصدر الرئيسي في كتب الجدل المسيحي – الإسلامي في كتابنا: رسالة الأكويني في الردّ على المسلمين. وتعود رسالة الكندي إلى عهد الخليفة العباسي المأمون (813 – 834م).

يردّ عبدالمسيح الكندي في رسالته على رسالة أخرى لعبدالله الهاشمي[2]، فينفي عن المسيحيين القول بأنْ كان لله صاحبة وولد.

---

1 - Ducellier, Alain, Le miroir de l'Islam musulmans et chrétiens d'Orient au moyen Age, Paris. R. Julliard, 1971, p 31.

2 - توسّعنا في رسالة الأكويني في البحث في ظروف رسالتَي الكندي والهاشمي وعصرهما ونسبتهما، فنحيل الراغب بالاستزادة إليه.

ويؤكّد أن ذلك كان من الأقاويل التي نسبها أحبار اليهود الداخلين في الإسلام إلى المسيحيين وذلك للإيقاع بهم. يقول الكندي:«فنحن أصلحك الله لا نقول إن الله تبارك وتعالى كانت له صاحبة،ولا إنه اتخذ ولداً، ولا إنه كان له كفؤاً أحد، ولا نصف الله عزّ وجلّ بمثل هذه الرذائل والخسائس من صفات التشبيه. وإنما هذه شبهات لكم من قبل اليهود، حيث أرادوا كيدكم بذلك فلفّقوا هذه القصص التي يقصّونها على ظهور الطرقات والشوارع ويتكلّمون بالعظائم وبكل شنيع من الكلام»[1].

ويمضي الكندي في تحليله، فيؤكد أن ما نسب إلى النصارى من هذه الأقاويل من وضع أحبار اليهود لا سيما الثلاثي: ابن المنبه، وابن سلاّم وكعب، يقول:«وإلاّ فأنت تعلم، إذ كنت ذا علم بالكتب، أن ليس في الكتب المنزلة لهذا ذكر، ولا في كتابك أيضاً حيث كثر التشنيع فيه علينا، وادّعى على المسيح سيدنا ومحيي البشر الدعاوي التي لم يقلها قط، مما أكره تطويل كتابي بها. وتعريف القصّة في تناقضها والإخبار بأسبابها، وكيف كان ذلك من حيلة وهب بن المنبه وعبدالله بن سلام وكعب المعروف بالأحبار أولاد اليهود، وكيدهم وبهتهم وكيف احتالوا في إدخال ذلك وغيره من تلك التشنيعات علينا، إذ كنت محتاجاً إلى ذكر قصتهم في موضع آخر من كتابي هذا»[2].

ويعود الكاتب في الموضع الآخر الذي يشير هو إليه من رسالته فيفصّل القول في دور كعب الأحبار، وابن سلاّم، فينسب إليهما دوراً معاكساً ومناقضاً لدور الراهب بحيرى، وسنعود إلى هذا الأخير في الفقرة التالية. فما في القرآن من مديح لرهبان النصارى الذين لا

---

1 - رسالة الكندي، تحقيق المستشرق جورج ترتار، فصل 1، فقرة الله لم يتخذ صاحبة و لا ولد.

2 - م، ن.

يستكبرون (سورة 85/5) يعود إلى هذا الراهب، ولكن بوفاته انتهت حقبة الأثر النصراني في الإسلام، فاغتنم الفرصة ابن سلام وكعب فتقرّبا من محمد، صلعم، وأظهرا عن خبث الإسلام وكانا من كبار صحابته، ولكن دورهما الأساسي تركّز بعد وفاته. يروي الكندي: فلمّا قوي الأمر بالنصرانيّة وكاد يتمّ، توفّي نسطوريوس هذا. فوثب عبدالله بن سلام وكعب المعروف بالأحبار اليهوديان بخبثهما ومكرهما، فأظهرا له أنهما قد تابعاه على رأيه وقالا بقوله. فلم يزالا على ذلك المكر والدهاء والتدبير عليه، يكتمان ما في نفسيهما، إلى أن وجدا الفرصة بعد موته»[1].

وهنا ينسب الكندي إلى كعب وابن سلام دوراً خطيراً، بعد وفاة النبي، فهما وراء تأليب علي بن أبي طالب، ر، على أبي بكر، وذلك بهدف شقّ صفوف المسلمين، يروي الكندي:«فلمّا توفّي وارتدّ القوم، وأفضى الأمر إلى أبي بكر، وجلس علي بن أبي طالب عن تسليم الأمر لأبي بكر، علماً أنهما قد ظفرا بما كانا يطلبان ويريدان في نفسيهما. فاندسّا إلى علي بن أبي طالب، فقالا له: لِمَ لا تدّعي النبوّة؟ ونحن نوقفك على مثل ما كان يؤدّب به صاحبك نسطوريوس النصراني، فلست بأخسّ منه»[2].

ويروي الكندي أن علياً كان يعرف دور الراهب نسطوريوس (بحيرى)، فانغرّ بأقوال ابن سلاّم وكعب، ولكن تصدّي أبي بكر لعليّ أفشل مؤامرة اليهود. يروي الكندي:«وكان علي بن أبي طالب قد أحسّ بما كان نسطوريوس الراهب عليه، لأن علياً كان صغيراً وقتما صحبه، إلاّ أنه أوعز إليه ألاّ يعلم أحداً بموضعه، ولا يطلع عليه أحداً من أهله،

---

1 – الكندي، م. س، فصل 3، فقرة عمل الراهب سرجيوس.
2 – م، ن.

فقبل علي منهما ذلك لصغر سنّه وقلّة تجربته.

»فمال عليّ إلى قولهما بسلامة قلبه، فلم يتمّم الله لهما ذلك، ولم يبلغهما إياه، لأنه اتّصل بأبي بكر بعض خبرهما، فبعث إلى عليّ، فلمّا صار إليه، ذكّره الحرمة، ونظر عليّ إلى أمر أبي بكر وإلى قوّته، فرجع عمّا كان عليه ووقع بقلبه»[1].

نلاحظ أوّلاً أن الكندي ينسب إلى كعب وابن سلام دوراً شبيهاً بما نسب لاحقاً إلى يهودي آخر يذكره بن زئيف في تمهيده: إنه عبدالله بن سبأ ركن الباطنية ومن إليه تنسب فرقة السبئية. وكان من أبرز أنصار علي في الفتنة. ومن أكثر المغالين الداعين إلى إمامته، حتى نسب إليه القول بألوهيته. فهنا يدعو بن سبأ إلى إمامة علي بل وألوهيته، وعند الكندي يدعو كعب وابن سلام إلى نبوّة ابن أبي طالب، فعمّن يأخذ عبدالمسيح الكندي هذه الرواية اللافتة في أصول التشيّع وجذوره ودور اليهود فيه؟!

قد تلقي المقارنة بين ما نسبه الكندي لكعب وابن سلام وبين ما ورد في المصادر الإسلامية عن ابن سبأ أضواء جديدة على نشأة الفرق الباطنية وغلاة الشيعة في الإسلام، مِمّا لا يتعلّق البحث فيه بموضوعنا.

يبقى أن ما نسبه الكندي لكعب من أدوار خطيرة في نشأة الإسلام، لا يفهم بكافة أبعاده من دون التطرّق إلى أثر مسيحي آخر معاصر لرسالة الكندي وهو رؤيا الراهب بحيرى. فما هو هذا المصدر وماذا ذكر عن كعب.

كعب الأحبار في رؤيا بحيرى

رؤيا الراهب بحيرى نصّ معاصر، على ما يبدو، لرسالة الكندي

---

1 - م، ن.

ويعود إلى زمن الجاثليق تيموتاوس[1] ولهذه الرؤيا نصوص عديدة سريانيّة وعربيّة وترجمة لاتينيّة[2].

تندرج رؤيا بحيرى في خطّ الرؤى المسيحيّة واليهوديّة في الشرق الأدنى، أما مصدرها وأصولها فالكتاب المقدّس ولاسيما منه رؤى حزقيال ودانيال (العهد القديم) ويوحنا (العهد الجديد). وقد عرف أدب الرؤى نمواً وازدهاراً مطّرداً بعد الغزو الإسلامي للشرق، فانتشرت فيه النصوص المَعَاديّة التي تحاول تفسير هذا الحدث وسقوط الجيشَين البيزنطي والفارسي أمام ضربات العساكر الزاحفة من صحراء الجزيرة.. الخ، وطبيعي أن يثير حدث جلل كهذا مخيّلة الكتّاب والناس فيعمدون إلى التحدّث إثره عن منتهى الأزمنة والزمن الأخروي.. الخ. وقد شهدت أوروبا القروسطية ظواهر مماثلة، إذ كانت آداب الرؤى تظهر وتنتشر إثر الأحداث الجسام كالطاعون والحروب الكبرى.

وبين رؤيا بحيرى لا سيما في القسم الثاني الروائي منها وبين رسالة الكندي قرب وتشابه ولكن يصعب تحديد أيهما أثر في الآخر[3].

وتتّفق رسالة الكندي مع رؤيا بحيري في أن عقيدة محمد، صلعم، ورسالته والقرآن، تعود كلّها في مصدرها إلى ما تعلّمه من الراهب بحيري (سرجيوس) المبتدع. كما تتفقان في تحميل كعب الأحبار وعبدالله بن سلام المسؤولية الكبرى في تحريف تعليم الرسول، صلعم، والقرآن بعد وفاة نبي الإسلام. إذ كان هذا الأخير وفيّاً لتعاليم الراهب بحيرى وخاضعاً

---

1 - بطريرك النساطرة (780 – 823)، ذكرناه في دراستنا لرسالة الكندي في كتابنا رسالة الأكويني إلى المسلمين.

2- Landron, Bénédicte, Chretiens et musulmans en Irak, Attitudes Néstoriennes vis à vis.

3- Landron, op. cit, p 72.

لتوجيهاته.

وبحيرى هو الراهب الذي تتحدّث عنه السيرة النبويّة وتقول إنه تنبّأ لمحمّد، صلعم، بالنبوّة. أما المصادر المسيحية فتنسب إليه دوراً آخر أكثر خطورة وجسامة، فتزعم أنه هو مَن أوحى لمحمّد، صلعم، بعقيدته وبقسم من القرآن[1].

ومِمّا ترويه الرؤيا عن كعب أنه حرّف ما علّمه الراهب سرجيس (بحيرى) لمحمّد صلعم، وأنه أوهم أتباع هذا الأخير أنه سيقوم من الموت بعد ثلاثة أيام من وفاته. وينفرد النص السرياني للرؤيا بهذا الخبر الذي لا نجد له أثراً في النص العربي[2]. ويزعم نص الرؤيا أن الراهب سرجيس كان يصنع المعجزات وأن كل ما هو خطأ في القرآن [كذا] مصدره كعب وليس الراهب.

ويروي النص السرياني للرؤيا خبراً آخر عن كعب فيؤكّد أن دوره ظهر وتنامى بعد وفاة الراهب فحرّف ما قاله هذا الأخير، وأكّد أن البارقليط الذي بشّر بمجيئه المسيح هو محمد. والنص السرياني، كما أشرنا ينفرد عن النص العربي بما ينسبه إلى كعب الأحبار من القول بقيامة رسول الإسلام من الموت بعد ثلاثة أيام من وفاته. والملاحظ هنا أن رسالة الكندي تروي خبراً مفاده أن أتباع الرسول محمد صلعم، اعتقدوا أن جثمانه سيرفع إلى السماء بعد ثلاثة أيام من وفاته، ولكن من دون أن تنسب هذا القول إلى كعب الأحبار[3].

ويخلص النص السرياني للرؤيا إلى أن كل العناصر التوراتيّة غير الدقيقة في القرآن تعود إلى كعب الأحبار في حين أن ما في كتاب

1- Landron, op. cit, p 71.
2- Ibid, p 75.
3 – الكندي م. س، فصل 2، فقرة وفاته والظن برفعه إلى السماء.

المسلمين من عناصر من الإنجيل يعود إلى الراهب سرجيس.

ولا بدّ أن نذكر هنا، أن الروايات الإسلاميّة عن كعب الأحبار تجمع هي أيضاً بين التاريخ والأسطورة، ولكنها لا تظهره إلاّ بعد وفاة الرسول. وأكثرها يؤكّد أنه أسلم على عهد عمر. وسبق وتوقفنا في الفصل الثاني (فقرة كعب والخليفة عمر) عند ما ذكرته المصادر الإسلاميّة مثل تاريخي الطبري وابن الأثير عن نبوءة كعب الأحبار بموت الخليفة عمر بن الخطّاب بعد ثلاثة أيام، وكذلك رواية طبقات ابن سعد عن مجيء كعب إلى باب الخليفة المطعون وقوله: والله لو أن أمير المؤمنين يقسم على الله أن يؤخّره لأخّره. وقد تكون هذه الروايات الإسلاميّة هي أصل ما روته المصادر المسيحيّة من خبر عن تنبوء كعب بقيامة الرسول من الموت بعد ثلاثة أيام من وفاته.

كعب الأحبار في تاريخ السعردي

تاريخ السعردي حوليات لمؤرّخ نسطوري من مدينة سعرد *Chronique de séert*. وقد دوّن بالعربيّة في منتصف القرن التاسع م. ويذكر هذا التاريخ عن كعب الأحبار خبراً لافتاً يقول:«وأوغر كعب الأحبار قلب أبي بكر رحمه الله على النصارى وقال إنهم يعاونون الفرس ويخرجون معهم إلى الحرب ويميلون إلى الحبوش لأنهم يأكلون لحم الخنزير مثلهم. فلم يلتفت إلى كلامه، ولا ارتجع بقوله، ولا قبل كذبه»[1].

يستوقفنا هذا الخبر ويدعونا للتفكّر مليّاً به. فهو أولاً بعيد عن طابع الأساطير التي لا تخلو منها روايات رسالة الكندي ورؤيا بحيرى، ولكنه يندرج في السياق العام لِلَّوْحَة التي ترسمها المصادر المسيحيّة لشخصيّة

1- Scher, Addaï, Histoire Nestorienne, chronique de Séert, Patrologia Orientalis XIII, Brepols. Belgique, 1983, p 619.

كعب: أي المحرّض على المسيحيين. فما مدى صحّة هذه الرواية وقربها أم بعدها عن الواقع التاريخي؟ لا نملك فيما أتيح لنا من مصادر حتى الآن ما يخوّلنا أن نصدر حكماً مبرماً على الرواية المذكورة تجريحاً أم تعديلاً. وممّا لا شك فيه أنها تقدّم حجة أخرى للقائلين إن كعب الأحبار أسلم في زمن حكم أبي بكر لا عمر. أما ما ينسبه إليه تاريخ السعردي من تحريض للخليفة على النصارى فأمر غير مستبعد، رغم صعوبة التحقق منه.

أيّاً يكُن فصورة كعب في المصادر المسيحيّة تبقى هي هي، أكانت هذه المظان كتب تاريخ أم جدل وحجاج: إنه العدو الأوّل للنصارى، وصاحب مشروع، بل مؤامرة يهوديّة في الإسلام.

كعب الأحبار في المصادر اللاتينيّة

كانت رسالة الكندي أبرز المصادر التي اعتمدها مفكّرو الغرب القروسطي ولاهوتيوه في حجاجهم وجدلهم مع الإسلام. وهو موضوع توسّعنا فيه في كتابنا السالف الذكر: رسالة الأكويني في الردّ على المسلمين. فلا عجب إذاً أن تظهّر هذه المصادر صورة لكعب مماثلة لما نجده في كتب مسيحيي الشرق. ومن بين المصادر اللاتينيّة التي تحدّثت عن كعب كتاب حوارات ضدّ اليهود لبطرس ألفونس *Pierre Alfonse* وقد ألّفه عام 1110[1]. ينقل ألفونس عن رسالة الكندي، ولكنه لا يكتفي بالنقل بل يزيد عليه من تخيّلاته وبنات أفكاره. فيقول إن نبي الإسلام محمد، صلعم، تعلّم على يد راهب مبتدع هرطوقي اسمه سرجيوس أدانه مجمع إنطاكيا. كما علّمه يهوديان هما عبديا *Abdia* أي عبدالله بن

---

1 - تناولنا هذا الكتاب بالبحث في مؤلفنا السابق الذكر "رسالة الأكويني في الردّ على المسلمين".

سلام وكعب الأحبار. لذا فالإسلام وعقيدته خليط من الحقيقة والبهتان، في حين أن طقوسه مزيج من الوثنيّة والشعائر اليهوديّة[1].

كعب بين المصادر المسيحيّة والأبحاث الإسلاميّة الحديثة

وختاماً تتفق المصادر المسيحيّة القروسطيّة شرقيّة كانت أم غربيّة على دور معيّن خطير تنسبه إلى كعب الأحبار وإن اختلفت في التفاصيل. فهو من مؤسّسي الدين الجديد بل من أبرزهم، والأثر اليهودي في القرآن والعقيدة الإسلاميّة يعود إليه بصورة أساسيّة. وبديهي القول إن هذا الزعم فيه الكثير من الخيال، ولكنه يبقى مؤشراً إلى حقيقة تاريخيّة ألا وهي دور كعب الأساسي في ما يسمّى الإسرائيليات في كتب التفسير والتاريخ وقصص الأنبياء. فهذه الأخيرة مدينة له بالكثير من الروايات ذات الأصل التوراتي أو التلمودي.

وهكذا فإذا كان العديد من الكتّاب المسلمين في الزمنَين الحديث والمعاصر قد شكّكوا في صحّة إسلام كعب ووجّهوا إليه العديد من التهم ليس أقلّها "تهويد" الإسلام وعقيدته وكتابه ومحاولة إفساد الدين الجديد وتحريفه من الداخل. فهذه التهم ليست بالأمر الجديد، فقد عرفت سابقة لها ونواة في المصادر المسيحيّة القروسطيّة التي ركّزت على دور مشبوه لكعب في تهويد الإسلام، أو حتى على مشروع يهودي هدف إلى محاربة المسيحيّة والقضاء عليها بدين جديد.

دوافع الكتّاب المسلمين المعاصرين والمسيحيين والقدماء مختلفة بل ومتناقضة. ولكن نتائج بحوثهم متقاربة: كعب شخصية خطيرة في الإسلام لعبت دوراً ملتبساً لا بل مشبوهاً في الدين الجديد نشأة وتطوّراً.

1- Tolan John, Les Sarrasins l'islam dans l'imagination européinne au Moyen Age, Traduction P. E. Daurat, Paris, Aubier, 2003, p 211.

الفصل السادس

مسلم بثوب حكيم تلمودي

مواضيع الفصل الخامس:

- يهود يثرب وأثرهم في الإسلام.
- كعب والتلمود (مسلم في ثوب تلمودي).
- بصمات الدعاية الصهيونيّة في دراسة بن زئيف.

الفصل الأخير هذا من دراستنا سنعرض فيه أمورًا متفرّقة من كتاب "كعب الأحبار" لأبي ذؤيب وندخلها في غربال النقد.

يهود يثرب وأثرهم في الإسلام

يعزو ولفنسون قبول أهل يثرب (المدينة) الإسلام، مقابل رفض أهل مكّة والطائف له الى اختلاط الأوّلين باليهود وعيش قبائل يهوديّة في يثرب. والتفسير نفسه ينسحب على وضع أهل اليَمَن. إذ كان قبولهم السريع للإسلام نتيجة لأثر العقليّة اليهوديّة فيهم. يقول الكاتب «وجد الإسلام أرضاً خصبة ونفوساً مستعدّة في كل مكان عاش فيه اليهود بالبلاد العربيّة. وقد لاحظنا هذه الظاهرة حين شرحنا سبب معارضة أهل مكّة أو الطائف لرسالة نبي الإسلام (...) في حين أن بطون يثرب دخلت دين الإسلام أفواجاً. وقد ذكرنا أنه كان هناك بون شاسع بين عقليّة القبائل القاطنة بالطائف ومكّة، وبين عقليّة يثرب (...) حيث كانت الثانية قد تهيّأت قلوب أفرادها لقبول دين سماوي بسبب وجودها على الدوام بين يهود..».

ولا نخال بن زئيف سوى مغالٍ بعض الشيء في تقدير هذا الأثر المزعوم. فأهل مكّة لم يكونوا بعيدين عن الاختلاط والاحتكاك بأهل الكتاب. وقد عاش الكثيرون منهم بينهم هذا من ناحية وقبول أهل يثرب السريع للإسلام يعود الى عوامل أخرى سياسيّة واقتصاديّة (تنافسهم مع أهل

مكّة..) بكان لها دورها الحاسم في احتضانهم للدين الناشئ ونبيّه، أكثر من عامل قربهم من اليهود. أياً يكن، فالمقولة هذه أساسيّة في فكر ولفنسون وتتكرّر في كتبه (تاريخ اليهود، كعب الأحبار...) وهي واحدة من المحاور الرئيسيّة التي قامت عليها الأيديولوجيا السياسيّة التي كان يروّج لها هو وعدد كبير من يهود مصر في العقود الأولى من القرن العشرين. ولنا عودة إلى هذه المسألة.

وما دمنا نتحدّث عن يهود المدينة، فأبو ذؤيب يؤكّد أن ذريّة هؤلاء حفظت أخبارهم وعليها اعتمد ابن إسحاق في تأريخ غزوات النبيّ لبني قينقاع والنضير وقريظة. يقول:«ومن المعلوم أن ذرّية مسلمة اليهود هي التي وفّرت الروايات والأخبار والأحاديث عن أسلاف اليهود بالمدينة لِمحمّد بن إسحاق صاحب السيرة النبويّة (...) وكانت هذه الأخبار من أهم المصادر التي يعوّل عليها في البحث في تاريخ يهود الحجاز...»، (ص129 - 130).

ولكن ما أغفل أبو ذؤيب ذكره، هو أن ابن إسحاق طُعن في رواياته ولم يأخذ عدد من أئِمّة الفقه بحديثه لهذا السبب. فقد قال عنه غريمه الإمام مالك صاحب الموطأ:«هذا دجّال من الدجاجلة يروي عن اليهود»[1]. في حين دافع عنه آخرون مبرّرين عمله بأنه «لم يروِ كذلك عنهم ليحتجّ به، وإنما فقط لمجرّد العِلم وإثبات ما سمع من روايات»[2]. وإشارة بن زئيف هذه إلى علاقة ابن إسحاق بمسلمة أهل المدينة، مهمّة. والموضوع يستحقّ مزيداً من البحث. فابن إسحاق رجع في السيرة إلى غير المسلمين في

1 - زقزوق، د. محمود (إشراف)، موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ط1، 2004، ص 88.

2 - م. ن.

الأخبار عن الحوادث اليهوديّة والمسيحيّة والفارسيّة[1]. فذكر من بين رواته «بعض أهل العِلم من أهل الكتاب الأوّل» (اليهود) أو "أهل التوراة". أو «مَنْ يسوق الحديث عن العجم». ويبدو أنه الوحيد بين عُلماء المدينة الذي ذكر أخبار اليهود والنصارى وأقوال ذرّيتهم. وقد عيب عليه ذلك لاحقاً. في حين أن وهب بن منبّه (34 – 114 هـ) اليهوديّ الأصل، والذي يترجم له ولفنسون في التمهيد، قد أخذ في كتبه مثل هذه الأخبار عن جنوب شبه جزيرة العرب دون أي تحرّج. وقد رَوى ابن إسحاق عنه[2].

وابن إسحاق هو أوّل مؤلّف عربي يقدّم لنا فقرات من العهدَين: القديم والجديد، مترجمة حرفياً. وتكشف بعض قوائم النسب عن اتفاق شديد مع نصّ الكتاب المقدّس (قائمة أبناء إسماعيل تتفق مع ما جاء في سِفْر التكوين 13/25 – 16 كلمة كلمة)[3]. لذا فمصادر ابن إسحاق اليهوديّة، والنصرانيّة كذلك، جديرة بكل اهتمام، وتستحقّ مزيداً من البحث.

وما قاله أبو ذؤيب عن ابن إسحاق وأخذه عن مسلمة يهود المدينة كرّره عن الواقدي (130 – 207 هـ) ومغازيه. ولكن ما قيل في ابن إسحاق لا ينسحب تماماً على الواقدي. فالأخير لم يُنسب إليه ما نُسب إلى الأوّل. والقضيّة هنا تحتاج إلى مزيد من التدقيق وتفحّص النصوص. ومسألة اتصال الواقدي بذرّية مسلمة يهود المدينة وجمعه الأخبار والروايات منهم لكتابه في المغازي التي يزعمها بن زئيف من دون أن يعطي أي دليل عليها، تنقصها البيّنة، ولا يفصل الخطاب فيها بحكم تعميمي وكلام مرسل كهذا.

---

1 – دائرة المعارف الإسلاميّة، مقالة بروك عن ابن إسحاق، ج1، ص 89.

2 – زقزوق، م.س، ص 88.

3 – م. ن.

كعب والتلمود (مسلم في ثوب تلمودي)

سبق وذكرنا أن ولفنسون يُلبس كعب الأحبار عباءة حكيم تلمودي. فقد تحدّث مثلاً عن طريقة النقاش التلمودي التي تغلّبت على كعب في محاوراته (الباب الأوّل/الفصل الأوّل). وقد تعقّب بن زئيف مصادر العديد من روايات كعب ووجد أصولاً لها في التلمود وسائر المصادر اليهوديّة. وهو لم يجانب الحقيقة في ذلك. ولكن ولفنسون يتوقّف عند عدد من روايات كعب التي لم يجد أصولاً لها في تلك المصادر ويحاول أن يجد تفسيراً لهذه الظاهرة، ومن هذه الروايات ما قصّه عن أبي موسى الأشعري بشأن صفوف أهل الجنة (الباب الثاني/الفصل الأوّل). يقول الكاتب عنها: «كذلك بحثنا في المصادر اليهوديّة ومراجعها علّنا نجد أصل هذه الرواية، فلم نعثر لها على أثر. فيظهر أنها من القصص التي كانت شائعة عند يهود بلاد العرب، تتردّد على الألسُن، ويتلقّاها فريق من أفواه فريق آخر من دون أن يكون لها أصل مدوّن.. وهذا هو السرّ في نسيانها، بعد أن تلاشت الطوائف اليهوديّة في أغلب بلاد العرب.»

وفرضيّة التقاليد الشفويّة اليهوديّة هذه عاد إليها أبو ذؤيب (الباب الثاني/الفصل العاشر) فأفتى في علاقة كعب بها: «لقد ذكرنا أن هناك قصصاً دينية كثيرة، كانت شائعة بين جميع يهود المعمورة، تتداولها الألسُن، ويتناقلها الخَلَف عن السَلَف، من دون أن تكون مدوّنة في مصنّف، أو مثبّتة في كتاب. ولا شك أن يهود بلاد العرب، كان لديهم من هذه القصص مثل ما كان لدى غيرهم، وكان كعب أحد أعلام اليهود في بلاد اليَمَن، قبل اعتناقه الإسلام. فهو بلا شكّ عارف بهذه القصص، واقف على دقائقها وتفاصيلها. وقد قصّ منها، ما شاء أن

يقصّ، بعد أن اعتنق الإسلام، فأثبتت في المراجع الإسلاميّة، ولم تثبت في المراجع اليهوديّة، بل ضاعت هناك مع ضياع المراكز الدينيّة اليهوديّة في بلاد العرب».

ولا شكّ أن فرضيّة بن زئيف هذه منطقيّة وجديرة بالقبول. وهي تنبّه إلى أهميّة تفحّص التراث الإسلامي وفرز ما فيه من مؤثّرات وروايات يهوديّة وجمعها من أجل فهم أعمق للتراث العبري ودراسة التفاعل بين التراثين الإبراهيميين.

وطبيعي أن يكون التفاعل قد أثّر في الجانبَين. فكما أدخل كعب الأثر اليهودي في الحديث والتفسير، عاد بدوره وأثّر في الأدب الديني اليهودي ولا سيما في القصص الشعبي (قصص الأنبياء). وحصل هذا الأثر بفعل الاحتكاك والتثاقف بين المجموعات الدينيّة المتنوّعة في الدول الإسلاميّة. وقد خصّص ولفنسون الفصل الأخير لعرض هذه الظاهرة ودراستها، ومساهمته هذه في تناول الأثر العكسي لكعب على المدوّنات الدينيّة العبريّة اللاحقة قيّمة. وتصلح بداية بحث لهذا الموضوع الشيّق في إطار الآداب والأديان المقارنة.

وتستوقفنا رواية ابن امرأة كعب نوف البكالي عن كعب بشأن الخضر وقصّته مع موسى. نوف رأى أن موسى صاحب بني إسرائيل ليس موسى صاحب الخضر المذكور في القرآن (الكهف 18/64 – 82). بل إن هذا الأخير هو موسى بن منشا بن يوسف الصدّيق. وقد أصرّ نوف على رأيه رغم تكذيب كبار الصحابة كابن عبّاس له.

وكانت لنا نحن وقفة مع قصّة الخضر وموسى في القرآن رأينا فيها إشارات مهمّة إلى تقاليد وتيارات يهوديّة اختفت واندثرت وأرّخ لها

القرآن[1]، مما لا يتعلّق ذكره بموضوعنا هنا.

ولكن المهمّ أن مقولة نوف هذه تذكّر بمسألة الذبيح والجدل بشأنها. فهي مثل آخر على تدخّل العصبيّة في النصّ المقدّس وتأويله. عصبيّة العرب دفعت الكثيرين بعد القرن الهجري الأوّل إلى القول إن الذبيح إسماعيل. وبالتالي إحداث تأويل جديد لنص سورة الصافّات وقصّة تضحية إبراهيم ومناسك الحج. ونلمح عند نوف عَصبيّة مناقضة، فهو، شأنه شأن عمّه كعب، لم ينسَ يهوديّته بعد أن دخل في الإسلام. فلم يُطِق أن يكون لِموسى عظيم أنبياء اليهود وكبيرهم معلّماً يفوقه معرفة وعلماً لدُنياً. فاخترع هذا التأويل، أو نقله عن عمّه كعب، كما تقول بعض المصادر، ليزيل عن موسى الكليم هذه الشبهة أو ما اعتبره ينتقص من قدره ومقامه بين الأنبياء.

بصمات الدعاية الصهيونية في دراسة بن زئيف

وتلفتنا أخيراً وقفة ولفنسون المطوّلة أمام رواية الطبري والمؤرّخ المسيحي ابن العبري (ت 685 هـ) بشأن منع اليهود من سكنى القدس إثر فتحها. فهو يتوسّع في نقدها ودحضها، مع أنها لا تمتّ إلى موضوع كتابه بصلة. ونحن هنا لن ندخل في تفاصيل ما أورد من حجج تحاشياً لخطأ منهجي وقع هو فيه ونكتفي بالقول إنّ حشر هذه المسألة في أطروحة بعيدة عن موضوعها أمرٌ واضح الأهداف. إنها دوافع الدعاية والترويج التي لا تغيب حتى عن بحث جامعي رصين كدراسة أبي ذؤيب

1 - صليبا، د. لويس، الصمت في اليهوديّة تقاليده في التوراة والتلمود وعند النبي إيليا والحسيديم، تقديم إميل عقيقي، سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة3، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط 1، 2009، ص 193 - 198.

هذه. فهو يريد أن يؤكّد أن الوجود اليهودي في القدس بقي متواصلاً وفاعلاً عبر الأزمنة. ولم ينقطع في زمن أو بفعل اضطهاد أو قرار. فهذه المقولة ضروريّة للترويج لحقّ اليهود في سكنى القدس والهجرة إليها. وهو ما كانت تعمل له الجمعيّات اليهوديّة والصهيونيّة في مصر وسائر أرجاء العالَم في الفترة التي كتب فيها أبو ذؤيب أطروحته هذه. والكاتب لم يكُن بعيداً عن هذا الجوّ، ولا عن الجمعيّات المذكورة وقد سبقت الإشارة إلى هذا الأمر.

وهذه الملاحظة تقودنا إلى أن نختم بكلمة تقييميّة عامّة لكتاب ولفنسون في كعب الأحبار. إنه عمل جامعي جدّي وموثّق. وفيه مجهود مشكور ومميّز في العودة إلى المصادر والأصول واستقرائها. ولكنه ليس بريئاً ولا خالياً من غايات وخلفيات إيديولوجيّة تقود أحياناً البحث وتوجّهه. فهذا التركيز على نزعة الوفاق بين الإسلام واليهوديّة وإمكانيّة الجمع بينهما، كما جمعهما كعب في شخصه، فكان "يهوديّاً من المهد إلى اللحد" وفق تعبير الكاتب، رغم أنه دخل في الإسلام، النزعة التوفيقيّة هذه هي ما كان يروّج لها يهود بلاد العرب في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. ولكنها، كما يبدو، لم تكُن سوى أيديولوجيا أو فكرة مرحليّة في سبيل الوطن القومي اليهودي الذي تجسّد بقيام دولة إسرائيل.



إبراهيم مضحّياً بابنه، لوحة إسلاميّة في مخطوط عربي يعود إلى القرن 18 م

مكتبة البحث

مراجع الدراسة/المدخل

1- ابن الأثير، الإمام عز الدين علي بن محمد (ت 630 هـ)، الكامل في التاريخ المعروف بتاريخ ابن الأثير، تحقيق أبو صُهيب الكرمي، عمّان، بيت الأفكار الدوليّة، لات، 2000 ص.

2- ابن الأثير، الإمام علي بن محمد (ت630 هـ)، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، ج5.

3- ابن القيّم الجوزية، الإمام محمد بن أبي بكر (ت 751 هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت، دار ابن حزم، ط2، 2005، 1213 ص.

4- ابن حجر العسقلاني (ت 852 هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ط1، 2004، 2144 ص.

5- ابن خلدون، عبد الرحمن (ت808 هـ)، تاريخ العلاّمة ابن خلدون المعروف بكتاب العِبَر، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1956، ج2، 1311 ص.

6- ابن سعد (ت 230 هـ)، الطبقات الكبرى، تقديم إحسان عبّاس، بيروت، دار صادر، ط2، 1998، ج1، 511 ص.

7- ابن عبد ربّه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت 328 هـ)، كتاب العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين، بيروت، دار الكتاب العربي، 1983، ج2، 583 ص.

8- ابن عربي، الشيخ الأكبر محيي الدين (ت 638 هـ)، فصوص الحكم والتعليقات عليه، تحقيق وتعليق أبو العُلا عفيفي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1946، 228 + 374 ص.

9- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (ت276 هـ)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة، ط1، 1960.

10- ابن كثير، الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير (ت 774 هـ)، تفسير القرآن العظيم، تقديم يوسف المرعشلي، بيروت، دار المعرفة، ط2، 2004، 1771 ص.

11- أبو الغار، د. محمد، المحذوف من تاريخ يهود مصر، القاهرة، دار الهلال، ط1، 2008.
12- أبو ريّه، محمود، أضواء على السنّة المحمّدية أو دفاع عن الحديث، تقديم طه حسين، إيران، مؤسسة أنصاريان، ط3، 2004، 444ص.
13- الأصفهاني، أبو الفرج (ت 356هـ)، كتاب الأغاني، دار إحياء التراث العربي، ط1، د. ت، ج15، 268 ص.
14- إلياس، د. خليل إسماعيل، كعب الأحبار وأثره في التفسير، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط1، 2007، 392 ص.
15- أمين، أحمد، فجر الإسلام، بحث في الحياة العقليّة في صدر الإسلام الى آخر الدولة الأمويّة، بيروت، دار الكتاب العربي، ط 10، 1969، 333ص.
16- البستاني، فؤاد إفرام، دائرة المعارف قاموس عام لكل فنّ ومطلب، بيروت، 1977، ج12، 398 ص.
17- بن زئيف، إسرائيل (أبو ذؤيب ولفنسون)، كعب الأحبار، تقديم محمود عبّاسي، القدس، مطبعة الشرق التعاونيّة، ط1، 1976.
18- البهنساوي، أحمد، مقالة عن كتاب "يهود ولكن مصريون"، القاهرة، مجلّة ولاد البلد، 2008/02/02.
19- البيضاوي، القاضي عبد الله بن عمر (ت 791 هـ)، تفسير البيضاوي المسمّى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق مجدي فتحي السيد، القاهرة، المكتبة التوفيقيّة، لات، ج2، 736 ص.
20- التوحيدي، أبو حيان(ت 400هـ)، كتاب الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د. ط، د. ت، 3 أجزاء.
21- الجابي، بسّام عبد الوهّاب، معجم الأعلام، معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين، ليماسول/قبرص، الجفّان والجابي، ط1، 1987، 2008 ص.
22- الجاحظ، أبو عثمان بن بحر (ت 255 هـ)، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1965، ج1، 427 ص.

23- جلال الدين المحلّي (ت 864 هـ) وجلال الدين السيوطي، تفسير الجلالين، تحقيق محمد عرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1995، 631 ص.

24- جولدتسيهر، أجنتس، العقيدة الشريعة في الإسلام، تاريخ التطوّر العقدي والتشريعي في الديانة الإسلاميّة، ترجمة محمد يوسف موسى، القاهرة، دار الكتاب المصري، 1946، 388 ص.

25- جولدتسيهر، المستشرق أجنتس، مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبدالحليم النجار، تقديم عبدالرحمن بدوي، باريس، دار بيبليون، ط جديدة، 2010، 416 + 33 ص.

26- الحزَيمي، ناصر، حرق الكتب في التراث العربي، كولونيا/ألمانيا، منشورات الجمل، ط1، 2003، 144ص.

27- حسين، طه، في الشِعر الجاهلي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصريّة، ط1، 1926.

28- الحفني، عبدالمنعم، موسوعة فلاسفة ومتصوّفة اليهوديّة، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1994، 264 ص.

29- الحلو، وضّاح يوسف، كتاب ولفنسون المعاد إصداره، مقالة في جريدة النهار، عدد 3 أيلول 2004.

30- دائرة المعارف الإسلاميّة، ترجمة أحمد الشنتاوي وغيره، القاهرة، وزارة المعارف، ط1، 1933، ج1، 687 ص.

31- الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت 748 هـ)، سِيَر أعلام النُبَلاء، تحقيق حسّان بن عبد المنّان، عمّان، بيت الأفكار الدوليّة، ط1، 2004، ج2، 3132 ص.

32- الزغبي، د. فتحي محمد، قصّة الذبيح عند أهل الكتاب والمسلمين، القاهرة، دار البشير، ط1، 1994، 227 ص.

33- زقزوق، د. محمود (إشراف)، موسوعة أعلام الفكر الإسلامي، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، ط1، 2004، 1211ص.

34- الزمخشري، الإمام أبو القاسم جار الله (ت 538 هـ)، تفسير الكشّاف، تحقيق خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة، ط2، 2005، 1236 ص.

35- السعفي، وحيد، القربان في الجاهليّة والإسلام، تونس، تبر الزمان، ط1، 2007، 256ص.
36- السهيلي، عبد الرحمن (ت 581 هـ)، التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام، تحقيق عبد الله النقراط، طرابلس الغرب، كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 1992، 462 ص.
37- الشوكاني، الإمام محمد بن علي (ت 1250 هـ)، فتح القدير بين فني الرواية والدراية من عِلم التفسير، بيروت، دار الفكر، ط1، 1983، ج4.
38- صليبا، د. لويس، الصمت في اليهوديّة تقاليده في التوراة والتلمود وعند النبي إيليا والحسيديم، تقديم إميل عقيقي، سلسلة الصمت في التصوّف والأديان المقارنة 3، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط 1، 2009، 350 ص.
39- صليبا، د. لويس، المعراج من منظور الأديان المقارنة، دراسة لمصادره السابقة للإسلام ولأبحاث المستشرقين فيه، تقديم د. جوزف قزي، سلسلة المعراج/النص والواقع والخيال 4، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط 2، 2009، 408 ص.
40- صليبا، د. لويس، رسالة الأكويني في الردّ على المسلمين، دراسة تحقيق وتعليق، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2001.
41- صليبا، د. لويس، كتاب قتل كاتبه، دراسة تعليق وتحقيق لِ تنقيح الأبحاث للملل الثلاث لابن كمّونة (ت 683 هـ)، سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة 12، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2009، 582ص.
42- صليبا، د. لويس، من تاريخ الصهيونيّة في أرض الإسلام، دراسة لجذورها في المشرق وتلفيقاتها لتاريخه، سلسلة اليهوديّة بأقلام يهوديّة 8، جبيل/لبنان، دار ومكتبة بيبليون، ط1، 2007، 319ص.
43- الطبري، محمد بن جرير (ت 310 هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق صدقي العطّار، بيروت، دار الفكر، 2005، ج22، مجلد 12.

44- الطبري، محمد بن جرير (ت 310 هـ)، قصص الأنبياء من تاريخ الطبري، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الفكر، ط1، 2002، 464 ص.

45- عبد العال، علي، طه حسين وسقوط القناع الزائف، مقالة على موقع الركن الأخضر، 2006/03/03.

46- العسقلاني، الحافظ علي بن حجر(773 - 852 هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق حسان عبدالمنان، الأردن، بيت الأفكار الدولية، ط1، 2004، 1932 ص.

47- العسكري، مرتضى، مع رجال الفكر في القاهرة، القاهرة، ط1، 1974.

48- العقيقي، نجيب، المستشرقون، موسوعة في تراث العرب مع تراجم المستشرقين ودراساتهم عنه منذ ألف عام حتى اليوم، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1965، ج1، وج2، 869ص.

49- الفخر الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر (ت 606 هـ)، التفسير الكبير، بيروت، دار إحياء التراث، ط3، ج26، 296 ص.

50- الفراهي، الإمام عبد الحميد، الرأي الصحيح في مَن هو الذبيح، دمشق، دار القلم، ط1، 1999، 164 ص.

51- الفرزدق، همّام بن غالب (ت 110 هـ)، ديوان الفرزدق شرحه علي فاعور، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط1، 1987، 668 ص.

52- الفغالي بولس وعوكر أنطوان، العهد القديم العبري، ترجمة بين السطور، عبري – عربي، بيروت، الجامعة الأنطونيّة، ط1، 2007، 1373 ص.

53- القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 671 هـ)، الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 2004، جزئين، 3415 ص.

54- كرد علي، محمد، مراجعة كتاب تاريخ اليهود في بلاد العرب، مجلّة المجمع العلمي بدمشق، مجلّد 7، ص 569.

55- الكندي، عبدالمسيح، والهاشمي عبدالله، رسالتان في الحوار والجدل بين المسيحية والإسلام في عهد الخليفة المأمون (813 - 834م)، تحقيق المستشرق جورج ترتار، باريس، 2005.
56- مخول، موسى، يوحنّا الدمشقي، ضمن السريان نقلة حضارات، بيروت مركز الدراسات والأبحاث المشرقيّة، ط1، 2005، ص 83 - 120.
57- المركز الفلسطيني للإعلام، ذاكرة أيام مايو، 2008.
58- المسعودي (ت 346 هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بللا، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانية، ط1، 1965، 328 ص.
59- مُقاتل بن سليمان (80 - 150 هـ)، تفسير مقاتل بن سليمان، دراسة وتحقيق د. عبد الله شحاته، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 2002، 5 أجزاء.
60- المقدسي، الشيخ، مَن الذبيح إسماعيل أم إسحاق؟ مقالة على موقع انترنت.
61- نصّار، سهام، اليهود المصريّون، صحفهم ومجلاّتهم (1877 - 1950) تقديم خليل صابات، القاهرة، العربي للطباعة والنشر، ط1، 1980، 168 ص.
62- ولفنسون، إسرائيل، تاريخ اللغات السامية، بيروت، دار القلم.
63- ولفنسون، إسرائيل، موسى بن مَيْمُونْ، حياته ومصنّفاته، القاهرة، لجنة التأليف، 1936، ط جديدة، دار ومكتبة بيبليون 2006.
64- اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر البغدادي، (ت نحو 292 هـ)، تاريخ اليعقوبي، تعليق خليل المنصور، قم المقدسة/إيران، مطبعة شريعة، ط2 1425 هـق 235 + 364 ص.

Bibliographie

65- Blachère, Régis, le Coran, traduit de l'arabe, Paris, Maisonneuve & Larose, 1966, 749 p.

66- Dagorn, René, La geste d'Ismaël d'après l'onomastique et la tradition arabes, Préface de Maxime Rodinson, Genève, Librairie Droz, 1981, 427 p.

67- Ducellier, Alain, Le miroir de l'Islam musulmans et chrétiens d'Orient au moyen Âge, Paris, Julliard, 1971, 309p.

68- Goudefroy-Demombynes, Maurice, Mahomet, Paris, Albin Michel, 1969, 698 p.

69- Hayek, Michel, Le mystère d'Ismaël, Paris, Mame, 1964, 300p.

70- Jean Damascène, écrits sur l'Islam, Présentation et traduction par Raymond Le Coz, Paris, Cerf, 1992, 272p.

71- Kikano, A.B., Table de Concordance des anneés Hégiriennes et Chrétiennes, Beyrouth, Dar El- Machreq, 2ème edition, 1992, 13p.

72- Landron, Bénédicte, Chretiens et musulmans en Irak, Attitudes Néstoriennes vis à vis de l'Islam, Paris, Cariscript, 1994, 343 p.

73- Le Saint Coran et la traduction du sens de ses versets, Arabie Saoudite, Complexe du roi Fahd, 1410 h, 604p.

74- Lory, Pierre, Article Issac et Ismaël in Dictionnaire du Coran, Paris, Robert Laffont, 2007, p. 427 – 428.

75- Moubarac, Y. Abraham dans le Coran l'histoire d'Abraham dans le Coran et la naissance de l'Islam, liminaire de Louis Massignon, Paris, J. Vrin, 1957, 205 p.

76- Scher, Addaï, Histoire Nestorienne, chronique de Séert, Patrologia Orientalis XIII, Brepols, Belgique, 1983.

77- Snir, Rewen, we are arabs before we are Jews: the emergence and denise of Arab Jewish culture in modern times, EJOS, VIII, No 9, 2005.

78- Tolan John, Les Sarrasins l'islam dans l'imagination européinne au Moyen Âge, Traduction de Pierre – Emmanuel Dauzat, Paris, Aubier, 2003, 473 p.



مشهد من وقعة صفّين بين علي ومعاوية. منمنمة من مخطوطة عربية/القرن 12م

القسم الثاني من الكتاب

كعب الأحبار

وضعه بالألمانية ونقله إلى العربية

د. إسرائيل بن زئيف

المعروف سابقاً بـ ولفنسون والملقب بـ أبي ذؤيب

نشره ونقّح الترجمة وراجعها

د. لويس صليبا

כעב אלאחבאר

(יהודים ויהדות במסורת האיסלמית)

מאת

ד"ר ישראל בן זאב (אבו ד'ואיב)

הביא לדפוס

מחמוד עבאסי

DR. ISRAEL BEN ZEEV (ABU ZUAIB)

KA'AB AL AHBAR

Jews and Judaism in the Islamic Tradition



تمهيد

تُراث مَسْلَمةِ يَهوُد الجزيرَةِ العَرَبيةِ في أَدَبِ الروَايَةِ الإسلاميَّة

مواضيع التمهيد:

1- عبد الله بن سلام صحابي أُنزل فيه قرآن.

2- ابن إسحاق والواقدي ينقلان عن ذريّة اليهود.

3- محمد القرظي صديق عمر الثاني.

4- عبد الله بن سبأ ركن الباطنية.

5- وهب بن منبّه أقدم المؤرّخين في الإسلام.

6- أصل الإسرائيليات في المصادر الإسلاميّة.

يشعر الباحث في العلوم الدينية الإسلاميّة بشيء غير قليل من الغموض، يحيط بتطوّر الثقافة الإسلاميّة وتاريخ نشأتها في العصور الإسلاميّة الأولى، ويدرك أن سبب ذلك عائد إلى عدم وجود مصنّفات مستفيضة حديثة عن حياة رجال الحديث وأصحاب الأسانيد من الصحابة والتابعين.

ومن العجيب أنه، مع فرط العناية بعلوم الدين، في جميع الأندية الإسلاميّة، لم يدوّن كتاب واحد في سيرة حياة رجال الرواية، أمثال عبدالله بن عباس وأبي هريرة وكعب الأحبار وغيرهم. مع أن دراسة دقيقة والوقوف على جميع العوامل التي أثّرت فيهم، هي أقوم طريق وأفضل وسيلة للإحاطة بتاريخ نشأة الثقافة الإسلاميّة القديمة.

وقد فكّرت في أن أمهّد لبحثي المفصّل المخصّص لحياة كعب الأحبار، وهو أعظم رجل يهودي اعتنق الإسلام في عصر الخُلفاء الراشدين، بكلمة عامّة عن فريق من المحدّثين يمتّ بصلة إلى اليهود الذين أسلموا في مستهل القرن الأوّل للهجرة.

عبد الله بن سلاّم صحابي أُنزل فيه قرآن

وأقدم هؤلاء اليهود هو عبد الله بن سلام، وكان صديقاً مخلصاً للرسول منذ وصوله إلى يثرب[1] وكان من أتقى الصحابة في

1- سيرة رسول الله، لمحمد بن إسحاق، رواية عبد الله بن هشام، طبع وستنفلد بمدينة جوطا بألمانيا سنة 60 – 1856، ج2. ص 325 هـ.

المدينة[1]، وإليه نسبت جملة أحاديث وردت عند أحمد بن حنبل[2] ومالك بن أنس والترمذي[3] وغيرهم. كذلك نسب إليه كتاب قديم منذ الفترة الهجريّة الأولى عُرف باسم **"أسئلة عرضها عبد الله بن سلام على النبي"** ولما وجد هذا المصنف رواجاً عظيماً في الأقطار الإسلاميّة تنافس في شأنه المتنافسون من المؤلّفين وضمّوا إليه معلومات شتّى إلى أن عُرف بكتاب **"الأسئلة الألف"**[4]. وكذلك عثرنا بدار الكتب المصريّة بالقاهرة على رسالة صغيرة نسبت إلى عبد الله ابن سلام، تُعرف باسم **"كتاب في عظمة الله"**[5]. وهي بلا شك من الرسائل المنحولة في عصور إسلاميّة متأخّرة وهي مدسوسة عليه. وكانت وفاة عبد الله بن سلام بالمدينة في سنة ثلاث وأربعين للهجرة. أما ابنه أحمد الذي عمّر طويلاً وعاش في العراق واتصل في شيخوخته بالخليفة هارون الرشيد، فكان قد أشاد بفضل والده وحافظ على أخباره وأبلغها إلى الرُواة والقصّاص. وقد ترجم التوراة والإنجيل وكتاب الأنبياء من العبرانيّة

1- من مظاهر محبّة الرسول لعبد الله بن سلام ما يُقال من أن بعض الآيات القرآنية قد نزلت فيه مثل ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ﴾ (سورة الأحقاف 10) قالوا: اسمه عبد الله بن سلام أو ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾،(سورة الرعد 43). الطبقات الكبرى، لابن سعد، ليدن ثمانية أجزاء، ج2. قسم ثانٍ ص 111. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني طبع كلكته بالهند، ج 4، ص 81.

2- مسند أحمد بن حنبل، ج5، ص 452.

3- إسعاف المبطا برجال الموطأ لجلال الدين السيوطي، طبع مصر، سنة 1343، ص 198. صحيح الترمذي، طبع التازي مصر، ج13، ص 211.

4 –G.F. Pipper: HEt Boek der Duizend vragen. Leiden 1924.

5- فهرس الكتب العربيّة بدار الكتب المصرية، ج7، قسم 2، ص 443.

واليونانيّة والصابية إلى العربيّة[1].

إبن اسحاق والواقدي ينقلان عن ذريّة اليهود

أما بقيّة مسلمة اليهود بالمدينة، بعد إجلاء بني النضير وقتل بني قريظة، فهما يامين بن عمير، وأبو سعد بن وهب، وكانا من بني النضير[2]. وثعلبة بن سعية وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد وكانوا من بني هدل. وعمرو بن سعدى من بني قريظة[3]. وقد ذكر ابن سعد[4] وابن الأثير[5] رجلَين آخرين وهما ابن يامين وثعلبة بن قيس من دون أن يعيّنا قبيلتهما.

ولم يكُن لجميع المذكورين من مسلمة بني النضير وقريظة شهرة بالمدينة، ولم يأتِ لهم ذكر في الحوادث السياسية والاجتماعية أو الدينية الإسلاميّة، كما أن الروايات المنقولة عنهم قليلة جداً، وإنْ هم لم يكتسبوا مكانة خاصّة بين مسلمي المدينة، فإن ذرّيتهم قد حافظت على أخبار اليهود في الجاهلية في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء، وقد كانوا ملمّين بأيام اليهود في الديار العربيّة وأخبار النزاع والحروب بين بني قينقاع والنضير وقريظة من جانب، وبين المسلمين من جانب آخر في عهد الرسول وما جرى لهم في عهد الخُلفاء الراشدين.

1- فهرست ابن النديم، طبع مصر، ص 33.

2- ابن هشام، ص 656.

3- ابن هشام، ص 387، وص 687.

4- الطبقات الكبرى لابن سعد. ج2، قسم 2، ص 112.

5- ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، القاهرة، سنة 1480، ج3، ص 413.

.413

ومن المعلوم، أن ذريّة مسلمة اليهود هي التي وفّرت الروايات والأخبار والأحاديث عن أسلاف اليهود بالمدينة، لمحمد بن إسحاق صاحب السيرة النبويّة، في النصف الأوّل من القرن الثاني للهجرة. وكانت هذه الأخبار من أهم المصادر، التي يعوّل عليها في البحث في تاريخ حياة يهود الحجاز في الجاهلية وصدر الإسلام(1).

وكذلك كان حال محمد بن عمر الواقدي، المتوفّى سنة 207 للهجرة(2) الذي اتصل بذرّية مسلمة يهود المدينة وجمع منهم الأخبار والروايات لكتابه في المغازي.

وكذلك كان حال أسرة الشاعر السموأل بن عادياء صاحب حصن الأبلق الفرد بتيماء التي أسلم بعض أفرادها واسْتَوْطَنُوا العراق، فكانوا هم الذين حافظوا على شعر السموأل، ونشروا أخبار مجده، وتغنّوا بشرفه وفضله، في حفر الآبار وبناء الحصون(3). وتُعدّ أم المؤمنين صفيّة بنت حيي بن أخطب، من مسلمة يهود المدينة، وكان النبي قد اصطفاها لنفسه بعد يوم خيبر، وأصبحت من أزواجه ومن أمهات المؤمنين(4). وقد نسب إليها بعض الأحاديث، وهي أسئلة عرضتها عليها نسوَة من أهل الكوفة سألن

1- قال ابن إسحاق: وكان من حديث عبد الله بن سلام كما حدّثني بعض أهله (ابن هشام ص 353). وقد حدّثني بعض آل يمين عن عبد الملك بن عمير عن عطية القرظي، (ابن هشام ص 692).

2- كتاب في المغازي للواقدي طبع لأول مرّة في كلكتا بالهند سنة 1856، طبع العالم كريمر، ص 278.

3- الأغاني، لأبي فرج الأصبهاني، طبع بولاق، 1285، ج19، ص 98: "وحكى عبد الله بن أبي سعد عن دارم بن عقال وهو من ولد السموأل".

4- ابن هشام، ص 758، وص 763، الواقدي: ص 278، ابن سعد، ج8، ص 91، أسد الغابة ج5، ص 490.

عن أشياء من أمر المرأة وزوجها، ومن أمر الحَيض، وعن نبيذ الجر[1]. وقد زارت بيت المقدس بعد الفتح العمري، فصلّت فيه، وصعدت على "طور زيتا". فصلّت وقامت على طرف الجبل فقالت: **"من ها هنا يتفرّق الناس يوم القيامة إلى الجنة وإلى النار"**[2].

محمد القرظي صديق عمر الثاني

وأعظم رجل نبت في ذريّة مسلمة يهود المدينة، إنما هو أبو حمزة محمد بن كعب القرظي، المولود سنة 44 للهجرة، فقد كان من رجالات المدينة الممتازين. في النصف الثاني من القرن الأوّل للهجرة. وكان من تلاميذ عبد الله بن عباس. وقد نقل عنه أقدم الجامعين للأحاديث النبوية وأخبار يثرب – المدينة مثل محمد بن اسحاق والواقدي والقاضي عبد الله بن وهب المصري والطبري والبخاري وغيرهم من أئمّة الرواية والحديث. وكان محمد بن إسحاق متّصلاً به اتّصالاً شخصياً[3]. وكان والده كعب ممَّن لم ينبت يوم قريظة فترك[4]، وكان محمد بن كعب عالماً فاضلاً غير مدفوع، وكان كثير الرواية[5]. واعتبر من أفضل أهل المدينة علماً

1- مسند أحمد بن حنبل، ج6، ص 337.

2- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تأليف القاضي مجير الدين الحنبلي، طبع مصر، سنة 1283 هـ، ج1، ص 236.

3- طبري، تاريخ: ج1، ص 229: «قال محمد بن إسحاق سمعت محمد بن كعب القرظي يقول ذلك كثيرا».

4- تراجم رجال الرواية، تأليف محمد بن إسحاق، طبع أ. فيشر، ليدن سنة 1890. ص 61.

5- طبري، تاريخ، ج3، ص 2496، تراجم، ص 60.

وفقهاً. وكان يقصّ في المساجد[1] ويشهد ابن إسحاق أنه لم يرَ أعلم بتأويل القرآن من القرظي[2]، وتوفّي في سنة 108 للهجرة[3]. أما ابن إسحاق والنووي فإنهما يؤخّران وفاته إلى سنة 117 أو 120 للهجرة[4].

وكان محمد بن كعب القرظي من أقرب المقرّبين إلى عمر بن عبد العزيز خليفة بني أميّة. وكان يأتي لزيارة الخليفة في دمشق[5]، كما كان يبعث برسائله إليه من المدينة. فكان الخليفة يرسل إليه جوابه من مقرّ ملكه[6].

وكذلك نذكر رجلين آخرين من مسلمة اليهود من غير أهل المدينة هما عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء والإمام وهب بن منبه.

1- تراجم، ص 61، نووي، تهذيب الأسماء، ص 114، طبع جوتينجن سنة 1843.
2- تراجم 60، وقد ذكر له أحمد بن محمد الثلبي كتاباً في تفسير القرآن (مخطوط للثعلبي في تفسير القرآن بدار الكتب ببرلين ص7).
3- طبري، تاريخ: ج 3، ص 2469.
4- تراجم، ص 62، نووي، تهذيب الأسماء، 114.
5- طبقات ابن سعد، ج 5، ص 272 - 273.
6- الجامع في الحديث، للإمام عبد الله بن وهب المصري، كتاب مخطوط بدار الكتب المصريّة بالقاهرة ص 47. كان القدماء قد عرفوا هذا الكتاب ونقلوا عنه واعتمدوا عليه، ثم ضاع. وأصبح اسم مؤلّفه الذي توفي سنة سبع وتسعين ومائة منسياً إلى أن ظهر كتاب مخطوط منه على ورق البردي في مدينة أدفو بمصر، وهو أكبر وأقدم مصنف عربي مخطوط على ورق البردي، لم يوجد أقدم منه في جميع متاحف ومكاتب العالم إلى يومنا، ويشتمل هذا الكتاب على روايات كثيرة لم ترد في مجموعات البخاري ومسلم وغيرها، بينها روايات مهمّة منسوبة لكعب الأحبار (راجع مقالة مفصّلة عن الإمام القاضي عبد الله بن وهب لمؤلّف هذا الكتاب في جريدة الأهرام يوم 25 نوفمبر سنة 1933.)

عبد الله بن سبأ ركن الباطنيّة

أما عبد اللّه بن سبأ، الذي كان من أهل صنعاء، فيظهر أنه أسلم في اليَمَن، ووصل إلى المدينة في زمن الخليفة عثمان بن عفّان. تنقّل في أمصار الحجاز والشام والعراق، وهو الذي أحدث فرقة المرجئة[1]، المعروفة أيضاً بفرقة السبئيّة، ويعدّ أوّل مَنْ فرض إمامة علي بن أبي طالب وأظهر البراءة من أعدائه وكاشف مخالفيه[2]، وكان بين الذين ذهبوا لمحاربة معاوية بن أبي سفيان[3]، وقد بقي على إخلاصه ووفائه لعلي بن أبي طالب حتى بعد موته، إذ استمرّ ينشر الدعوة لآل علي على أساس العقيدة، التي يؤمن بها اليهود، عن المسيح المنتظر الذي "يملأ الأرض عدلاً وسلاماً بين جميع أجناس البشر"، وكانت هذه العقيدة هي التي ساعدت على انتشار الإيمان بالمهدي المنتظر بين جميع فِرق الشيعة.

يُعد عبد اللّه بن سبأ من أركان الفِرق الباطنيّة الإسلاميّة، ولا يُمكن البحث عنه وعن حوادثه وعقائده بحثاً وافياً مستفيضاً إلا بعد الوقوف على آراء الفِرق الإسلاميّة الباطنيّة، التي لا تزال عقائدهم وتأريخ حوادثهم في العصور الإسلاميّة الأولى غامضة إلى يومنا.

1- طبري: تاريخ: ج1، ص 2942.

2- كتاب فِرق الشيعة، تأليف أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي من أعلام الشيعة في القرن الثالث عشر للهجرة طبع النجف سنة 1936 ص 22. كتاب الملل والنحل للشهرستاني طبع ليبسك سنة 1923 ص 133.

3- كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن علي بن إسماعيل طبع استانبول سنة 1949، ج1، ص 15.

وهب بن منبه أقدم المؤرّخين في الإسلام

أما وهب بن منبه فكان من أشهر مشاهير رجالات الإسلام في النصف الثاني من القرن الأوّل للهجرة، وقد وُلد سنة أربع وعشرين للهجرة بمدينة ذمار من أعمال صنعاء باليَمَنْ، وتوفي بها سنة عشر ومائة[1] أو في سنة أربع عشرة ومائة[2] أو في سنة ست عشرة ومائة للهجرة[3].

يذكر ابن خلدون أن وَهب بن منبه، كان مثل كعب الأحبار من **"مسلمة بني إسرائيل"**[4] ويقول ابن النديم إنه كان من أهل الكتاب[5]، على أن ابن سعد[6] وابن خلكان[7] والنووي[8] لم يصرّحوا يصرّحوا في أثناء كلامهم في تأريخ حياة وَهب بأنه من نسل يهودي، ولكن ذلك لا يدلّ على أنهم كانوا يشكّون في صحّة الرأي المشهور عن أصله اليهودي. بل هو بالعكس يدلّ على أنهم لم يكونوا في حاجة إلى الكلام في أمر مشهور معروف بين الجميع لا يُنازع فيه أحد عُلماء المسلمين. ولو كان هناك أي شك أو شبهة في نسبه اليهودي، لما أغفلوا ذكره، ولما أحجموا عن الإشارة إليه لِمكان أهمّيته في تأريخ رجل كان قطباً من أقطاب اليَمَن وإماماً من أَئِمّة عُلماء القضاء والدين عند المسلمين

1- طبقات ابن سعد: ج5، ص 395.
2- نووي: تهذيب الأسماء، ص 619، ابن قتيبة: كتاب المعارف، طبع ويستنفلد سنة 1850، جوته ص 232، أسد الغابة، ج5، ص 131.
3- ابن خلكان: تاريخ وفيات الأعيان، طبع القاهرة، سنة 1299، ج2، ص 238.
4- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب، طبع كاترمير باريس سنة 1847 – 1858، ج2، ص 179.
5- فهرس ابن النديم: ص 22.
6- طبقات ابن سعد، ج5، ص 395.
7- ابن خلكان: تاريخ وفيات الأعيان، ج2، ص 238.
8- تهذيب الأسماء، ص 619.

بمدينة صَنعاء في نهاية القرن الأوّل للهجرة[1].

وَوَهب بن منبه من أقدم عُلماء المسلمين الذين وضعوا المصنّفات الكثيرة في القرن الأوّل على أساس مباحثات علميّة في المصادر الإسلاميّة واليهوديّة والمسيحيّة[2]، وكان متّهماً بالقول بمذهب القدرية[3] القدرية[3] وكان ذلك سبباً في هلاكه.

أما مؤلّفاته وما ورد فيها من نظريات وأحاديث وقصص للأنبياء فقد انتشرت منذ القرن الأوّل للهجرة في الأندية الإسلاميّة، ولم تلبث أن أصبحت سراجاً وهّاجاً ينير السبيل أمام عُلماء التاريخ والتفسير والقصص. ولكن مما يؤسف له أن كتبه كلّها قد ضاعت، كما ضاع كل ما دوّن في القرن الأوّل للهجرة عند المسلمين. ولم نقف من مدوّناته إلا على نصوص مبعثرة في مصنّفات متعدّدة ألّفها من لَحِقَه من العُلماء والأُدباء[4].

والأُدباء[4].

1- ابن حجر: تهذيب الكمال في معرفة الرجال، طبع حيدر آباد. سنة 1325 – 1327 ج11، ص 166. ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ليدن سنة 1907 – 1926 طبع مرجوليث ج7، ص 232.

2- طبقات ابن سعد: ج5، ص 359: «سمعت وهب بن منبه يقول: قرأت اثنين وتسعين كتاباً كلّها أنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس وفي أيدي الناس وعشرون لا يعلمها إلا القليل». ابن حجر: تهذيب، ج11، ص 166.

3- طبقات ابن سعد: ج5، ص 396.

4- وقد ذكر ابن حجر عن سبب موت وهب ما يأتي تهذيب، ج11، ص 166. «قال ابن عيينة عن عمرو بن دينار: دخلت على وهب في داره بصنعاء فأطعمني جوزاً من جوزةٍ في داره فقلت له: وددت أنك لم تكن كتبت في القدر فقال: أنا والله وددت ذلك.. وقيل إن يوسف بن عمرو ضربه حتى مات».
وراجع ما ذكره العالم حاجي خليفة وهو مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المتوفى سنة 1067 للهجرة، في كتابه "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" طبع فليجل Flügel سنة 1835 – 1858 عن وَهب بن منبه ج4، ص 387، و ج4، 518، و ج5، ص 40، و ج5، ص 646.

أصل الإسرائيليات في المصادر الإسلاميّة

ولا شكّ أن هذه المسلمة من يهود الجزيرة في القرن الأوّل للهجرة، إنما كانوا هم حلقة الاتصال بين الحضارة اليهوديّة والحضارة الإسلاميّة الناشئة، وأن أغلب ما ورد من الإسرائيليات في المصنّفات العربيّة الإسلاميّة وما ظهر من تأثيرها في الحركات السياسيّة والاجتماعيّة إنما نسب الى هؤلاء الذين وردت أسماؤهم في هذا الباب.

على أن كثيراً من العقائد والتعاليم اليهوديّة، التي وردت في الكتب المقدّسة وفي المشنا والتلمود وقف عليها كثير من عُلماء المسلمين باختلاطهم المباشر باليهود في العراق والشام ومصر، ولكنه نسب بغير حقّ لمسلمة يهود بلاد العرب في القرن الأوّل للهجرة. ولكن ممّا لا شكّ فيه أن "**مسلمة بني إسرائيل**" في الجزيرة العربيّة كانت من العوامل القويّة في توجيه أنظار الصحابة والتابعين الى المصادر اليهوديّة، حتى ظهرت آثار العقليّة اليهوديّة في جملة مصنّفات متّصلة بالحديث والفقه والتفسير وقصص الأنبياء.

الباب الأوّل

حياة كعب الأحبار

فصول الباب الأوّل:

1- ما معنى كعب الأحبار؟
2- انتشار الإسلام في الديار الحميرية.
3- متى اعتنق كعب الأحبار الإسلام؟
4- أسباب إسلام كعب
5- عمر كعب الأحبار عندما أسلم.
6- رأي الصحابة والتابعين في كعب.
7- الخليفة عمر بن الخطاب وكعب الأحبار.
8- الخليفة عثمان وكعب الأحبار.
9- كعب الأحبار ينزح إلى الشام.
10- كعب والإمام علي.
11- وفاة كعب وضريحه.
12- امرأة كعب الأحبار وأبناؤه.

1. ما معنى كعب الأحبار؟

تتّفق جميع المصادر العربيّة على أن كعب الأحبار بن ماتع المكنّى أبا إسحاق كان يهوديّاً من حمير باليَمَن[1]، وكلمة ماتع ليست من أسماء الأعلام المألوفة في اللغة العربيّة ولا نعرف أنه استُعمل علماً في غير هذا الموضع[2] لذلك يُحتمل أن يكون اسماً عبريّاً محرّفاً أما لفظ كعب فمِن الأعلام العربيّة التي كانت مألوفة عند يهود بلاد العرب أيضاً[3] ويعتقد العالم ليدسبارسكي *Lidzbarski*، أن لفظ كعب كان مستعملاً عند يهود بلاد العرب للدلالة على الإسم العبري يعقوب أو عقيبا، كما هي

1- ابن سعد: طبقات ج 7 قسم 2 ص 156. طبري: تاريخ ج3، ص 2552. نووي: تهذيب الأسماء ص 523. الإمام البخاري: التاريخ الصغير في رجال الحديث، طبع أحمد آباد، سنة 1325 ص 34.
الإمام البخاري: التاريخ الكبير، كتاب مخطوط بدار الكتب المصريّة مأخوذ بالتصوير الشمسي من النسخة الأصليّة المحفوظة بمكتبة آيا صوفيا بالآستانة ص 70 (راجع فهرس دار الكتب المصريّة ج 5 ص 102)، أما القول الذي ورد في مرجع شيعي متأخر بأن كعباً كان نصرانيّاً (راجع كتاب تنقيح المقال تأليف الحاج الشيخ عبد الله المامقاني، طبع النجف الأشرف سنة 1349 - 25 ج 2 ص 39 رقم 9882) فلا يعوّل عليه مطلقاً إذ من المشهور عند المتقدّمين والمتأخرين في المصادر السنيّة والشيعيّة الموثوق بها أن كعب الأحبار كان يهوديّاً من حمير.
2- المرتضى الزبيدي: تاج العروس في شرح جواهر القاموس، طبع مصر، ج 5، ص 508، جمال الدين أبو الفضل محمد المعروف بابن منظور: لسان العرب، طبع بولاق ج 1 ص 209.
3- كعب بن أسد زعيم بني قريظة (ابن هشام ص 390، 674، 685) كعب بن الأشرف شاعر اليهود بيثرب وهو من بني النضير (ابن هشام ص 351، 381، 548) كعب بن سليم والد المحدّث محمد القرظي (ابن هشام ص 692).

العادة عند يهود بلاد الغرب في الأزمنة الحاضرة، إذ انهم يستعملون لفظ إيزيدور بدل إسرائيل، وكلمة يوليوس عوضاً عن يهودا[1]، ويبدو لنا أن هذه العادة لم تكُن متّبعة عند يهود بلاد العرب، لأنهم كانوا يستعملون الأسماء العبريّة أو العربيّة مباشرة كما يتّضح من قراءة أسماء يهود المدينة وخيبر التي وردت في المصادر الإسلاميّة القديمة. لذلك نميل إلى الاعتقاد أن لفظة كعب العربية لا دلالة أخرى لها في العبريّة. وأما أحبار فهي صيغة الجمع لكلمة حِبر وهو لفظ عبري كان يطلق على كل مَن التحق بالشيعة اليهوديّة الفرّيسية منذ العصر الذي سبق المسيح وحتى القرن الأوّل للميلاد. ثم تغلّبت تعاليم هذه الفئة على الأحزاب الدينيّة الأخرى عند اليهود، فأصبح كل متعلّم منهم يُلقب بِ حبر. وكانت هذه التسمية تُطلق على عُلماء اليهود الذين دوّنوا المشنا والتلمود[2].

وكان لفظ حِبر يُطلق في بلاد العرب على العالِم اليهودي، ثم أصبح على مرّ الزمن يُطلق في العربيّة على العالِم مطلقاً يهوديّاً كان أو مسلماً أو مسيحيّاً[3]. وكان عبد الله بن عباس يُلقّب بحِبر العرب[1] وبعالِم الأمّة

---

1 –Lidzbarski: De prophetics quae dicuntur legendis, Leipzig, 1893. p. 34-45.

2- إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص 20.

3- بسبب شيوع لفظ "الحِبر" بين رجال الدين من المسيحيين واستعمالهم له استعمالاً مفرطاً، يعتقد بعض المقامات من الشيعة أن "الحِبر" خاص "بالعالم من النصارى دون غيره"، المامقاني: تنقيح المقال ج 2 ص 82 رقم 9882، وراجع في المصنفات الآتية: ما ورد عن كلمة حبر

A. Geiger: was hat Muhammad aus dem Judentum aufgenommen 2 Aufl Leipzi 1902 p. 48, I. Goldziher; Z. D. M. G. XXXII p. 347 note 1. – Leipzi 1902 p. 48, I. Goldziher; Z. D. M. G. XXXII p. 347 note 1. – Hirschfeld: Bitrâge zur Erklârung des Korans p. 51 – Lidzbarski: Propheticis p. 36. J. Horovitz: Koranishe Untersuchungen, p. 63. – Ig.

الحِبر البحر[2].

ويميل بعض عُلماء المسلمين إلى كَسْر الحاء في كلمة حِبر، معتقدين أنها مشتقة من لفظ الحِبر الذي هو المداد[3]، وأجاز العالِم ابن سعيد نشوان وغيره كَسر الحاء وفتحها. ولكنه فضّل الكَسر على الفتح لأنه أفصح[4]. ويستخلِص من المصادر العربيّة أن كعباً إنما نُسب إلى الأحبار لكثرة عِلمه ومناقبه[5]، أو لكَونه من عُلماء أهل الكتاب، فهو لذلك "كعب العُلماء"[6]، ويقول الطبري إن علم كعب الأحبار من بقيّة ما ورث عن الأحبار الذين أدخلوا اليهوديّة في اليَمَن[7].

ويقول العالِم برببي *Barbier*، إن كعباً كان عالِماً يهودياً ملمّاً بآداب التلمود وقصص الأحبار[8].

وينبغي أن نلاحظ أن صيغة الجمع، التي تُضاف لاسم من الأسماء إنما تأتي للدلالة على المُبالغة والإفراط في أمر من الأمور مدحاً كان أم ذمّاً، كما يتّضح ذلك من شرح بعض أسماء الأعلام: مثل زيد الخيل،

Goldziher: über Muhammedanische Polemik gegen Ahl al Kitab in Z. O. M. G. Tome 32 p. 345. →

1- ابن حجر: الإصابة، ج 1 ص 902.
2- شمس الدين الذهبي: دول الإسلام، طبع حيدر آباد، سنة 1333، ص 36، ابن الأثير: أسد الغابة، ج 3، ص 193.
3- تاج العروس، ج 3 ص 120.
4- نشوان بن سعيد اليمني: شمس العلوم ودواء كلام العرب، طبع جيب بمدينة ليدن، سنة 1916، ص 24.
5- نووي: تهذيب الأسماء ص 523.
6- تاج العروس، ج 3 ص 120.
7- طبري: تاريخ، ج1 ص 892.
8 –Journal Asiatique, série; 10, Tome X p. 114.

الذي ترجع تسميته بذلك إلى شجاعته وبسالته[1]، ومثل تسمية سلمان بن ربيعة الباهلي بسلمان الخيل، لأنه كان خيّراً فاضلاً كثير الغزو[2]. ومثل ومثل تسمية أبي الصلاة لكثرة صلاته، وتسمية جابر بجابر عثرات الكرام لكثرة جوده، وعروة الصعاليك كان مشهوراً يجمع الفُقراء فيَرزقهم. ونعتقد أن كلمة أحبار إنما أُضيفت لاسم كعب بعد إسلامه، ولكننا نتساءل: هل لفظ كعب جديد أيضاً؟ أو أنه كان يسمّى به قبل أن يسلم، ولدينا ما يرجّح أحد الاحتمالَين لأن لكلمة كعب معنى يدلّ على الشرف والمجد أيضاً[3]. وعلى فرض أنه سُمّي بهذا الاسم بعد اعتناقه الإسلام فبماذا كان يسمّى قبل إسلامه؟ هذا ما لا نعرف عنه شيئاً. إننا نعلم أن عبد الله بن سلام كان يُعرف في عهد يهوديّته باسم الحصين. فلمّا أسلم سمّاه الرسول عبد الله[4]. وكذلك نعلم أن المحدّث الشهير أبو هُرَيرة قد عُرف قبل الإسلام باسم عبد شمس فسمّي في الإسلام عبد الله[5]. وكل مَن يعتنق الإسلام يغيّر اسمه باسم جديد حتى ينسى مع دينه دينه القديم اسمه القديم أيضاً. وقد ذكر النووي عن أسماء أجداد كعب

1- تاج العروس، ج 7 ص 315.

2- فتوح البلدان، ص 198.

3- يذكر صاحب اللسان في مادة كعب ما يأتي: أعلى الله كعبه أي أعلى جده، قال ابن الأثير والأصل فيه كعب القناة وهو أنبوبها وما بين كل عقدتَين منها كعب، وكل شيء علا وارتفع فهو كعب (لسان العرب، ج 2، ص 214).

4- طبري: تاريخ، ج 3، ص 2542، نووي: تهذيب. ص 347.

5- ابن سعد: طبقات، ج 4، ص 52. وقد سرد الطبري رواية ابن سعد، ثم أضاف أضاف إليها أن آخرين قالوا إن اسمه كان عبد نهم، وقيل عبد غنم تاريخ، ج 3 ص 2535.

الأحبار ما يأتي: إنه كعب بن ماتع بن هينوع أو هيسوع[1] ويُقال عمرو بن قيس بن معمر بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن عوف بن حمير بن قطف بن عوف بن زهير بن أيمن بن حمير بن سبأ الحميري[2].

ومما لا شك فيه أن جميع أسماء أجداد كعب الأحبار ملفّقة وذلك لسببَين:

1- إنها لم ترد في المصادر القديمة مثل ابن سعد والطبري وأضرابهما.

2- إن جميع هذه الأسماء ليست من أسماء الأعلام اليمنيّة المألوفة في اليَمَن قبل الإسلام، بل هي من الأعلام الشائعة في شمال بلاد العرب[3]. وعلى العموم تظهر في جدول أنساب كعب تلك السذاجة التي نألفها في أنساب غيره من رجالات العرب في العصر الأوّل للهجرة الذين يرجع نسبهم إلى زمن بعيد في الجاهليّة، حتى لتبدو كأنها مأخوذة من مصادر مكتوبة يُعتمد عليها.

وكان كعب ينتمي إلى قبيلة ذي رعين[4] أو إلى قبيلة ذي كلاع[5]

1- يميل العالِم هرشفلد Hirschfeld إلى الاعتقاد بأن هيسوع هو تحريف الاسم العبري يِسوع أو يوشع Jew Enc. VII p. 400.

2- تهذيب الأسماء، ص 523.

3- راجع أسماء أعلام عربيّة في اليمن وحضرموت قبل الإسلام وردت في كتابات منقوشة:

Mordtmann und Müller: Sudarabische Denkmâler.

D. Nielsen: Handbuch der Altarabischen Altertumskunde:

وراجع كتاب، تاريخ اللغات السامية، لمؤلف هذا الكتاب، من ص 227 – 252.

4- طبقات: ابن سعد، ج7، القسم الثاني، ص 156، طبري: تاريخ، ج3، ص 2474.

كلاع[1] أو إلى قبيلة هجن[2]. أما ذو كلاع وذو رعين فهما إسمان من أسماء القبائل العربيّة[3] والتي كانت منتشرة في اليَمَن في زمن الجاهليّة، وهما من أسماء العَلم المذكّرة[4] وكذلك عُرف باسم كعب الكتابَين[5].

2 ـ انتشار الإسلام في الديار الحميرية

وجد الإسلام أرضاً خَصبة ونفوساً مستعدّة في كل مكان عاش فيه اليهود بالبلاد العربيّة أو كان لهم فيه نفوذ قوي، وقد لاحظنا هذه

1- إصابة، ج 8 ص 635.
2- طبري: تاريخ، ج 3 ص 2474.
3- راجع أسماء القبائل العربيّة في فهرس تاريخ الطبري ص 714 وفي فهرس كتاب صفة جزيرة العرب ص 496.
4- طبري تاريخ، ج 1 ص 914. ابن هشام، ص 18. طبري: تاريخ، فهرس ص 185، تاج العروس، ج 5 ص 496.
5- راجع كتاب فتوح مصر وأخبارها: تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم الذي ورد فيه ما يأتي: حدّثنا عبد الله بن صالح، حدثنا موسى بن علي عن أبيه قال: خرجنا حُجّاجاً من مصر، فقال لي سليم بن عنتر: اقرأ على أبي هُرَيْرَة السلام وأخبره أني قد استغفرت له ولأمّه الغداة. فلقيته فقلت ذلك له فقال أبو هُرَيْرَة وأنا قد استغفرت له ولأهله الغداة. ثم قال أبو هُرَيْرَة كيف تركت أم خنور؟ (تكنى مصر باسم أم خنور "راجع القاموس المحيط لمجد الدين محمد الفيروزآبادي، طبع مصر سنة 1344 ج2، ص 24". قال فذكرت له من خصبها ورفاهتها. فقال إنها أوّل الأرضين خراباً ثم على أثرها أرمينية، فقلت أسمعت ذلك من رسول الله، صلعم، أو من كعب الكتابَين (راجع الكتاب المذكور ص 234)، ولم نعثر إلى الآن في مرجع عربي آخر أن كعباً عرف بهذا اللقب. على أننا نعتقد أن اللقب "كعب الكتابَين" في هذه الرواية إنما يدل على التهكّم والسخرية أكثر منه على الجدّ والاعتراف بعلمِه في الكتابَين (كتاب التوراة وكتاب القرآن).

الظاهرة حين شرحنا سبب معارضة أهل مكّة أو الطائف لرسالة نبيّ الإسلام ومحاربتهم له محاربة قويّة في حين أن بطون يثرب دخلت دين الإسلام أفواجاً. وقد ذكرنا أنه كان هناك بون شاسع بين عقليّة القبائل القاطنة بالطائف ومكّة. وبين عقليّة قبائل يثرب. حيث كانت الأولى جامدة على عقائد الآباء والأجداد وكانت الثانية قد تهيّأت قلوب أفرادها لقبول دين سماوي بسبب وجودها على الدوام بين يهود سمعوا تعاليمهم ورواياتهم عن أنبياء بني إسرائيل وأخلاقهم[1].

وكذلك كانت اليَمَن قد تهوّدت قبل الإسلام وانتشرت فيها عقيدة اليهود بين قبائل حمير حتى دخلت عن رِضى واختيار في دين اليهوديّة، ثم لما سُلبت الدولة والملك من حمير المتهوّدة. بعد اندحار جيوش يوسف ذو نواس أمام القِوى الحبشيّة المسيحيّة، لم ينمح نفوذ الديانة اليهوديّة، ولم تطمس آثارها. بل بقيَت محفوظة في الصدور طيلة حُكم الأحباش في اليَمَن.

ولمّا أخرج الفُرس الحبشيين من الديار اليمنيّة. أخذت اليهوديّة تنتعش وتنطلق بالتدريج من مكامنها في الصدور. ومع أن أقيال حمير وأشرافهم لم يكونوا قد عادوا إلى اليهوديّة، فإن قلوبهم كانت قد تهيّأت ونفوسهم قد استعدّت لقبول دين توحيدي جديد. فلمّا أقبل عليهم رُسل الإسلام ودُعاته انشرحت له صدورهم واعتنقوه مسرورين، فلم يلبث معاذ بن جبل وعلي بن أبي طالب وأبو موسى الأشعري طويلاً، وهم الذين بعثهم النبيّ إلى اليَمَن لِنَشر تعاليم القرآن، حتى عمّ الإسلام جميع اليَمَن وحتى كان أهل

1- راجع كتاب: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، لمؤلّف هذا الكتاب، ص 101.

اليَمَن هم الذين قاتلوا المرتدّين منهم، حين حبوا للخروج على الإسلام في عهد الخليفة أبي بكر[1].

وقد وصل إلينا من أسماء يهود اليَمَن الذين أسلموا: كعب الأحبار، ومنبه والد وهب، وعبد الله بن سبأ، ولم نجد غيرهم في المصادر الإسلاميّة.

3- متى اعتنق كعب الأحبار الإسلام؟

لا يمكننا، بسبب الروايات المتناقضة، أن نحدّد بالضبط الزمن الذي دخل فيه كعب دين الإسلام، ففي حين يروي الواقدي أن إسلامه قد حدث قبل وفاة النبي، لما وفد علي بن أبي طالب إلى اليَمَن[2] نجد ابن سعد يسرد رواية يورد فيها أن كعباً أسلم في عهد أبي بكر قبل أن يدخل المدينة[3]، فهو يذكر تاريخ إسلامه بالتقريب لا التدقيق، أمّا ابن حجر فيعيّن زمن إسلامه ويقول:«إنه حدث في خلافة عمر بن الخطاب في سنة اثنتي عشرة»[4]، على أن الطبري يعارضه ويقول إن كعباً أسلم في سنة

1- طبري: تاريخ، ج1، ص 1719 – 1739 الدياربكري: (القاضي حسين بن محمد بن حسن المتوفى سنة 982 هـ): كتاب الخميس في أحوال النفس النفيس، طبع مصر، سنة 1302، ج2، ص 157، البلاذري (الإمام أحمد بن يحيى البغدادي المتوفى سنة 279 للهجرة): فتوح البلدان، طبع ليدن، سنة 1866، ص 68 – 74.

2- الواقدي، عن ترجمة ولهوزن طبع برلين ص 419.

J. Horovitz: De Waqidii libro qui Kitab al Magazi Berlin, 1898 p. 39.

3- ابن سعد: طبقات، ج 7 القسم الثاني، ص 156، أسد الغابة، ج4، ص 247.

4- إصابة، ج3، ص 636، على أن عمر لم يكن في تلك السنة قد تبوّأ الخلافة إذ كان بدء خلافته في 22 جمادى الثانية من سنة 13.

سبع عشرة من أمارة عمر[1]، ويؤيّد السيّد الشريف الرضي، المتوفّى سنة 406 للهجرة الرأي الأخير[2]. وثمة رواية ثانية لابن حجر ذكر فيها أنه أسلم في خلافة أبي بكر[3]. وفي أيّة حال يبدو لنا، أن كعب الأحبار كان قد عقد النيّة على اعتناق الإسلام وهو في ربوع اليَمَن، ثم ترك عشيرته ووطنه وهاجر مع أهل بيته إلى المدينة، حيث أعلن إسلامه أمام الخليفة عمر بن الخطاب.

4. أسباب إسلام كعب

ثمّة رواية منسوبة لابن المسيب، تحكي لنا خبراً فيه إشارة إلى السبب الذي حمل كعب الأحبار على تغيير دينه وهي: «قال العبّاس لكعب: ما منعك أن تسلم على عهد رسول الله وأبي بكر حتى أسلمت الآن على عهد عمر؟ فقال كعب: إن أبي كتب لي كتاباً من التوراة ودفعه إليّ وقال: اعمل بهذا، وختم على سائر كُتبه وأخذ عليّ بحقّ الوالد على ولده أن لا أفضّ الخاتم. فلما كان الآن ورأيت الإسلام يظهر ولم أرَ بأساً قالت لي نفسي لعلّ أباك غيّب عنك علماً كتمك. فلو قرأته. ففضضت الخاتم، فقرأته. فوجدت صفة محمد وأمّته. فجئت الآن مسلماً، فوالى العبّاس»[4].

1- طبري: تاريخ ج1، ص 2514.

2- حقائق في متشابه التنزيل، ج5، طبع النجف، سنة 1355، ص 349.

3- ابن حجر: تهذيب الكمال في معرفة الرجال، ج8، ص 438، نووي: تهذيب الأسماء، ص 253.

4- طبقات ابن سعد، ج1، قسم ثان ص 156. إصابة، ج3، ص 635. تهذيب التهذيب ج8، ص 483، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج1، ص 257. وتجدر الإشارة إلى أن العالِم شبرنجر Sprenger، الذي نقل الرواية المذكورة

وأبرز ظاهرة في الرواية المذكورة، هي أن كعباً كان قد وجد صفات الرسول محمد في التوراة. ويجب لفت الأنظار إلى أن القرآن فيه بعض آيات تشير إلى ذكر صفات الرسول محمد في كُتب أهل الكتاب: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(1) و﴿...يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾(2)، أما الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب، فهم أحبار اليهود، الذين كتموا الناس أمر محمد، صلعم، ونبوّته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة(3). وأما ما ورد عن ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾(4)، فالمقصود بهم "أحبار اليهود وعُلماء النصارى، وقد قيل عني بذلك اليهود خاصة"(5) و﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(6) وهم أيضاً أحبار اليهود وعُلماء النصارى.

وقد ذكر محمد بن إسحاق أن عبد الله بن سلام كان يقول لأحبار اليهود: اتّقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول

في كتابه وترجمها إلى الألمانيّة: (Das Leben Muhammads Bd III p. G. IX) قد أخطأ في أثناء ذكره عبدالله بن العبّاس، بدلاً من والده العبّاس، إذ لا يوجد مصدر قديم، حتى ولا مرجع متأخر، يشير إلى أن الذي سأل كعباً عن سبب إسلامه كان لبن العبّاس.

1- سورة الصف: آية 6.

2- سورة البقرة: آية 174.

3- طبقات ابن سعد، ج1، القسم الثاني، ص 19، طبري: تفسير ج2، ص 50.

4- سورة البقرة: آية 143.

5- طبري: تفسير، ج2، ص 14.

6- سورة البقرة: آية 145.

الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به، وأصدّقه وأعرفه. فقالوا كذبت...[1].

ولابن سعد في كتاب الطبقات فصل عن صفات رسول الله في التوراة والإنجيل فيه روايات بإسناد عن كعب الأحبار وعبد الله بن سلام وغيرهما من عُلماء المسلمين[2]. وأهم ما ورد فيه من الروايات منسوب لكعب الأحبار إذ تحوم أغلب الروايات الأخرى حول النظريّة التي وردت على لسان كعب: يسأل ابن عبّاس كعباً كيف تجد نعت رسول الله في التوراة فيجيبه: نجده محمد بن عبد الله، مولده بمكّة ومهاجره إلى طابة[3] ويكون ملكه بالشام ليس بفاحش، ولا بصخّاب في الأسواق، ولا يكافئ بالسيّئة، ولكن يعفو ويغفر.

وكذلك يقول كعب: إن نعت محمد، صلعم، في التوراة محمد عبدي المختار لا فظّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق ولا يجزي بالسيّئة ولكن يعفو..

على أن مضمون هذه الرواية مذكور في سِفر أشعيا من الكتاب المقدّس[4]. والروايات الأخرى في الفصل المذكور لا تختلف كثيراً عن

1- ابن هشام، ص 253.
2- طبقات ابن سعد، ج1، القسم الثاني، ص 87 – 89.
3- طابة، من أسماء المدينة المنوّرة، وقد عرفت باسم يثرب قبل الإسلام، كما كان لها جملة أسماء ورد ذكرها عند السمهوري (راجع كتاب، وفاء الوفا في أخبار المصطفى، طبع مصر، سنة 1326، ص 5).
4- وقد ورد في سِفر إشعيا ما يأتي: هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سرّت به نفسي. وضعت روحي عليهِ فيخرج الحق للأُمَم لا يصيح ولا يُرفع ولا يُسمع في الشارع صوته.. لا يكلّ ولا ينكر حتى يضع الحق في الأرض (أشعيا فصل 42 آية 1-4).

مضمون روايات كعب الأحبار ونودّ أن نلفت الأنظار إلى أن هذا الموضوع كان يشغل بال العُلماء المسلمين بعد عصر العلاّمة ابن سعد أيضاً، فنجد أن كتاب الشمائل للترمذي يبحث في المشكلة المذكورة[1] ويسرد أبو نعيم أحمد الأصبهاني روايات على لسان كعب عن صفة محمد وأمّته أخبر الله عنها موسى في التوراة[2]، وكذلك وضع ابن عساكر المتوفّى سنة 571 للهجرة فصلاً عن مجيء محمد رسول الله حتى نشر أحدهما التوراة، فقرأ هذا فيها، وكعب كان خلفهما...[3].

ولما كان موضوع البحث عن صفات الرسول محمد في التوراة والإنجيل محلّ عناية واهتمام ليس في طبقة العُلماء المستنيرين من المسلمين فحسب بل بين الجماعات الشعبيّة ومجالسهم أيضاً فقد أخذ مؤلّفو القصص الدينيّة والحكايات الدنيويّة يدمجون في قصصهم وأخبارهم الخياليّة موضوعات فيها نعوت النبي في التوراة، كما ورد في "قصّة بلوقيا ملك بني إسرائيل في مصر" الذي وجد في خزائن الدولة كتاباً يشتمل على نعوت سيد الأوّلين والآخرين.. وقد نقل الثعلبي هذه القصّة بإسناد عن عبد الله بن سلام[4]. وجاءت هذه القصّة أيضاً بدون إسناد في حكاية حاسب كريم الدين من مجموعة ألف ليلة وليلة[5]. ويعتقد الأستاذ هوروفيتس *J. Horovitz* أن قصّة بلوقيا مستخلصة من مصادر

1- راجع المقدّمة لطبقات ابن سعد، ج1، قسم ثان ص 15.

2- حلية الأولياء ج5، ص 384 - 388.

3- كتاب التاريخ الكبير لدمشق لأبي القاسم علي بن عساكر الدمشقي، طبع دمشق، ج1، ص 341.

4- أحمد بن محمد الثعلبي: قصص الأنبياء المسمّى بعرائس المجالس، طبع مصر سنة، 1297 ص 337.

5- ألف ليلة وليلة طبع بيروت، ج2، ص 832 - 885.

يهوديّة، أو أنها مكتوبة بتأثير كاتب قد وقف على الآداب اليهوديّة[1]. على أن الأصبهاني يسرد سبباً آخر لإسلام كعب الأحبار وهو أنه مرّ برجل من أصحاب الرسول وهو يقرأ الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا...﴾ فأسلم كعب[2]. وفي مناسبة أخرى قرأ كعب الآية: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ...﴾ فأسلم حينئذ[3].

5 ـ عمر كعب الأحبار عندما أسلم

روى ابن سعد والطبري أن وفاة كعب كانت في سنة 32 للهجرة، على أن للطبري نفسه رواية أخرى يذكر فيها أن كعباً توفّي لسنة بقيت من خلافة عثمان بن عفّان، وقد كان مقتل عثمان في آخر سنة خمس وثلاثين[4]. ومن أنصار هذا الرأي ابن حجر[5] وابن الأثير[6] واليافعي[7] إذ يعيّنون لوفاة كعب سنة أربع وثلاثين. وقد رَوى ابن حجر[8] والسيوطي[9] أن كعباً كان قد بلغ في سنة وفاته مائة سنة

1 –Z.D.M.G. Tome. LV p. 519

2- حلية الأولياء، ج6، ص 6، والآية 47 من سورة النساء.

3- حلية الأولياء، ج6، ص 7، والآية 47 من سورة النساء.

4- الطبري، تاريخ، ج3، ص 2474.

5- إصابة ج3، ص 639.

6- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، طبع ليدن، سنة 1867 – 74، ج3، ص 121.

7- مرآة الجنان وعِبرة اليقظان، لأبي محمد عبد الله بن أسعد اليافعي، طبع حيدر آباد، ج1، ص 89.

8- إصابة ج3، ص 635.

9- جلال الدين السيوطي: إسعاف المبطأ برجال الموطأ طبع مصر، سنة 1343، ص 210.

وأربع سنين من العمر.

فلو افترضنا صحّة هذا الرأي لكان كعب حين جاء إلى المدينة قد جاوز الثمانين من عمره. ولكننا لا نطمئن إلى صحّة هذه الرواية، لأنها تناقض الأخبار الكثيرة الدالّة على ما كان يتمتّع به كعب من النشاط والقوّة وكثرة الحركة حتى رحل مرّتين إلى الشام وسافر إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ. وهذا كله يثير الشكّ في صحّة هذه الرواية ويحمل على الاعتقاد بأنه قد بولغ فيها مبالغة شديدة، لأن الإنسان في مثل هذه السن العالية، والشَيْخوخة الفانية لا يقوى على مثل هذا النشاط.

على أن مِمّا لا شك فيه أن كعب الأحبار لم يأتِ المدينة إلا بعد أن قطع عمراً مديداً في اليهوديّة، وأن علمه في التوراة والتلمود والإسرائيليّات عامّة، إنّما حصل عليه في موطنه الأصلي بالديار اليَمَنِيَّة، إذ لم يكُن أحد من عُلماء اليهود بالمدينة في عهد عمر[1]. والأفراد الذين الذين أسلموا لم يكُن لهم حظّ وافر في علوم اليهود وأخبارهم ومن هنا نستخلص أن الثقافة اليهوديّة في زمن ظهور الإسلام كانت منتشرة في البلدان اليَمَنِيَّة. ومن مدارسها أخذ مسلمة يهود اليَمَن ونقلوها إلى البيئة الإسلاميّة في الأمصار المختلفة.

ومما يدلّ على فطنة كعب وحذاقته عند مجيئه إلى المدينة، أنه أخذ يتعلّم سورة البقرة، وكان يعلّمه إياها رجل من أصحاب النبيّ، حتى انتهى

1- كان الرسول قد أجلى يهود المدينة كلهم (مسند أحمد، ج2، ص 149 صحيح مسلم، طبع مصر، سنة 1349، ج12، ص 90 – 91 في باب الجهاد عدد 61، 62) وكما ذكرنا أن عدداً قليلاً من اليهود قد عاد إلى المدينة في أخريات أيام الرسول، ولكنهم لم يكونوا من أحبار اليهود وأشرافهم (تاريخ اليهود في بلاد العرب ص 176).

إلى قوله: «فإنْ زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات فاعلموا أن الله غفور رحيم» فقال كعب: ما أعرف هذا في شيء من الله عز وجل أن ينهى عن الذنب ويعد عليه المغفرة، فأبى الرجل أن يرجع عن ذلك، وأبى كعب أن يتابعه حتى مرّ عليهما رجل من أصحاب النبيّ فقال له: هل تقرأ سورة البقرة قال نعم فقالا: «فإنْ زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات» فقال الرجل: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، (سورة البقرة آية 209) فقال كعب: نعم هكذا ينبغي أن يكون[1].

6 ـ رأي الصحابة والتابعين في كعب الأحبار

كان لكعب الأحبار منزلة ومكانة سامية بين رجال الصحابة مثل عبد الله بن عبّاس وأبي هُرَيْرَة وعبدالله بن عمرو بن العاص. وكانوا يعتمدون على رأيه ويثقون بحسن فهمه وصحّة إدراكه، ليس في الموضوعات الإسرائيليّة المرتبطة بمصادر يهوديّة من المشنا والتلمود وغيرهما فحسب، بل في شرح بعض الآيات من القرآن أيضاً.

ونورد هنا رواية تدلّ على مدى ما كان لكعب من الرفعة والإجلال بين الصحابة. قال ابن سعد: إن أبا هُرَيْرَة جاء إلى كعب يسأل عنه، وكعب في القوم، فقال كعب: ما تريد منه، فقال: إني لا أعرف أحداً من أصحاب رسول الله، صلعم، أن يكون أحفظ لحديث رسول الله، صلعم، مني. فقال كعب: أما إنك لم تجد طالب شيء إلا سيشبع منه يوماً من الدهر إلا طالِب عِلم أو طالِب دُنيا. فقال: أنت كعب. فقال: نعم. فقال:

1- الطبري: تاريخ ج3، ص 245.

لمثل هذا جئتك[1].

وكان أبو الدرداء الصحابي المشهور القاضي[2] بدمشق بأمر معاوية[3] يمدح كعباً ويقول: إنّ عند ابن الحميرية لَعِلماً كثيراً[4]، وكذلك كان معاوية يثني على كعب خيراً ويقول: إن أبا الدرداء أحد الحُكماء وإن كعب الأحبار أحد العُلماء إن كان عنده لَعِلم كالبحار[5] وإن كنّا فيه لمفرطين[6]. وحدث أن معاوية كان يحدّث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار، فقال كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يُحَدّثون عن أهل الكتاب وإن كنّا مع ذلك لنبلو عليه بالكذب (ولعل العبارة لنتلو عليه الكذب)[7].

وكذلك كان الخليفة عمر بن الخطاب يجلّ كعب الأحبار، وقد أمر أن يكون على رأس جماعة من الحجّاج أقبلوا من الشام إلى المدينة ومكّة[8]. وكان سعيد أمير البصرة - وهو من رجال النصف الثاني للقرن الأوّل الهجري كلّما حدّث عنه- قال: حدّثنا هذا الرجل الصالح

1- طبقات ابن سعد، ج4، قسم ثان ص 57.
2- طبقات ابن سعد، ج7، قسم ثان، ص 117.
3- ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج8، ص 176.
4- طبقات ابن سعد، ج7، قسم ثان ص 156.
5- وقد وردت هذه العبارة في كتاب تهذيب التهذيب، ج8، ص 438، على المنوال الآتي: وإن كان عنده لَعِلم كالثمار.
6- ابن حجر: إصابة، ج 3 ص 637.
7- البخاري: كتاب التاريخ الصغير، ص 34، صحيح البخاري، طبع بولاق، سنة 1315، ج9، ص 110. كتاب الاعتصام باب لا تسألوا أهل الكتاب، وقد نقل ابن حجر هذه الرواية وأضاف من عنده ما يأتي: هذا جميع ما له في البخاري، وليس هذه برواية عنه فالعجب من المؤلف كيْفمَا يرقم له رقم البخاري فيوهم أن البخاري أخرج له (تهذيب التهذيب، ج8، ص 438).
8- موطأ مالك، طبع مصر، سنة 1343 ج1، ص 199.

من أهل الكتاب كعب الأحبار...[1] على أن هناك روايات يؤخذ منها أنه وقعت بعض حوادث تعرّض فيها كعب للنقد أو الاحتجاج أو وُجّهت إليه فيها ألفاظ جارحة مهينة بسبب بعض آراء أبداها، فلاحت لمعارضيه وناقديه كأنها ناشئة من يهوديّته فعدّوها مناقضة للعقائد الإسلاميّة، فمِن ذلك ما جاء عنه في تفسير الآية القرآنيّة: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾[2] فقد قال كعب إن هارون الذي في الآية ليس بهارون أخي موسى. فقالت له عائشة أُمّ المؤمنين: كذبت، قال: يا أُمّ المؤمنين، إن كان النبيّ، صلعم، قال هذا فهو أعلم وأخبر. وإلا فإني أجد بينهما ستمائة سنة، فسكتت[3].

وجاء في رواية أخرى، إن ابن عبّاس عنّف كعباً وغضب عليه غضبًا شديدًا، وذلك للسبب الآتي: جاء رجل إلى ابن عبّاس فقال له: يا ابن عبّاس سمعت العجب من كعب الحبر يزعم أنه يُجاء بالشمس والقمر يوم القيامة، كأنّهما ثَوْرَان عقيران فيقذفان في جهنّم، فغضب ابن عبّاس، ثم قال: كذب كعب، بل هذه يهوديّة يريد إدخالها في الإسلام. الله أجلّ وأكرم من أن يعذّب عبده على طاعته. أَلَم تسمع قول الله تبارك وتعالى وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين يعني دؤوبهما في الطاعة. فكيف يعذّب عبدَين يثني عليهما، أنهما دائبان في طاعته، قاتل الله هذا الحِبر وقبّح حبريّته ما أجرأه على الله وأعظم فريته على هذَين المطيعَين لله... ثم لمّا بلغ كعبًا بما كان من وجد ابن عبّاس من حديثه، وما حدث عن رسول الله أتى كعب إلى ابن عبّاس فقال: لقد بلغني ما كان من وجدك من

1- حلية الأولياء في طبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، ج5، ص 283.

2- سورة مريم آية 27.

3- تفسير الطبري، ج16، ص 15، تاريخ الطبري ج1، ص 1069.

حديثي وأستغفر الله وأتوب إليه وإني إنما حدّثت عن كتاب دارس قد تَدَاوَلَتْه الأيدي ولا أدري ما كان فيه من تبديل اليهود. وإنك حدّثت عن كتاب جديد حديث العهد بالرحمان عزّ وجلّ وعن سيّد الأنبياء وخير النبيّين. فأنا أُحِبّ أن تحدّثني الحديث فأحفظه عنك. فإذا حدّثت به كان مكان حديثي الأوّل[1].

ويجب أن نلاحظ أن الطبري نفسه في تفسيره للآية القرآنية "وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين..." إلخ لم يذكر شيئاً يدلّ على غَضَب ابن عباس على كعب الأحبار وإهانته له[2].

وكذلك يزعم الغزالي، أن عمر بن الخطاب ضرب كعباً بالدرّة بسبب سوء فهم آية قرآنية[3]. وهناك رواية أخرى ذكر فيها أن عائشة كذّبت نظريّة لِكعب وكان ذلك بسبب شرحه الآية ﴿وَلَقَدْ رَآَهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾[4] إذ قال: إن الله تبارك وتعالى قسّم رؤيته بين موسى ومحمد. فكلّمه موسى مرّتَين ورآه محمد مرّتَين. فأتى مسروق عائشة فقال: يا أُمّ المؤمنين هل محمد رأى ربّه فقالت سُبحان الله لقد قفّ شَعري لِما قُلت، فقد كذب مَن أَخْبَرَك أن محمداً رأى ربّه[5].

وما من شكّ أن نظريّة كعب في مسألة رؤية النبي لربّه هي بِعَينها المذكورة في التوراة عن موسى الذي رأى ربّه[6].

وقد ذكر الطبري على لسان ابن عبّاس: إن الله اصطفى ابراهيم

1- الطبري تاريخ، ج1، ص 62 – 74.
2- تفسير الطبري، ج13، ص 134.
3- إحياء علوم الدين، ج4، ص 382.
4- سورة النجم، آية 13 – 14.
5- تفسير الطبري، ج27، ص 27.
6- سفر الخروج، آية 18/33.

بالخلّة واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمداً بالرؤية.. وكذلك قال ابن عبّاس، إن رسول الله، صلعم، رأى ربّه بقلبه، فقال له رجل عند ذلك: أليس هو الذي لا تُدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار، قال له عكرمة: أليس ترى السماء؟ قال بلى قال أفكلّها ترى؟[1].

ومن العجَب أن ابن عبّاس وعكرمة وغيرهما الذين سلكوا مسلك كعب في شرح الآية المذكورة لم ينسب إليهم الكَذِب، ولم يوجّه إليهم أقلّ لَوْم.

ونعود إلى الرواية الأولى فنقول: إن مَن دَرَس شيئاً من تاريخ بني إسرائيل لا يشكّ في أن كعباً كان على بيّنة حين قال لأُمّ المؤمنين عائشة إن هارون المذكور في الآية ليس بهارون أخي موسى، لأن هناك ثلاثة عشر قرناً تفصل بين عهد المسيح وعهد موسى كليم الله. على أنه إذا صحّت هذه الرواية فلا نشكّ أن عائشة كانت معتمدة في معارضتها لكعب على مجرّد الفهم والظنّ بدليل سكوتها بعد أن قال كعب: إن كان النبي، صلعم، قال هذا فهو أعلم وأخبر، وبدليل أن شرح الصحابة للآية يتّفق مع رأي كعب حيث قالوا: إنه قيل مريم أُمّ المسيح يا أُخت هارون نسبة منهم لها إلى الصلاح، لأن أهل الصلاح منهم كانوا يُسَمّون هارون، وليس بهارون أخي موسى. وقد قال قتادة في "يا أُخت هارون" أنه كان رجلٌ صالحٌ في بني إسرائيل يسمّى هارون، فشبّهوها به. فقال يا شبيهة هارون في الصلاح[2].

والرواية الثانية التي ذكر فيها، أن ابن عبّاس غضب على كعب

1- تفسير الطبري، ج27، ص 26 وص 27.

2- تفسير الطبري، ج16، ص 51.

الأحبار تناقض روايات أخرى، نذكرها فيما بعد، تثبت أن العلاقة بين ابن عبّاس وكعب كانت حسنة لا تشوبها أيّة شائبة. لقد كان ابن عبّاس حين دخل كعب المدينة شاباً لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، بينما كان كعب شيخاً كبيراً، وليس من المعقول ولا من المألوف أن يعتدي ابن عبّاس الشابّ على كعب الهرم، وأن يسلك معه المسلك الجاف الغليظ. ولو سلّمنا جدلاً بوقوع نقاش بين ابن عبّاس الحديث السن، وبين كعب البيّن الشيخوخة، فلا شكّ أنه كان أخفّ حدّة مِمّا صوّر به في الرواية التي وصلت إلينا.

أما رواية تأديب عمر لِكعب بالدرّة فلا نشكّ في أنها مختلقة، ولم تُذكر إلا في عهد متأخر، في عهد قصدت فيه هَيْئات معيّنة الحطّ من كرامة كعب. كما سنوضحه فيما بعد. إذ لا يقبل العقل السليم أن الخليفة يضرب شيخاً كبيراً وعالِماً جليلاً كان يرافقه في بعض سفراته ويشاركه في مجالسه، أو أن يعامل رجلاً من رجال شورته معاملة غير لائقة. ويكفي لإثبات ذلك، أن هذه الرواية لم تذكر في أي مصدر من المصادر القديمة المعوّل عليها والموثوق بها.

ثمّة رواية ذكر فيها ما يأتي:«قال عمر لكعب يوماً: خَوْفنا يا كعب. فقال: يا أمير المؤمنين، إنك من أمّة مرحومة، ثم قالها الثانية، ثم قالها الثالثة، ثم قال كعب: والذي نفسي بيده لو قد أفضيت إلى يوم القيامة ونظرت إلى النار، ثم كان لك عمل سبعين نبيّاً، لظننت أنك لا تنجو، والذي نفسي بيده إنها لتزفر يومئذ زفرةً لا يبقى ملك مقرّب ولا نبي مرسل إلا سقط على ركبتَيه، يقول يا رب نفسي نفسي حتى أن إبراهيم ليقول يا رب إني أنشدك خلّتي إياك... فبكى عمر فاشتدّ بكاؤه فقال: يا أمير

المؤمنين ألا أبشّرك. والذي نفسي بيده ما يزال الله يومئذ برحمته وصفحه وحلمه، حتى لو كان لك عمل أربعين طاغوتاً لظننت أنك ستنجو، إن إبليس يومئذ ليتطاول طمعاً مِمّا يرى من الرحمة»[1]. ومهما يكُن من شأن هذه الرواية ومبلغ صحّتها فإنها لتدلّ على أن محدّثها كان قد رأى من إجلال عمر لِكعب وتعظيمه إياه.

7- كعب الأحبار والخليفة عمر بن الخطاب

اتّصل كعب الأحبار بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ بدء مجيئه إلى المدينة، لأنه نزل عند رجل يقال له مالك، وكان جاراً لِعُمَر ابن الخطاب «فقلت له: كيف بالدخول على أمير المؤمنين، فقال: ليس عليه باب ولا حِجاب، يصلّي الصلاة ثم يقعد فيكلّمه مَن شاء»[2].

ثم لمّا أراد الخليفة أن يزور البلاد التي فتحها المسلمون في العراق والشام جمع الناس واستشارهم في الأمر فقال: إني قد بدا لي أن أطوف على المسلمين في بلدانهم لأنظر في آثارهم فأشيروا عليّ، وكعب الأحبار في القوم. فقال كعب: بأيّها تريد أن تبدأ يا أمير المؤمنين. قال: بالعراق، قال: لا تفعل فإنّ الشرّ عشرة والخَيْر عشرة أجزاء فجزء من الخَيْر بالمَشرِق وتسعة بالمغرب وإنّ جزءاً من الشرّ بالمغرب وتسعة بالمَشرِق وبها قرن الشيطان وكل داء عضال[3]، وهذه النظريّة التي ذكرها كعب عن العراق توافق ما ورد في سِفر إرميا، وما جاء من الشروح في المصادر

1- حلية الأولياء، ج 5، ص 390.
2- تاريخ الطبري، ج 1 ص 2737.
3- تاريخ الطبري، ج1، ص 2514، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ج6، ص 23، المسعودي: مروج الذهب، طبع باريس، ج3، ص 130.

اليهوديّة المتأخّرة[1]، وممّا يجب أن يُشار إليه، إن هذه الرواية، التي نسبها الطبري لِكعب نسبها الثعلبي في قصص الأنبياء إلى النبيّ نفسه[2].

وعلى كل حال، فقد عمل الخليفة بمشورة كعب، وسار يتفقّد شؤون المسلمين في الديار الغربيّة أي الشاميّة، وكان كعب من الذين خرجوا مع الخليفة إلى أمصار الشام، وكان خروج الخليفة من المدينة قبل أن تُسلّم بيت المقدس بأيام قليلة للجيوش الإسلاميّة التي كانت تحاصرها حصاراً شديداً، وكذلك اتفق أن كان خروج الخليفة بعد مدّة وجيزة من انتشار الطاعون بين الجنود. وقد فتك هذا الطاعون فتكاً ذريعاً بالناس، وكان عُبَيْدة بن الجراح من ضحاياه.

ولا نستطيع أن نستخلص من المصادر الإسلاميّة الأسباب التي حملت الخليفة على أن يأمر كعب الأحبار بأن يلتحق برجاله وينضمّ إلى حاشيته في أثناء سَيْره إلى الشام. فهل كان الخليفة يريد أن يكون كعب وسيطاً بينه وبين يهود الشام؟ أو أنه أخذه معه ليقصّ عليه وهو في الأرض المقدّسة قصص بني إسرائيل وأنبيائهم؟ أو أن كعباً كان هو الذي ألحّ على الخليفة في أن يأذن له بالخروج مع المسلمين إلى بيت المَقدس؟ كل هذه أسئلة عنّت على بالنا، ولكن من دون أن نستطيع الإجابة عنها إجابة مقنعة.

على أن يهود الشام كانوا ينتظرون بفارغ الصَبر – كما فعل بعد ذلك أقباط مصر– قدوم الجيوش الإسلاميّة إلى الديار البيزنطيّة، لأنهم كانوا يئنّون تحت حُكم الروم الغشوم، ويتحمّلون مظالمهم القاسية في

1- راجع إرميا، الفصل الأوّل، آية 13 – 16.
2- قصص الأنبياء، للثعلبي، ص 163.

القرن الخامس والسادس وأوائل القرن السابع ب.م.

فقد حدث أن انضمّ اليهود إلى جيوش الفُرس حيث أقبلت طلائعها في سنة 164 ب.م. غازية أطراف الشام، فأخذوا يحاربون البيزنطيين معهم ويكيدون لهم. وقد كُتبت الغلبة في بادئ الأمر للفُرس. ولكن الروم عادوا فجمعوا جيوشاً جرّارة وقاتلوا الفُرس قِتالاً عنيفاً انتهى بانتصارهم عليهم وإخراجهم الفُرس من جميع أمصار الشام[1]. فلمّا تمّت للروم الغَلَبَة على الفُرس أخذوا ينتقمون من اليهود شرّ انتقام فأكثروا القَتل فيهم، ووضعوا القوانين القاسية والقيود الشديدة على مَن بقيَ من جموعهم في الشام ومصر، واستمرّت الحال على هذا المنوال، إلى أن ظهرت الجيوش الإسلاميّة على أطراف بادية الشام، فأخذ اليهود يمدّون إليهم يد المساعدة، حتى أن أحد اليهود كان سبباً في فتح مدينة قيسارية التي بفلسطين، فقد حاصرها المسلمون بقيادة معاوية نحو سبع سنين من دون أن يتمكّنوا من فتحها، حتى جاءها ذلك اليهودي فدلّهم على طريق في سرب به ماء إلى حقو الرجل، فدخلوا منه المدينة وفتحوها[2].

ويَروي الطبري أن يهودياً توجّه إلى عمر في الشام وألحّ عليه ألا يرجع إلى المدينة قبل أن يفتح أورشليم[3].

أما الذي أطلق على عمر بن الخطاب لقب الفاروق فهو رجل من اليهود ومعناه في الآرامية: المخلّص أو المنقذ. وقد أطلقه اليهود على عمر بن الخطاب بعد دخوله بيت المَقْدس. وقال الطبري في تاريخه: بلغنا أن أهل

1- وقد ذكر القرآن هذه المواقع في الآيات الآتية: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۞ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، (سورة الروم آية 1 – 3).

2- فتوح البلدان، للبلاذري، ص 141.

3- تاريخ الطبري، ج1، ص 2402، الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج2، ص 390.

الكِتاب كانوا أوّل مَن قال لِعمر "الفاروق"، وكان المسلمون يؤثرون ذلك من قولهم[1]. ولمّا قدم عمر الجابية قال له رجل من اليهود: يا أمير المؤمنين لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء[2]، فبينما عمر بن الخطاب بها، إذْ نظر كردوس من خيل مُقبل فلمّا دَنَوْا منه سلّوا السيوف. فقال عمر هؤلاء قوم يستأمنون فأمنوهم، فأقبلوا فإذا هم أهل إيلياء فصالحوه على الجزية، وفتحوها له. فلما فتحت عليه، دعا ذلك اليهودي فقيل له إن عنده لَعِلْماً[3]. لمّا دخل عمر الشام تلقّاه رجل من يهود دمشق فقال السلام عليك "يا فاروق" أنت صاحب إيلياء، لا والله لا ترجع حتى يفتح الله إيلياء، وكانوا قد أشجوا عمر وأشجاهم، ولم يقدر عليها ولا على الرملة، فبينما عمر معسكراً بالجابية، فزع الناس إلى السلاح فقال: ما شأنكم، فقالوا: ألا ترى الخَيْل والسيوف، فنظر كردوس يلمعون بالسيوف، فقال عمر: مستأمنة ولا تراعوا، وأمّنوهم فأمِنوهم، وإذا هم أهل إيلياء فأعطوه واكتَتَبوا منه على إيلياء وحيزها، والرملة وحيزها، فصارت فلسطين نصفَين نِصف مع أهل إيلياء ونِصف مع أهل الرملة، وهم عشر كور وفلسطين تعدل الشام كلّه، وشهد ذلك اليهودي الصلح وقد شاع هذا اللقب عند المسلمين واستعملوه كثيراً قديماً وحديثاً.

ولما وصل عمر بن الخطاب إلى الجابية، حيث معسكر المسلمين، جاء إليه رُسُل من بطريَرك أورشليم يطلبون الصُلح، على أن يكون المتولّي

1- تاريخ الطبري، ج1، ص 2792.

2- القدس، أورشليم.

3- تاريخ الطبري، ج1، ص2402.

للعقد عن المسلمين هو عمر بن الخطاب نفسه[1]، فسار الخليفة إلى إيليا ليتولّى عقد الصُلح مع أهلها.

وقد ذكر الطبري أن سفرنيوس *Sofronius*، بطريَرك القُدس، اتّفق مع عمر على أن لا يسمح المسلمون لأحد من اليهود بأن يسكن إيليا[2]، وذكر هذا الشرط ابن العبري المؤرّخ السرياني المتوفّى سنة 685 هجريّة[3]، ومع أنه لم يشِر إلى المصدر الذي استقى منه هذا الخَبَر فَلَيْسَ من شكّ في أنه أخذه من الطبري المتوفّى سنة 310 للهجرة، والذي يمعن النظر في رواية الطبري، يجد أن أسانيده القديمة ترجع إلى القرن الأوّل للهجرة، غير أن الوسيط في نقل الرواية الأخيرة التي اعتمد عليها الطبري مباشرة كان الراوية سَيْف المتوفّى سنة 180 للهجرة. وقد اتّهمه العالِم ولهوزن *Wellhausen*، بأنه كان يهيِّئ كثيراً من الأخبار التاريخيّة وفقاً لمذهبه ونظريّاته في التاريخ[4]. على أن هناك مؤرّخاً عظيماً موثوقاً به كل الثقة من المعاصرين للطبري، وهو سعيد بن بطريك البطريرك الرومي الملكي المتوفّى سنة 328 للهجرة، وهو صاحب التاريخ المعروف باسمه، المشهور بدقّة النقل وشدّة التمحيص، والعناية بتحقيق كل ما يَرْويه، لم يذكر أن عمر حرّم على اليهود أن يستوطنوا بيت المقدس بعد الفتح الإسلامي.

وقد صرّحت المصادر اليهوديّة، بأن جماعة من اليهود كانوا في

1- تاريخ الطبري، ج1، ص 2792، الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ص 390، فتوح البلدان، للبلاذري، ص 144، البداية والنهاية لابن كثير، ج7، ص 55.

2- تاريخ الطبري، ج1، ص 2405، وراجع كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، لمجير الدين الحنبلي، ج1، ص 224 الذي نقل الخبر عن الطبري.

3 –Chronicum Syriacum ed Kirsch. Leipzig 1789 p. 108

4 –Wellhausen: Skizzen und Vorarbeiten Heft IV.

الجيوش الإسلاميّة حين فتحهم للديار الفلسطينيّة عامّة، وفي أثناء حصار بيت المَقْدِس خاصّة، وأنهم اشترطوا على المسلمين أن يطهّروا أرض الحَرَم من الكيمان والأقذار التي وُضعت فيها عمداً في العصر البيزنطي، للانتقام من اليهود وامتهان شعورهم الديني والقومي، وأن بعض اليهود استَوْطَنوا القُدس مع المسلمين، وأنهم اشتروا من المسلمين جبل الطور، وهو جبل الزيتون المطلّ على جبل الحَرَم، وكانوا يأتون من بلدان مختلفة ليجتمعوا عليه ويؤدّوا واجب الصلاة[1].

وكذلك نعلم من رسالة العالِم سليمان بن يروحام القرّائي، الذي عاش في النصف الأوّل من القرن العاشر للميلاد بالقُدْس، أن اليهود أُطلقت لهم حريّة الدخول والسكنى في بيت المَقْدِس، حين ظهور ملَكوت إسماعيل[2]، وكذلك يتّضح لنا من مراجع مسيحيّة، أن اليهود أقاموا ببيت المَقْدِس بعد الفتح الإسلامي مباشرة. يقول ثيوفانس كونفسّور (المعرّف) *Theophanes Confessor*، الذي عاش في نهاية القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للميلاد أن اليهود أشاروا على الخليفة عمر بن الخطاب بإزالة الصلبان من الكنيسة الكُبرى، التي وُجدت على الطور أمام الحَرَم[3].

وكذلك يروي الرحّالة الأسقف أركلف *Arculf*، الذي كان من عنصر غالي (فرنسي)، والذي حجّ إلى ديار فلسطين سنة 670 للميلاد، أي

1-J. Mann: The Jews in Egypt and Palestine under the Fatimid Caliphs I S 43 – 47. Muir: Annals of the early Califate p. 212. Dubnow: Geschichte des Jüdischen Volkes III p. 410.

2 -Neubauer: Aus der Peterburger Bibliothek 109 VII Cp. P. 12.

3- راجع مقالة شوابه "اليهود والحرم بعد الفتح العمري" مجلّة صهيون السنة الثانية ص 102 (Schwabe).

في أثناء خلافة معاوية بن أبي سُفيان. أنه وَجَد في القُدس طائفتَين من اليهود، كانت الواحدة قد اعتنقت المسيحيّة والأخرى على دين أسلافها من اليهود[1].

ويشهد المؤرّخ الأرمني سيوبوس *Seveus*، أن عمر سمح لليهود ببناء معبد للصلاة داخل أرض الحرم[2].

وما من شكّ في أن اليهود استَوْطَنُوا القُدْس وأقاموا بها طوال العصور الإسلاميّة إلى أن تغلّب الصليبيّون على بيت المَقْدس في 15 يوليو سنة 1099، وذبحوا جميع سكّانها من المسلمين واليهود ذبحاً مروعاً.

ويجب أن نلفت الأنظار إلى أن عبد الملك بن مروان، الذي ابْتَنَى قبّة الصخرة والمسجد الأقصى على أرض الحَرَم سنة 690 للميلاد، أمر بإحضار عشر أُسَر من اليهود لتقوم بالحراسة والتنظيف فيهما[3]. وكان له من الخَدَم اليهود الذين لا تُؤخذ منهم جزية عشرة رجال، وتوالدوا فصاروا عشرين لِكَنْس أوساخ المسجد، الناشئ في المواسم والشتاء والصيف ولِكَنْس المطاهر التي حول الجامع.. وله من الخَدَم اليهود جماعة يعملون الزجاج والقناديل والأقداح والثريات وغير ذلك لا تُؤخذ منهم جزية، ولا من الذين يقومون بالقشّ لفتائل القناديل، جارياً عليهم وعلى أولادهم أبداً ما تناسلوا، من عهد عبد الملك بن مروان وهلمّ جرّاً..[4] ثمّة مخطوطة

1- راجع:
Arculf: Eines Pilgers Reise nach dem heiligen Lande um 670 aus dem lateinischen übersetzt und erklärt von Paul Mickley. Leipzig 1917, p. 29-31.

2 –Caetani: Annali der Islam III p. 941 (S 144 17 a. H)

3- الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، لمجير الدين الحنبلي، ج1، ص 249.

4- الأنس الجليل، ج1، ص 249.

قديمة من الجنيزة اليهوديّة بمصر من القرن الحادي عشر للميلاد ، تشهد بأن عمر وافق على استيطان سبعين أسرة من اليهود بالقُدْس، وقد تمّ انتقال هذا العدد من الأُسَر من طبريا ونواحيها ، ونزلت في جنوب المدينة ، وهي موضع حارة اليهود إلى يومنا.

ولا بدّ أن نشير إلى أن اليهود قد انقطعوا عن بيت المَقْدِس من سنة 135 ب.م. التي نشر فيها القَيْصر أدريان مرسومه المشهور الذي أصدر فيه أمره بمنع اليهود من الإقامة بالقُدْس. وهو الذي أطلق عليها اسم إيليا *Aelia Capitolina*، لكن اليهود أعدّوا العدّة للعودة إليها سنة 362، بأمر القَيْصر يوليان الذي رغب رغبة صادقة في أن يعمّر اليهود هيكلهم المُقَدّس. ولكنهم منوا بالخيبة بسبب قتل القَيْصَر بعد عام واحد. فأعيدت الحالة إلى ما كانت عليه من ذي قبل.

ونحن ننقل من مخطوط الجنيزة المذكور ما يلي:

«... ثم أنه أمرهم بكَنْس القُدْس وتنظيفها وعمر يُشرف عليهم.. فكل ما انكشف... سأل شيوخ اليهود عن الصخرة فكان بعض العُلماء يحدّد له الموضع إلى أن انكشف، فأمر بأن يبني سور القُدْس ويبني على الصخرة قبة تُطلى بالذهب. وبعد ذلك أرسل اليهود إلى سائر (بلاد) الشام يعرّفون (إخوانهم) بما وافقهم (عليه) عمر. فأرسلوا إليهم يقولون، وكم يكون عدد القَوْم المنتقلون إلى القُدْس. فدخلوا إلى عمر وقالوا له: وكم يأمر أمير المؤمنين بأن ينتقل إلى هذا البلد من طائفة اليهود ، فقال عمر: ماذا يقول خصمكم ثم تتكلّمون أنتم، وبعد ذلك أقول أنا ما يزيل الخلاف فيما بينكم. ثم أحضر البطريق وأصحابه... فقال البطريق يكون (عدد) المنتقلين بأهاليهم وصبيانهم خمسين بيت، فأجابهم اليهود ما نكون

أقل من مائتَين بيت، فطالت المخاصمة بينهم إلى أن أمر عمر بسبعين بيت. فأجابوا إلى ذلك. ثم أنه قال: أين تحبّون أن تسكنوا في البلد فقالوا: جنوب البلد وهو سوق اليهود. وكان طلبهم قرب القُدْس وأبوابها وكذلك مع السلوان للاستحمام. والسلوان هي القرية الملاصقة البنايات إلى يومنا إلى جبلَيْ صهيون والحرم، وفيها العين المشهورة من أقدم الأزمنة. فأنعم أمير المؤمنين عليهم بذلك. ثم انتقل من طبريا وحولها السبعون بيت بنسائهم وأولادهم وعمّروا ناحيتهم بالبناء...»[1].

أما الذي يُؤسف له أشدّ الأسف فهو أن المخطوط متقطّع في أوّله وفي نهايته. لذلك لا يمكننا أن نحدد زمن تأليفه، ولعلّه قد دوّن في عهد الحاكم بأمر اللّه، الذي فيه ساءت حالة اليهود والمسيحيين، وقد وصل إلينا من ذلك العصر في أدب الجنيزة، مخطوطات كثيرة جداً، يشتمل عدد منها على منقولات عن وثائق سياسيّة قديمة، كان اليهود في حاجة شديدة إليها في أوقات المِحَن والاضطرابات...

والمخطوط مدوّن بالحرف العبري، بأسلوب عربي مشوب ببعض الألفاظ العبريّة، والأغلاط العربيّة الشائعة في الرطانة العربيّة عند اليهود بمصر.

كل هذا لا يُنقص من قيمة المخطوط من الوجهة التاريخيّة، لأنه يؤيّد نظريّة إقامة اليهود بالقُدس منذ الفَتْح الإسلامي، التي وردت في المصادر اليهوديّة والمسيحيّة السالفة الذكر تأييداً جليّاً.

وأيّاً يكُن الأمر فإن المرجّح أن جماعات قليلة من اليهود استَوْطَنَت

1- راجع المخطوط في مقالة العالم سمحا آسف: استيطان اليهود بالمَقْدِس بعد الفتح الاسلامي في مجلّة: الجمعيّة العبريّة للبحث عن العاديات في إسرائيل سنة 7، ص 25 - 27.

بيت المَقْدِس وكَثُرَت على مرّ الزمن، بحيث لم ينقضِ القرن الأوّل للهجرة، حتى كان في بيت المقدس طائفة يهوديّة كبيرة، منقسمة إلى فرقتَين لكل فرقة كنائسها ومدارسها[1].

ولنسرد الآن روايات الطبري عن كعب الأحبار، في أثناء إقامته ببيت المَقْدِس، كي نقف على مبلغ التأثير، الذي كان للمدينة المقدّسة في قلبه، قال الطبري: لما شخص عمر من الجابية إلى إيلياء، فدنا من باب المسجد، قال: أرقبوا لي كعباً. فلمّا انفرق به الباب قال: لَبَّيْكَ اللهم لَبَّيْكَ بما هو أَحَبُّ إِلَيْك، ثم قصد للمحراب محراب داود وذلك ليلاً، فصلّى فيه ولم يلبث أن طلع الفجر، فأمر المؤذّن بالإقامة، فتقدّم وصلّى بالناس وقرأ بهم ص، وسجد فيها، ثم قام وقرأ بهم في الثانية، صدر بني إسرائيل، ثم ركع، ثم انصرف فقال: عليّ بكعب، فأتى به فقال: أين ترى أن نجعل المصلّى. فقال: إلى الصخرة، فقال ضاهيت والله اليهوديّة يا كعب، وقد رأيتك وخلعك نعليك، فقال: أحببت أن أباشره بقدمَيّ. فقال: قد رأيتك، بل نجعل قِبلته صدره كما جعل رسول الله، صلعم، قِبلة مساجدنا صدورها، إذهب إليك فإنّا لم نُؤمر بالصخرة، ولكنّا أُمِرنا بالكَعبة. فجعل قِبلته صدره، ثم قام من مصلاّه إلى كناسة كانت الروم قد دفنت بها بيت المَقْدِس في زمن بني إسرائيل، فلمّا سار إليهم أبرزوا بعضها، وتركوا سائرها. فقال: يا أيها الناس إصنعوا كما أصنع، وجثا في أصلها، وجثا من فرج من فروج قبائه، وسمع التكبير خلفه، وكان يكره سوء الرعة في كل شيء، فقال: ما هذا فقالوا: كبّر كعب وكبّر الناس بتكبيره.

1- راجع كتاب ميخائيل آسف: تاريخ الحُكم العربي في أرض إسرائيل، طبع تل أبيب سنة 1925 ص 109 - 118.

قال: عليّ به، فأتي به فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قد تنبّأ على ما صنعت اليوم نبيٌّ منذ خمسمائة سنة، قال: وكيف، فقال: إن الروم أغاروا على بني إسرائيل فأديلوا عليهم فدفنوه، ثم أديلوا فلم يفرغوا له حتى أغارت عليهم فارس، فبغوا على بني إسرائيل ثم أدليت الروم عليهم إلى أن وليت، فبعث الله نبياً على الكناسة، فقال: أبشري أوري شليم عليك الفاروق، ينقّيك ممّا فيك. وبعث إلى القسطنطينيّة نبي فقام على تلّها فقال: يا قسطنطينيّة ما فعل أهلك ببَيْتي أخربوه وشبّهوك بعرشي، وتأوّلوا عليّ. فقد قضيت عليك أن أجعلك، جلجاء يوماً ما، لا يأوى إليك أحد ولا يستظلّ فيك على أيدي بني القاذر وسبأ وودان، فما أمسوا حتى ما بقي منه شيء..»[1].

وفي رواية أخرى منسوبة لِكعب ورد ما يأتي: «إن القسطنطينيّة شمتت بخراب بيت المَقْدس، فتعزّزت وتجبّرت فَدُعيَت العاتية المستكبرة. فقالت: إن كان عرش الله بُنِيَ على الماء، فقد بُنيت على الماء، فوعدها الله بعذاب قبل يوم القيامة وقال: لأنزعن حليك وحريرك وخميرك ولأتركنّك لا يصرخ ديكك، ولا يقوم أحد إلى جدار من جدرك ولا أجعل لك عامراً إلا الثعالب (حزقيال فصل 13 آية 4) ولا نباتاً إلا الحجارة والينبوت ولا يحول بينك وبين السماء شيء، ولأتركن عليك نيراناً ثلاثة من السماء، ناراً من زفت وناراً من قطران، وناراً من نفط، ولأتركنّك جدعاء قرعاء، وليبلغني صوتك وأنا في السماء...»[2].

ومِمّا لا شكّ فيه أن الذي ألقى تلك الخطبة البليغة بين يَدَيّ الخليفة

1- تاريخ الطبري، ج1، ص 2408 – 2409.
2- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 6، ص 45.

عمر بن الخطاب، أو بالأحرى الذي ألّفها ونمّقها، سواء صحّت نسبتها إلى كعب، أو لم تصحّ، كان ملمّاً إلماماً جيّداً بالتلمود الذي ورد فيه تهديد شديد وإنذار رهيب للروم على ما ارتكبوه من تخريب لديار اليهود ودمار لهيكل أورشليم وتشتيت لبني إسرائيل في جميع أنحاء المعمورة[1].

وهناك رواية تقول، إنه لمّا جاء عمر إلى بيت المَقْدِس، كان معه كعب، فقال: يا أبا إسحاق أتعرف موضع الصخرة، فقال: أذرع من الحائط الذي يلي وادي جهنّم، كذا وكذا ذراعاً، ثم احتفر فإنّك تجدها.

1- راجع التلمود سنهدرين ص 98 "أ". يوما ص 15 "أ".
وكذلك هناك جملة آيات في الكتاب المُقدّس، أمام الراوي في أثناء نقله العبارات المذكورة منها الجملة: «إبشري أوري شلم عليك الفاروق ينقيك ممّا فيك» المذكورة في سفر أشعيا فصل 40 وفصل 41 آية 28، وكذلك الجملة: «أن أجعلك جلجاء يوماً ما لا يأوى إليك أحد ولا يستظلّ فيك» مذكورة في سِفر أشعيا فصل 13 آية 19، ثم الجملة: «على أيدي بني القاذر وسبأ وودان» ورد لها الذكر الصحيح في سفر حزقيال فصل 27 آية 19.
وفي هذه المناسبة نذكر بعض الروايات التي يمتدح فيها كعب بيت المَقْدِس ويجلّها إجلالاً لا مزيد عليه. فقد قيل على لسان كعب: قرأت في التوراة أن الله عز وجل يقول للصخرة أنت عرشي الأدنى، منك ارتفعت إلى السماء ومن تحتك بسطت الأرض، مَن أحبّك أحبّني ومَن أبغضك أبغضني، ومَن مات فيك، فكأنما مات في السماء، وأجعل لِمَن يسكنك، ألا يفوته الخبز والزيت أيام حياته، وكل ماء عذب من تحتك يخرج، لا تذهب الأيام حتى يزف إليك البيت الحرام، وكل بيت يذكر فيه اسمي يحفون بك كما يحف الركب بالعروس. (الهمذاني: كتاب البلدان، طبع ليدن، سنة 1885، ص 97). وقال كعب: من زار البيت شوقاً إليه دخل الجنة ومَن صلّى فيه ركعتيْن خرج من ذنوبه كيَوْم وَلَدَتْه أمّه وأعطي قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً. ومَن تصدّق فيه بدرهم كان فداءه من النار، ومَن صام فيه يوماً واحداً كتبت له براءته من النار... لقد زار جميع الأنبياء بيت المَقدِس تعظيماً له، ولا تسمّوا بيت المَقدِس إيلياء، ولكن سمّوه باسمه فإن إيلياء امرأة بنت المدينة (الهمذاني: كتاب البلدان، ص 95، ياقوت: معجم البلدان ج4، ص 592).

وكانت يومئذ مزبلة فحفروا، فظهرت لهم فقال عمر لكعب: أين ترى أن نجعل المسجد أو القُبلة فقال: إجعلها خلف الصخرة فتجمع القِبلتَين: قِبلة موسى عليه السلام، وقِبلة محمد، صلعم، فقال: ضاهيت اليهوديّة يا أبا إسحاق خير المساجد مقدمها، فبناها في مقدم المسجد[1]. ويظهر أن عبد الله بن سلام، من مسلمة بني النضير بالمدينة، شهد فتح بيت المَقْدِس مع عمر[2]. وتخلّف كعب الأحبار في بيت المقدس بعد أن رجع الخليفة إلى المدينة.

وقد شاء القدر أن يذكر اسم كعب في حادثة اغتيال الخليفة عمر ابن الخطاب، الذي قتله أبو لؤلؤة الفارسي[3]. أمّا الذي ورد عن كعب في تلك الحادثة المحزنة فعليه مسحة من الخرافة. إذ يُقال إن كعباً جاء إلى عمر وقال له: يا أمير المؤمنين أعهد فإنك ميِّت في ثلاثة أيام قال: وما يدريك قال: أجده في كتاب الله عزّ وجلّ التوراة. قال عمر: الله، إنّك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة؟ قال: اللهم لا، ولكني أجد صفتك

1- كتاب الأموال، لأبي عبيد، طبع مصر، سنة 1253 ص 154 والأنس الجليل بتاريخ القُدس والخليل، لمجير الدين الحنبلي، ج1، ص 227.
وواديي جهنّم المذكور في الرواية هو المشهور في الكتاب المُقَدَّس بوادي ابن هنوم الذي كان في الناحية الجنوبيّة الشرقيّة من سُور بيت المَقدِس الذي كان الوثنيين يقدّمون فيه أولادهم ضحايا للصنم (ملك).
ومن هذا اللفظ اشتقّت كلمة جهنم للدلالة على نار الآخرة وموضع تعذيب الأشرار. ولم يطلق هذا اللفظ في الكتاب المُقَدَّس على نار الآخرة وإنما ورد إطلاقه على ذلك في المشنا والتلمود، ومن اليهود انتقل إلى المسيحيين والمسلمين أيضاً، راجع كلمة جهنّم (Gehenna) في دائرة المعارف: The Jewish Encyclopedia V p. 582-584.

2- الأنس الجليل، ج1، ص 232.

3- تاريخ الطبري، ج1، ص 2722.

وحليتك وإنه قد فني أجلك. وكان عمر لا يحسّ وجعاً ولا ألماً، فلمّا كان من الغد جاءه كعب فقال: يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان، ثم جاءه من غد فقال: ذهب يومان وبقي يوم وليلة ولك إلى صبيحتها، فلمّا كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالاً فإذا استوَت جاء هو فكبّر. ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه. فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته، وهي التي قَتَلَتْه. وقُتل معه كليب بن أبي البكير الليثي، وكان خلفه. فلمّا وجد عمر حرّ السلاح سقط، وقال: أفي الناس عبد الرحمن بن عوف؟ فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين هو ذا. قال: تقدّم فصلّ بالناس. فصلّى عبد الرحمن بن عوف وعمر طريح. ثم حُمل فأُدخل داره. فدعا عبد الرحمن بن عوف فقال، إني أريد أن أعهد إليك فقال: يا أمير المؤمنين، نعم إن أشرت عليّ قَبِلْت منك.. ودخل في الناس كعب فلمّا نظر إليه عمر أنشأ يقول:

فأوعدني كعبٌ ثلاثاً أعدوها ولا شكّ أن القولَ ما قال لي كعبُ

وما بي حذار الموت إني لميت ولكن حذارَ الذنبِ يتبعُه الذنبُ[1]

ومع أن الأقدمين لم يتّهموا كعباً بالذات باشتراكه في حادثة التآمر على حياة عمر بن الخطاب، فإن أحد المعاصرين وهو نبيه بك العظم، وجّه تهمة الاشتراك في اغتيال عمر إلى كعب الأحبار، فهو بعد أن وصف حادثة قتل أمير المؤمنين بيد أبي لؤلؤة الأثيمة، قال ما نصّه: ... «كان كعب واقفاً على أمر هذه المؤامرة، فأنذر عمر بالقَتل قبل ثلاثة أيام من قتله. وإلا فقَوْله لِعمر إنه رأى خبر قتله في التوراة كلام غير مقبول،

1- تاريخ الطبري، ج1، ص 2722، تاريخ الكامل، لابن الأثير، ج3، ص 38-39.

يرفضه العقل بتاتاً، وليس عليه دليل. كما أنه ليس لِكعب أن يعلم الغيب، وإنما عِلمه عند الله. ومن المحتمل أن لا يكون لِكعب الأحبار يد في هذه المؤامرة، إلا أنه عَلِمَها وأراد أن يعرض بذكرها لِعمر بالكتابة تحذيراً له. ولم يشأ أن يصرّح له بذلك لأمر لا نعلمه، إلا أن عمر لم يعبأ لسلامة صدره بقوله، ولم يشدّد عليه بالسؤال. وربّما لم يخطر له ذلك الأمر في بال، لِمَا يعلمه في نفسه من القيام على الحقّ والعدل وإنصاف الناس، مسلمهم وغير مسلمهم، عربيّهم وعجميّهم، ومَن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمناً غائلة الناس وغدر الغادرين»[1].

ويظهر أن هذا الرأي وجد قبولاً حسناً عند غيره من الباحثين، فإن الأستاذ عبد الوهّاب النجار، أعلن صراحةً أن حكاية إخبار كعب لِعمر بمصرعه على الوجه المروي لو كانت صحيحة لم يبقَ عند الواقف عليها شك، في أن هذا الرجل كان واقفاً على ما دبّره فيروز أبو لؤلؤة، من اغتيال عمر، وأن خطّة السَيْر للوصول إلى قتله، كان كعب الأحبار عارفاً بها، واقفاً عليها وقفاً تامّاً، وإنما أراد بإخبار عمر على هذا الوجه أن تزيد منزلته عند المسلمين وينال الحظوة فيهم، وتكون رواياته وحكاياته أكثر قبولاً، ولو وجد محقّق ذكي وعرض عليه أمر كعب الأحبار وما أخبر به عمر قبل القتل، ما نجا كعب من النكال ولعدّ شريكاً للجاني»[2].

ولسنا نشكّ، في أن التهمة الموجّهة إلى كعب الأحبار باطلة، لا تعتمد على أي دليل تاريخي، ولم نجد أحداً من العُلماء أو المؤرّخين الذين

1- أشهر مشاهير الإسلام، طبع مصر، سنة 1908 ج 2 ص 474.
2- تاريخ الإسلام: الخلفاء الراشدون، طبع مصر، سنة 1348 ص 250.

بحثوا بحثاً عميقاً مستفيضاً في فجيعة عمر، يلقي تبعة اغتياله على كعب، أو يشير إلى وجود شبهة في اشتراكه، تسرّبت إلى نفوس بعض الصحابة أو التابعين. وعلى العموم فليس من المعقول، أن يشترك كعب في تدبير اغتيال الخليفة، وهو الذي رافقه منذ دخل المدينة وظلّ في صحبته سنين عديدة.

وقد حدث أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب، قتل الهرمزان وجفينة، لأنه اتهمهُما بالاشتراك في تدبير مؤامرة اغتيال والده[1]، وكذلك قتل أبا لؤلؤة[2]. فَلَوْ كان هناك أيّ شكّ في اشتراك كعب في تنظيم الجريمة، لشاع أمره وانكشف سرّه، ولكان سيف عبيد الله قد أصابه كما أصاب غيره مِمَّن حامت الشبهات حولهم. لقد كانت شبهة، ولا شكّ، تلك التي دفعت عبيد الله إلى قَتْل مَن قَتَل، لأنه لم يقُم أي دليل على اشتراكهم في المؤامرة، أو عِلمهم بتدبيرها. ولذلك عنّف الخليفة عثمان بن عفان عبيدالله، على قتله أناساً أبرياءً، كانوا في ذمّة المسلمين[3]، حتى أشار عليه علي بن أبي طالب أن ينفّذ فيه حُكم الإعدام لأنه قتل في الإسلام. ولكن بعض المهاجرين قالوا: قُتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم. فجعلها عثمان ديّة واحتملها في ماله[4].

أما رواية التنبّؤ المنسوب إلى كعب فلا تدلّ على اشتراكه في المؤامرة أو عِلمه بأمرها، فهي لا تعدو أن تكون إحدى تلك الحالات، التي كان بعض أفراد العرب يحسّون فيها بقرب وقوع بعض الحوادث الجسيمة.

1- طبقات ابن سعد، ج3، قسم أول، ص 254.
2- تاريخ الطبري، ج1، ص 2796.
3- طبقات ابن سعد، ج3، قسم أول، ص 254.
4- تاريخ الطبري، ج1، ص 2795.

وقد تنبّأ رجال آخرون من الصحابة بوقوع هذا الحادث الجلل. فقد ورد في كتاب الطبقات، أن بعض الصحابة وبعض الحجّاج وقد تنبّأوا، بأن عمر لا يقف هذا الموقف بعد عامهم ذاك، وأنه سيقتل[1]. ولا أدري لماذا لم يتّهم نبيه بك العظم، والعلاّمة النجار أبا موسى الأشعري ولا غيره مِمَّن تنبأوا في الحجّ وأعلنوا قرب موت الخليفة.

على أن هناك من المؤرّخين الأقدمين مَن لم يذكر شيئاً عن تنبّؤ كعب الأحبار بموت الخليفة، ومن هؤلاء الحافظ أبو سعيد إسماعيل بن علي بن رنجويه الرازي، المتوفّى سنة 445 للهجرة، فإنه لم يذكر كعباً في حادثة اغتيال الخليفة مطلقاً[2].

فالرواية نفسها مشكوك في صحّتها، ويزيد هذا الشكّ، أن رواية الطبري تحدّد ثلاثة أيام لوقوع الحادث، بينما رواية سعد تصل المدة فيها إلى شهر كامل. إذ ورد فيها، أن عمر بن الخطاب دعا أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، وكانت تحته فوجدها تبكي: فقال: ما يبكيك؟ فقالت: يا أمير المؤمنين هذا اليهودي (تعني كعب الأحبار) يقول: إنك على باب من أبواب جهنّم. فقال عمر: ما شاء الله إني لأرجو أن يكون ربّي خلقني سعيداً، ثم أرسل إلى كعب فدعاه. فلما جاءه كعب قال: يا أمير المؤمنين لا تعجل علي والذي نفسي بيده لا ينسلخ ذو الحجّة حتى تدخل الجنّة. فقال عمر: أي شيء هذا مرّة في الجنّة ومرّة في النار. فقال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده إنا لنجدك في كتاب الله على باب من أبواب جهنّم تمنع

1- طبقات ابن سعد، ج3، قسم أوّل، ص 241 - 242.
2- راجع المختصر من كتاب الموافقة بين أهل البيت والصحابة، اختصار جار الله أبي القاسم محمد عمر الزمخشري، مخطوط بدار الكتب المصريّة بالخزانة التيموريّة، تاريخ، رقم 2311 ص 37.

الناس أن يقعوا فيها. فإذا متّ لم يزلوا يقتحمون فيها إلى يوم القيامة»[1].

ثمّة روايتان في كتاب حلية الأولياء عن تنبّؤات لِعمر تذكر الواحدة، أن عمر أرسل إلى كعب فقال له: يا كعب كيف تجد نعتي في التوراة؟ قال: خليفة قرن من حديد لا يخاف في الله لومة لائم، ثم خليفة تقتله أمّته ظالمين له، ثم يقع البلاء بعده[2].

وتذكر الثانية، أن عمر قال لِكعب حدّثنا عن الموت، قال: يا أمير المؤمنين غصن كثير الشوك يدخل في جوف الرجل فتأخذ شَوْكَة بعِرق يجذبه رجل شديد الجَذْب، فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى[3].

وكان كعب الأحبار بين الذين جزعوا لفجيعة عمر، لأنه لمّا طُعن عمر جاء كعب فجعل يبكي بالباب ويقول: والله لو أن أمير المؤمنين يقسم على الله أن يؤخّره لأخّره. فدخل ابن عبّاس عليه فقال: يا أمير المؤمنين هذا كعب يقول: كذا وكذا. قال: إذن والله لا أسأله، ثم قال ويل لي ولأمّي إنْ لم يغفر الله لي[4].

وكان المعاصرون لِكعب يعتقدون أنه يعلم الغيب، ويخبر الناس بما يحدث لهم في المستقبل وقد قال ذات يوم وهو يسير خلف عثمان: الأمير بعده والله صاحب البغلة. وأشار إلى معاوية. ثم لما بلغ الأمر معاوية، وسأل كعباً قال: نعم أنت الأمير بعده، ولكنها والله لا تصل إليك حتى تكذب بحديثي هذا فوقعت في نفس معاوية[5].

1- طبقات ابن سعد، ج3، قسم 1، ص 240.
2- حلية الأولياء، ج6، ص 25.
3- حلية الأولياء، ج5، ص 365.
4- طبقات ابن سعد، ج3، قسم ثان، ص 262.
5- تاريخ الطبري، ج1، ص 2947، الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ج3، ص 123. كتاب أنساب الأشراف، للبلاذري، طبع الجامعة العبريّة بالمَقْدِس، ج5، ص 11.

وكذلك شهد عبدالله بن الزبير لما أتي إليه برأس المختار: ما وقع في سلطاني شيء إلا أخبرني به كعب، إلا أنه ذكر لي أنه يقتلني رجل من ثقيف، وهذه رأسه بين يدَي وما درى أن الحجّاج خُبّئ له...[1].

ونسبت مراجع شيعيّة كذلك علم الغيب لكعب الأحبار، ويتّضح ذلك من الرواية الآتية: قال عمر لكعب الأحبار، حدّثنا عن شيء من التوراة في هذه الأمّة، فقال له علي: وَيْحَك يا كعب تدري ما قلت. قال: نعم. قال: ولا لا يدخلون الجنّة وهي يشهدون أن لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ويصومون ويصلّون. فقال له علي، إنك لتعلم ذلك، وهو أنهم سيظلمون صديق هذه الأمّة وعالِمها الأكبر وخليفة نبيّه من بعده حقه.. وركب حماره منطلقاً إلى قباء. فقال عمر: عهد الله علَيّ إنْ لم يخرج مِمّا قال لأضربن عنقه. إيتوني به الساعة. فلمّا جيء به جلس عنده، فقال هو والله علي بن أبي طالب. فقال عمر: لقد ضلّت أمّة محمد، وعمَوا من بعده، وما حفظوا وصيّته»[2].

1- الإصابة، لابن حجر، ج3، ص 637، تهذيب، ابن حجر، ج8، ص 440، الكامل، ل ابن الأثير، ج4، ص 293، وكذلك يقصّ ياقوت أن في أثناء إقامة عمر بالشام جاءه شريك بن حباشة، وفي يده ورقة يواريها الكف، وتشتمل على الرجل وتواريه فقال يا أمير المؤمنين إني وجدت في القلت (ولعلّها القلت المعروفة إلى يومنا في جهات أريحا القريبة من نهر الأردن) سرباً وأتاني آت فأخرجني إلى أرض لا تشبهها أرضكم وبساتين لا تشبه بساتين أهل الدنيا، فتناولت منها شيئاً فقال لي ليس هذا أوان ذلك. فأخذت هذه الورقة فإذا هي ورقة تين. فدعا عمر كعب الأحبار، وقال أتجد في كتبكم أن رجلاً من أمّتنا يدخل إلى الجنّة ثم يخرج قال نعم وإن كان في القوْم أنبأتك به، فقال هو في القوْم فتأمّلهم فقال هذا هو... (معجم البلدان ج4، ص 157).

2- تنقيح المقال للمامقاني ج2، ص 39 رقم 2882.

8 - كعب الأحبار والخليفة عثمان

كان كعب قد تودّد إلى عثمان بن عفّان، وأخلص له إخلاصاً، كما كان شأنه مع سابقه عمر بن الخطاب.

وكان من جرّاء الاستياء، الذي استولى على قلوب الصحابة، وأصحاب المكانة الرفيعة من الأنصار والمهاجرين، أن بدت بوادر الفِتنة على الخليفة في الأمصار الإسلاميّة، ثم اضمحلّ نفوذه، ولم يستطع أن يقاوم المعارضة ويقضي عليها قبل استفحالها.

وكان الناس يدخلون عليه ويقرّعونه تقريعاً كلّما وجدوا الى ذلك سبيلاً، كما فعل أبو ذر الغفاري، حين دخل على عثمان بن عفان، وعنده كعب الأحبار، فقال لِعثمان: لا ترضوا من الناس بكفّ الأذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدّي الزكاة أن لا يقتصر عليها، حتى يُحسن الى الجيران والإخوان ويصِل القرابات. فقال كعب: مَن أدّى الفريضة فقد قضى ما عليه. فرفع أبو ذر محجنه فضربه فشجّه. فاستوهبه عثمان فوهبه له. وقال يا أبا ذر اتّقِ الله واكفف يدك ولسانك. وقد كان يقول له: يا ابن اليهوديّة ما أنت وما ها هنا والله لتسمعن مني أو لأدخل عليك[1]. وقال عثمان يوماً: أيجوز للإمام أن يأخذ من المال فإذا أيسر قضى. فقال كعب الأحبار: لا بأس بذلك، فقال أبو ذر: يا ابن اليهوديّة أتعلّمنا ديننا. فقال عثمان ما أكثر أذاك لي..[2] وهناك رواية غامضة منسوبة لكعب تدلّ على مبلغ اضطراب النفوس في أخريات أيام عثمان بن عفان. قال كعب

1- تاريخ الطبري، ج1، ص 286، ابن خلدون، تاريخ، طبع مصر، سنة 1284 ج1، ص 139.

2- أنساب الأشراف، للبلاذري، طبع الجامعة العبريّة، ج5، ص 52.

يأتي على الناس زمان ترفع فيه الأمانة وتنزع فيه الرحمة وتكثر فيه المسألة، فمَن سأل عند ذلك الزمان لم يبارك له فيه[1].

9- كعب الأحبار ينزح إلى الشام

رحل كعب إلى الشام في أخريات أيّامه، واستَوْطَن مدينة حمص[2]، ومع أن المصادر الإسلاميّة، لا تذكر سبباً لهجرة كعب إلى الشام، فإننا نعتقد أن الحالة السياسيّة التي كانت عليها المدينة، وبوادر انتشار العصيان على الخليفة، هي التي أدّت إلى خروج الذين آثروا ألا يكونوا بالمدينة في أثناء قيام المِحنة والفِتنة على عثمان بن عفان، وكان عمرو بن العاص من الذين رأوا ببَصيرتهم الثاقبة عاقبة الأمور فنزح الى فلسطين[3].

كذلك نعلم، أن في أثناء وقوع كارثة عثمان، كان عبدالله بن عبّاس في مكّة[4]، وكان بين الذين لم يتخلّفوا عن المدينة عبدالله بن سلام، الذي خاطر بحياته، وقام على باب دار عثمان ينهى المهاجرين عن قتله، وقال يا قَوم: لا تسلّوا سيف الله عليكم، فوالله إن سللتموه لا تغمدوه. وَيْلكم إن سُلطانكم اليوم يقوم بالدرّة، فإنْ قتلتموه لا يقوم إلا بالسَيف. وَيْلكم إن مدينتكم محفوفة بملائكة الله، والله لَئِن قتلتموه

1- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد الأصبهاني، ج5 ص 367.

2- طبقات ابن سعد ج5، ص 156، الطبري، ج3، ص 2484، مروج الذهب للمسعودي طبع باريس، ج4، ص 270.

3- تاريخ الطبري، ج1، ص 2967 تاريخ اليعقوبي ج2، ص 205، الكامل في التاريخ لابن الأثير، طبع ليدن، ج3، ص 89.

4- تاريخ الطبري، ج1، ص 3011، أسد الغابة، ج3، ص 195.

لتتركنها، فقالوا: يا ابن اليهوديّة، وما أنت وهذا. فرجع عنهم[1]. ويذكر في هذه المناسبة، أن صفيّة بنت حيي بن أحطب، قد وضعت خشباً بين منزلها ومنزل عثمان، تنقل إليه الماء والطعام[2].

ويحتمل أن علاقة كعب الحسنة بمعاوية، هي التي جذبته الى الديار الشاميّة، حتى يكون بمعيّته. وكان قد اشترك مع معاوية في غزوة قُبرص مع غيره من الصحابة، أبي الدرداء وأبي ذر الغفاري وعبادة بن الصامت[3] وشداد بن أوس والمقداد بن الأسود وجبير بن نفير[4]، وبسبب المودّة التي كانت بين معاوية وكعب، عرض على الأخير جملة أسئلة، كما يتّضح ذلك فيما بعد، وكان معاوية قد أذن لِكعب أن يقصّ القصص في جامع حمص[5]، فكان هو أوّل مَن قصّ القصص في الجوامع الإسلاميّة. وهي من عادات اليهود، **فإن الأحبار يقصّون على المجتمعين للتعبّد والصلاة قصص أنبياء بني إسرائيل لِلْعِظَة والاعتبار.**

10- كعب والإمام علي

ويظهر أن هذه العلاقات الجيّدة بين كعب ومعاوية، أدّت إلى انتشار نظريّة عند بعض الفِرَق من الشيعة، تقول إن كعباً كان مناوئاً لِعَلي، وإن هذا الأخير قال عن كعب، إنه الكذّاب[6].

1- تاريخ الطبري، ج1، ص 3017.
2- الطبقات، لابن سعد، ج3، ص 9.
3- فتوح البلدان للبلاذري، ص 154.
4- كتاب الأموال، لأبي عبيد، ص 147.
5- الجامع في الحديث، لعبد الله بن وهب، ص 84.
6- تنقيح المقال، للمامقاني، ج 2 ص 39 رقم 9982.

ومع ذلك فثمّة روايات أخرى تدلّ على مكانة كعب الرفيعة عند فِرَق شيعيّة أخرى. فَالفِرَق الشيعيّة، نظراً لِتشعّبها، لم تكُن متّحدة في ميولها الدينيّة والاجتماعيّة.

وقد التقى كعب في الشام بصديقه الحميم أبي الدرداء.

11. وفاة كعب وضريحه

توفّي كعب قبل مقتل عثمان بن عفّان بسنة[1]، وكانت وفاة كعب في سنة 32 أو 34 للهجرة بمدينة حمص[2]. يرجّح هذا الرأي مجير الدين الحنبلي، الذي يعيّن وفاته بحمص، في سنة اثنتَين وثلاثين من الهجرة[3]، على أن ياقوت الحموي وغيره يقولون إن كعباً دُفن بدمشق بالقرب من قبر صديقه أبي الدرداء، ولهما في حمص مقام[4]. ويرجّح ابن بطوطة، أن كعباً مات سنة 34 من الهجرة بدمشق، ودفن بها[5]، وكذلك يقول الهروي، إن كعباً توفي بدمشق ودفن بمقبرة الباب الصغير[6]. على أن المقريزي يذكر أن قبر كعب الأحبار هو بالجيزة من ديار مصر

1- حلية الأولياء، ج6، ص 45.

2- تاريخ الطبري، ج1، ص 2472، تذكرة الحفاظ، طبع حيدر آباد، ج1، ص 49.

3- الأنس الجليل بتاريخ القُدس والخليل، ج1، ص 257، يؤيّد خير الدين الزركلي وفاة كعب بحمص (كتاب الأعلام، قاموس تراجم)، طبع مصر، سنة 1927، ج3، ص 813.

4- معجم البلدان، ج2، ص 336.

5- رحلة ابن بطوطة، طبع دفريمرى Defremery، ص 222.

6- كتاب الأعلام، لأحمد المنيني، المطبعة العصريّة، القُدس، ص 126، بإشراف أحمد سامح الخالدي.

القاهرة[1]. والغريب في الأمر أن الرحّالة الأندلسي محمد أحمد بن جبير المتوفّى سنة 614 للهجرة بالاسكندريّة يؤكّد وجود قبر كعب بالجيزة[2].

ولا بدّ أن نذكر هنا أن الطائفة الإسلاميّة تكوّنت في حمص، قبل أن تتكوّن في دمشق، بدليل وجود قراءة قرآنية نشأت في حمص قبل أن تنشأ في دمشق[3]، ويسرد ياقوت عدّة روايات، تدلّ على أن كثيرين من الصحابة دُفنوا في حمص[4]. لذلك نميل الى رواية الطبري، التي تقول إن إن قَبْر كعب كان بمدينة حمص لا غير.

وفي القاهرة اليوم جامع باسم كعب الأحبار فيه ثلاثة أضرحة، ينسب أحدهم لكعب. وتكثُر هذه المقامات في مصر. وقد شُيِّدت لتخليد ذكرى السَلَف الصالح، وتمكينها في قلوب الشعب الإسلامي. والمقام المشيّد باسم كعب في مصر دليل على انتشار اسمه بين المسلمين. ويعود الفضل في ذلك الى قصص الأنبياء، التي انتشرت انتشاراً واسعاً وذاعت شهرتها خلال عدّة عصور بين الجماهير في مصر[5].

1- خطط المقريزي، طبع مصر، سنة 1324 هـ. ج1، ص 333.

2- رحلة أبي الحسين، محمد أحمد بن جبير، طبع ليدن، سنة 1907، ص 55، ويوجد هذا الخبر أيضاً في كتاب جغرافيّة مصر، تأليف محمد أمين فكري باشا، طبع مصر، سنة 1269 هـ، ص 93.

3- ج. برجشترسر: تاريخ قراءات القرآن، ميونيخ، ص 172.
G. Bergstrâsser: Geschichte des Korantextes p. 172.

4- معجم البلدان، ج2، ص 336.

5- ونذكر بهذه المناسبة أن هناك قصصاً كثيرة، عن يوسف الصديق، منتشرة في الديار المصريّة تُنسب إلى كعب والى هذه القصص يرجع بعض الفضل فيما لسيرة حياة يوسف بمصر من المكانة الخاصّة، ويتّضح ذلك من وجود جامع بدرب الشعانين بالقاهرة يذكر الناس ويتحدثون بأن يوسف عليه السلام بيع في

وينسب الى كعب بعض روايات يذكر فيها، أن جبل المقطّم مُقَدَّس، وأنه أوصى حين حضرته الوفاة أن يجعل في لحده تحت جسده تربة من سفح الجبل المقطّم[1].

وموقع ضريح كعب في القاهرة في دائرة عابدين[2]. أمّا المدخل فَمِن شارع الناصريّة. ويُمكن الوصول إليه كذلك من ناحية حارة السايس.

12. إمرأة كعب الأحبار وأولاده

تذكر كل المصادر والمراجع العربيّة زوجة كعب عموماً، باسم امرأة كعب. وقد جاءت إليه بولدَين من زوج آخر قبله. إذ يُذكر كل منهما باسم ابن امرأة كعب الأحبار[3]، ولكن بما أن كعب الأحبار كان يكنّى بأبي إسحاق، فمِن المحتمل أن يكون له ولد من صلبه يسمّى إسحاق من زوجته هذه، أو من زوجة أخرى لم تتحدّث عنها المصادر. وقد

← مكانه للمصريين. (ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص 554). ويوجد أيضاً "سوق يوسف عليه السلام" بظاهر درب الصفا بالقاهرة (النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة، لتغرى بردى، ج4، ص 91). وكذلك عرف الناس مكان سجن يوسف ببوصير من أعمال الجزيرة، حتى أجمع أهل المعرفة من المصريين على صحّة هذا الزعم، وفي هذا المكان آثار تبيّن سجن يوسف وسطح السجن موضع معروف بإجابة الدعاء... وقال أبو محمد بن محمد بن السلامة الحاوي لو سافر الرجل من العراق ليصلّي في سجن يوسف، وينظر إليه لمَا عنفته في سفره، (خطط المقريزي، ج1، ص 335). وبقلعة القاهرة جُبّ عميق يذكر العامّة بمصر إلى الآن، أنه بئر يوسف عليه السلام.

1- ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص 68.

2- التوفيقيّة، لعلي باشا مبارك، ج2، ص 96.

3- ابن سعد، ج7، قسم ثان، ص 160، تاريخ الطبري ج1، ص 424.

ذكر المؤرّخون ثلاثة أسماء لأبناء امرأة كعب، الأوّل تبيع[1] والثاني نوف[2]. أما العلاّمة النووي فيذكر روايتَين يقول في إحداهما نقلاً عن أبي دريد: إن نوفاً كان ابن امرأة كعب، ويقول في الأخرى إن نوفاً كان ابن أخي كعب[3]. على أنه يؤثر الرواية الأولى على الثانية بقوله "والمشهور الأوّل" ويسمّي ابن قتيبة الولد باسم يثيع[4]. فيخيّل للقارئ بادئ ذي بدء أنه اسم لولد ثالث ولكن بقليل من التأمّل يمكننا أن ندرك أن هذا الاسم إنما هو تحريف للاسم الأوّل نشأ من الخطأ في قراءته. وقد وقع غير ابن قتيبة من العُلماء في الغلطة عينها. فإننا نجد اسم الحرث بن تبيع الذي ورد صحيحاً في كتاب المشتبه[5] ينقلب الى الحرث بن يثيع في تاج العروس[6] وهي قراءة محرّفة.

فمِن هنا يتبيّن أن امرأة كعب لم يكُن لها غير ولدَيْن اثنين، هما تبيع ونوف. وهذان الاسمان من الأسماء التي كانت شائعة في اليَمَن قبل الإسلام أيضاً. فتبيع اسم لأحد ملوك اليَمَن في الجاهليّة. وقد ورد هذا

1- طبقات ابن سعد، ج7، قسم ثان، ص 160. تاريخ الطبري، ج1، ص 163 وص 786، فتوح البلدان، للبلاذري، ص 236، الكامل لابن الأثير، ج4، ص 246، كتاب المشتبه للذهبي ص 69، كتاب طبقات عُلماء أفريقيّة:

Classes des savants de l'Ifriquiya par Tamime et Hosni et Chénéb, Paris.

2- طبقات ابن سعد، ج7، قسم ثان، ص 160، تاريخ الطبري، ج1، ص 418، وص 424، وص 501، و ج3، ص 2527 وص 2554، ابن قتيبة، كتاب المعارف ص 219.

3- محي الدين النووي الشافعي: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، طبع مصر سنة 1283، ج5، ص 135.

4- كتاب المعارف، ص 219.

5- المشتبه، ص 69.

6- تاج العروس، ج 5، ص 287.

الاسم في كتابة منقوشة بالخطّ المسند[1]. وكذلك ورد تبيع في المصادر العربيّة بين أسماء الأعلام اليَمَنِيَّة[2]، كما ورد في كتابات يَمَنِيّة بالخطّ المسند أيضاً[3]، وكما ذكر في كتاب سرياني عن اليَمَن. وكذلك ورد الاسم نوف بين أسماء الأعلام اليَمَنِيَّة[4].

وكان نوف يكنّى بالبكالي، نسبة الى قبيلة في اليَمَن، عُرفت بهذا الاسم[5]. وكان والده فضالة[6] وقد تلقّن تبيع ونوف عِلماً كثيراً من من زوج أمهما. ثم نشرا روايات وقصصاً باسم كعب في مجالس عبدالله بن عبّاس[7]. وعبدالله بن عمرو بن العاص[8]. وكان تبيع عالماً كبيراً[9]. كبيراً[9]. وقد اشترك مع جنادة بن أبي رمية سنة أربع وخمسين في غزوة غزوة أرواد، وهي جزيرة في البحر المتوسط[10]. وكذلك كان نوف عالِماً واسع العِلم، وكان قاضياً وإماماً في مدينة دمشق[11]. وعاش زمناً في الكوفة، حيث كان يعِظ الناس بالقصص والروايات[12]. وكان من

---

1 –Nielsen: Handbuch der altarabischen Altertumskunde.

2- تاج العروس، ج5، ص 287، ابن هشام: سيرة رسول الله، ج1، ص 12، ابن الحائك: صفة جزيرة العرب، ص 135.

3 –Mordtmann und Müller: Sab âiseche Denkm âller, Wien, 188 p. 66f.

4- ورد اسم "نوف" في نقش يمني قديم موجود الآن في متحف جامعة فؤاد الأول بالقاهرة (راجع كتاب: نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها)، الدكتور يحيى نامي، ص 42، طبع القاهرة، سنة 1943.

5- طبقات ابن سعد، ج7، قسم ثان، ص 160، تاريخ الطبري، ج3، ص 2527، وص 2554 تاج العروس، ج7، ص 232.

6- تاريخ الطبري، ج3، ص 2554.

7- تاريخ الطبري، ج1، ص 422.

8- تهذيب الأسماء، ج1، ص 508.

9- طبقات ابن سعد، ج7، قسم ثان، ص 160.

10- فتوح البلدان، للبلاذري 1 ص 236، معجم البلدان، لياقوت ج1، ص 224.

11- المنهاج في شرح مسلم، للنووي، ج5، ص 135.

12- صحيح البخاري، طبع بولاق، سنة 1314، ج6، ص 90. (بالكوفة رجل قاص يقال له نوف).

أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وخواصّه[1]. وقد نسبت اليه قصص قصص كثيرة وروايات عديدة[2] وبعثت أم الدرداء الى نوف البكالي وإلى رجل آخر كان يقصّ مثله فقالت لرسولها: قل لهما لتكُن موعظتكما لأنفسكما[3].

كان نوف[4] وتبيع يقصّان القصص باسميهما كما كان تبيع يروي

1- ورد في كتاب تنقيح المقال، للمامقاني ما يأتي: نوف بن فضالة البكالي أبو يزيد يزيد وأبو عمرو وأبو رشيد من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام. وله عنه رواية تتضمّن مواعظ بليغة يظهر منها جلالته وقوّة إيمانه، قال: أثبت أمير المؤمنين وهو في رحبة مسجد الكوفة فقلت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام يا نوف ورحمة الله وبركاته. فقلت: يا أمير المؤمنين عِظني. فقال: يا نوف أحسن يحسن الله إليك. فقلت: زدني يا أمير المؤمنين. فقال: قل خيرا تذكر بخير. فقلت: زدني يا أمير المؤمنين، فقال: يا نوف اجتنب الغيْبَة فإنها أدام كلاب النار. ثم قال: كذب مَن زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة، وكذب مَن زعم أنه يعرف الله عزّ وجل وهو يجترئ على معاصي الله كل يوم وليلة، وكذب مَن زعم أنه ولد من حلال وهو يبغضني ويبغض الأئمّة من ولدي. يا نوف إقبل وصيّتي لا تكونن لا نقيبا ولا عريفا ولا عشارا ولا بريدا. يا نوف صِل رحمك يزد الله في عمرك، وحسّن خلقك يخفف الله حسبك، يا نوف إنْ سرّك أن تكون معي يوم القيامة فلا تكن للظالمين معينا، يا نوف مَن أحبّنا كان معنا. إحفظ عني ما أقول لك تنَل خير الدنيا والآخرة... ونسب نوف إلى بني بكال بطن من حمير (تنقيح المقال، ج3، ص 276 – 277).

2- تاريخ الطبري، ج1، ص 382، وص 424، وص 501.

3- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 83. ويجدر بنا في هذه المناسبة أن نذكر أنه كان لأبي الدرداء زوجتان كنيَت كل واحدة منهما بأم الدرداء. وكان اسم الأولى حبرة وهي أم الدرداء الكبرى، وسمّيت الثانية هجينة هي أم الدرداء الصغرى. وقد ذاع للثانية شهرة واسعة في الأندية الدينيّة، حتى اعتمد على أسانيدها البخاري ومسلم وغيرهما من أئمّة الحديث. ونعتقد أن أم الدرداء التي أرسلت إلى نوف البكالي كانت هجينة، لأن حبرة توفيت في حياة زوجها الذي انتقل إلى دار الخلود في سنة 32 للهجرة. أما هجينة، فقد عمّرت طويلا، وتوفيت بعد حياة حافلة بأعمال دينيّة جليلة في سنة 81 للهجرة (راجع كتاب التهذيب، ج12، ص 460 – 466، وأسد الغابة ج 5، ص 448 وص 580 وتهذيب الأسماء للنووي، ص 359).

4- كتاب فتوح مصر وأخبارها، تأليف أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد عبد الحكم القرشي المصري، طبع ليدن، سنة 1920 بعناية العالم Charles

يروي عن كعب[1]، عن تبيع عن كعب قال: إن يعقوب عاش في أرض مصر ست عشر سنة فلمّا حضرته الوفاة قال ليوسف لا تَدْفُنّي بمصر وإذا متّ فاحملوني في مغارة جبل حبرون[2]. عن تبيع عن كعب قال: لما مات يوسف استعبد أهل مصر بني إسرائيل[3].

ونودّ قبل أن نختم هذا الفصل أن نذكر رجلَين كانا يمتّان الى كعب بصلة الرحم وهما عمّه ذو الكلاع وابن عم كعب، وإذا كان كعب من عنصر يهودي، فإن عمّه أيضاً من دون شكّ يهودي قبل اعتاقه الإسلام. ونأسف لعدم وصول أخبار عن هذَيْن الرجلَيْن في المصادر الإسلاميّة. ويظهر أنهما لم يكونا من ذوي الحيثيات البارزة، ولم يوجّه إليهما اهتمام خاص. وذكر عمّ كعب، ذو الكلاع، بطريقة غير مباشرة مرتبطاً بحادثة لكعب في أثناء إلقائه القصص في الجامع بمدينة حمص[4]، وذكر ابن عمّ كعب في رواية عند الطبري[5]. من هنا نستخلص أن كعباً لم يُسلم وحده، بل جاء الى المدينة بعد أن التفّ حوله امرأته وأبناؤهما وعمّه وابنه الذين نزحوا بعد إسلامهم الى الأمصار الإسلاميّة.

Torrey ص 26 وص 43.

1- كتاب فتوح مصر، لابن عبد الحكم، ص 42، 44، 125.

2- كتاب فتوح مصر، لابن عبد الحكم، ص 18، وقابل ما ورد في هذا الموضوع، بما ورد في سِفر التكوين، فصل 49 آية 29 – 32.

3- كتاب فتوح مصر، لابن عبد الحكم، ص 19، قابل ما ورد في هذا الموضوع بما ورد في سِفر الخروج، الفصل الأول، آية 8 – 14.

4- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 84، الإصابة، ج3، ص 635.

5- تاريخ الطبري، ج3، ص 2474.

وهكذا ذاعت روايات كعب الأحبار في جميع الأصقاع الإسلاميّة على يد تبيع ونوف وذي الكلاع[1] وابن عمّ كعب[2]. وإليهم يرجع معظم الفضل في تمجيد اسم كعب ورفع شأنه في مختلف الطبقات.



1- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 83.

2- تاريخ الطبري، ج3، ص 2474.

الباب الثاني

مكانة كعب الأحبار في أدب الرواية الإسلامية

فصول الباب الثاني:

1- عقليّة كعب وأحاديثه المنتشرة بين المسلمين.

2- كعب الأحبار وعبد الله ابن عبّاس.

3- كعب الأحبار وأبو هُرَيْرَة.

4- كعب الأحبار وعبد الله بن عمرو بن العاص.

5- رأي كعب الأحبار في أمر عقوق الوالدَين.

6- تراجع تأثير كعب الأحبار في القرن الثاني للهجرة.

7- مَن هو الذبيح: إسحاق أم إسماعيل؟.

8- كعب الأحبار في أدب الفقه.

9- كعب الأحبار في الشِعر العربي.

10-مقياس التحقّق من روايات كعب الأحبار.

1. عقلية كعب وأحاديثه المنتشرة بين المسلمين

يُعدّ كعب الأحبار في نظرنا أعظم مَن اعتنق الإسلام شأناً في القرن الأوّل للهجرة من اليهود، وأقواهم أثراً في المحيط الجديد الذي اختاره لنفسه. فقد كان عبد الله بن سلام ساذجاً وديعاً يؤثر الهدوء والسكينة، ولا يطمح أن يكون له أثر في الشؤون الخطيرة والأمور العظيمة، التي تقع من حوله. وكان وهب بن منبه عليماً بالديانات القديمة والحديثة واسع المعرفة بدقائقها، فصنّف الكثير من الكتب وترك أثراً بيّناً في رجال الدين الذين عاشوا في القرن الثاني للهجرة بالأمصار الإسلاميّة. وكان عبد الله بن سبأ خطيباً مصقعاً ودسّاساً خطيراً يُحكم تدبير المؤامرات، ويحذق في إشاعة الفِتَن، وكان عدوّاً لدوداً لِعثمان وصديقاً مخلصاً لِعلي. وكان يطمح أن يحظى بمنصب كبير في الحياة الدينيّة والدنيويّة، كي يصل الى ما تصبو إليه نفسه. وهؤلاء جميعاً كانوا من أصل يهودي يعلن بعضهم يهوديّته القديمة أو يسكت عن شعوره تجاهها، لكنهم لم يستطيعوا أن ينسلخوا تماماً عن تُراثهم الديني القديم، أو يتجرّدوا من طابعهم القومي الأصيل. أما كعب الأحبار فقد كان يهودياً من المهد الى اللحد، تشبّع بالعقليّة اليهوديّة، حتى برزت فيه هذه النحلة بروزاً لم يُرَ مثله عند غيره من مسلمة اليهود، فقد كان بعد إسلامه كأنه لم يترك دين أجداده، لأنه كان ينظر الى الإسلام بالعين اليهوديّة، ويحلّ جميع ما يعرض له من المشاكل الدينيّة الإسلاميّة بعد أن كان يغوص في الآداب اليهوديّة، وكأن إسلامه لم يكُن إلا تطوّراً طبيعيّاً لحياته في بلاد

العرب، أي في المجتمع العربي، الذي خضع للإسلام بعد أن ظلّ دهراً طويلاً خاضعاً لديانات أخرى. يدرس كعب القرآن ويقابل ما ورد فيه بآيات التوراة، حيث يقول: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام وخاتمة التوراة خاتمة سورة هود...[1] أو أن أوّل ما أنزل من التوراة عشر آيات وهي العشر التي نزلت في آخر الأنعام[2] وسمع كعب رجلاً يقرأ: «قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم» فقال: والذي نفس كعب بيده، إنها لأوّل شيء نزلت في التوراة[3].

وأهم دليل على أن كعباً لم يجد أي تناقض بين دينه وبين دين أجداده القديم أنه لم يرمِ اليهود بتهمة تزوير بعض آيات التوراة، كما فعل عبد الله بن سلام[4] ومحمد بن كعب القرظي[5] اللذان قرّرا أن اليهود حرّفوا بعض آيات التوراة لأغراض معيّنة. ولو صحّ أن كعباً رمى بمثل هذه التهمة لما أحجم أصحاب المصادر الإسلاميّة عن التنويه بذلك والإشارة الصريحة إليه. فعدم وجود شيء من هذا في المصادر العربيّة القديمة دليل ساطع على صحّة ما ذهبنا إليه من رأي كعب الأحبار.

ولم يُخفِ كعب يهوديّته، ولم يحمل عليه أحد بسبب ذلك. بل كان في إسلامه يحمل أسفار التوراة، ويتلو ما ورد فيها وفي التلمود، أمام الجموع الحافلة في المساجد وفي مجلس الخليفة نفسه. فهو لذلك يُعدّ شيخ عُلماء عصره الذين وجّهوا العلوم الدينيّة الإسلاميّة الى الوجهة

1- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني، ج5، ص 378.
2- حلية الأولياء، ج6، ص 13.
3- حلية الأولياء، ج5، ص 383.
4- ابن هشام، ج1، ص 353، مسند أحمد، ج4، ص 6.
5- تاريخ الطبري، ج1، ص 266.

المعروفة بالإسرائيليّات. وكان مقصد الكثير من الصحابة يعرضون عليه أسئلتهم ومشاكلهم.

وكان كعب فطناً ذكياً. يدلّك على ذلك ما رواه الطبري من أنه كان يتعلّم سورة البقرة، وأن رجلاً من أصحاب النبي كان يعلّمه إياها حتى انتهى الى قوله ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. فقال كعب ما أعرف هذا في شيء من كتب الله عزّ وجلّ أنْ ينهي عن الذنب ويعد عليه المغفرة، فأبى الرجل أن يرجع عن ذلك وأبى كعب أن يتابعه، حتى مرّ عليهما رجل من أصحاب النبي فقالا له: هل تقرأ سورة البقرة، فقال: نعم، فقالا: «فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البيّنات»، فقال الرجل «فاعلموا أن الله عزيز حكيم». فقال: نعم هكذا ينبغي أن يكون.[1]

وقد حُفظ في المصادر القديمة تفسير لآيات شتى من القرآن الكريم، كانت متداولة على ألسنة الناس، وهي إن لم تكُن لكعب فهي بلا مراء من صنع الذين تأثّروا بتعاليمه وطريقة بحثه في الشؤون الدينيّة العامّة.[2] وكذلك يُروى أن عمر بن الخطاب أتاه كعب الحبر بسِفر وقال له: هذه التوراة فاقرأها فقال عمر: إن كنت تعلم أنها التي أنزل الله عزّ وجل على موسى فاقرأها آناء الليل والنهار[3].

وكان كعب يشرح بعض الآيات القرآنية العويصة بقصص من التوراة وأسفار الكتاب المقدّس وقصص التلمود وغيرها من الروايات القصصيّة

1- تاريخ الطبري، ج3، ص 2474.
2- راجع تفسير آيات منسوبة لكعب في كتاب حلية الأولياء، ج5، ص 369 – 391.
3- الملل والنحل، لابن حزم، نقلاً عن مقالة الأستاذ جولدتسيهر.
Goldziher Muhammedanishe Polemik ggen Ahl al Kitab in Z.D.M.G. Tome 32, p. 345.

المعروفة بالمدرشيم، حتى انتشرت رواياته بين الصحابة والتابعين، وأصبحت أساساً يُشرح بمقتضاه بعض آيات القرآن، ويُدرس به تاريخ بني إسرائيل. وقد كان الصحابي عبد الله بن عبد القيس ينصت إلى كعب الأحبار في الجامع، وبينهما سِفر من أسفار التوراة. وكعب يقرأ. فإذا أتى على الشيء يعجبه فسّر له، فأتى على شيء كهيئة الراء أو الزاي. فقال يا أبا عبد الله أتدري ما هذا، قال هذه الرشوة أجدها في كتاب الله تطمس البصر وتطبع على القلب[1]. ولا شكّ أن هذا النص هو بعَيْنِه الذي ورد في التوراة وهو كما يأتي: «ولا تأخذ الرشوة لأنها تعمي المبصرين وتعوج كلام الأبرار»[2]. أما ما جاء في هذه الرواية من ذكر حرف الراء أو الزاي ففيه إشارة صريحة إلى حرف الدال الذي في آخر كلمة رشوة بالعبريّة. لأن الدال العبريّة تشبه في الرسم الراء أو الزاي العربيّة، وقد أطلق كعب على عامر بن عبد الله لقب راهب الأمّة[3]. وقد أورد ابن سعد رواية عن كعب تدلّ على أنه كان ذا معرفة دقيقة وخبرة واسعة بأسفار الكتاب المقدّس قال فيها: كان في بنيّ اسرائيل ملك إذا ذكرناه ذكرنا عمر وإذا ذكرنا عمر ذكرناه. وكان إلى جنبه نبيّ يوحى إليه. فأوحى الله إلى النبيّ، صلعم، أن يقول له أعهد عهدك واكتب إليّ وصيّتك فإنك ميّت إلى ثلاثة أيام فأخبره النبي بذلك، فلما كان في اليوم الثالث وقع بين الجدار وبين السرير ثم جأر إلى ربّه فقال: اللهمّ إن كنت تعلم أني كنت أعدل في الحكم وإذا اختلفت الأمور اتّبعت هواك وكنت وكنت،

1- ابن سعد، ج 7، قسم أول، ص 79.

2- سفر الخروج، فصل 23 آية 8.

3- كتاب طبقات ابن سعد، ج 7، قسم أول ص 79. وقد ورد فيه ما يأتي: عن مالك بن دينار قال: لمّا رأى كعب، عامرا بالشام قال مَن هذا؟ قال: عامر بن عبد القيس العنبري البصري راهب هذه الأمّة.

فزِدني في عُمري حتى يكبر طفلي وتربو أمّتي. فأوحى اللّه إلى النبي أنه قد قال كذا وكذا، وقد صدق وقد زدته في عمره خمس عشرة سنة. ففي ذلك يكبر طفله وتربو أمّته، فلمّا طُعن عمر قال كعب لئن سأل عمر ربّه ليبقينه اللّه، فأخبر بذلك عمر، فقال عمر: اللهم اقبضني إليك غير عاجز ولا ملوم[1] وليس من شك أن هذه الروايات من غرر الروايات المنسوبة إلى كعب، وهي ترجمة علميّة دقيقة لِما ورد في سِفر الملوك الثاني، (22/ 1 – 7). ليس من حيث مضمون القصّة فحسب، بل ومن ناحية الأسلوب كذلك، فهو مطابق للنص العبري الأصلي[2].

والطريقة التي يتّبعها كعب حين يناقش الناس في آيات القرآن، هي الطريقة عينها التي يتبعها أحبار التلمود في كثير من الأحوال. ويتّضح ذلك، إذا أمعنّا النظر في ما رواه مالك قال: رأى كعب رجلاً ينزع نعلَيه فقال لمَ خلعت نعلَيك؟ لعلّك تأوّلت هذه الآية ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[3]، ثم قال كعب للرجل أتدري مِمّا كانت نعلا موسى، قال مالك، لا أدري أجابه الرجل، فقال كعب: كانتا من جلد حمار ميّت[4]. وقد أورد الطبري هذه الرواية بنصّها[5]، ولكن بإسناد غير إسناد مالك، مما يرجّح أن المصدر الذي أخذ عنه كل منهما غير الذي أخذ منه

1- طبقات ابن سعد، ج3، قسم أول ص 257.
2- على أن في سِفر الملوك نصّاً واحداً لهذه الرواية فيه تحريف عن الأصل وهي الجملة "حتى يكبر ابني" فإننا نعلم أن الملك منسى بن حزيقة المقصود في القصّة المذكورة قد تولى الملك في عنفوان صباه بعد أن بلغ العام الثاني عشر من عمره.
3- سورة طه رقم 12 آية 20.
4- موطأ مالك، ج3، ص 105، طبع الحلبي بمصر، سنة 1343، وراجع سِفر الخروج، فصل 3 آية 1 – 6.
5- تفسير الطبري، ج16، ص 95.

الآخر. ثمّة فَرق آخر فـي الروايتيْن، يؤيّد اختلاف المصدر، وهـو أن كعباً فـي رواية مالك يوجّه خطابه إلى شخص واحد، بينما هو فـي رواية الطبري يخاطب جماعة من الناس كانوا فـي المسجد، ثم إن مالكاً لا ينسب هـذه الرواية إلا إلى كعب، بينما الطبري ينسبها إليه وإلى غيره من المحدّثين مثل عكرمة وقتادة ووهب بن منبه.

وقد وردت هذه الرواية أيضاً فـي كتاب قصص الأنبياء للثعلبي، الـذي كـان يعيش فـي القـرن الخـامس للهجرة، ولكنهـا لم تنسـب لكعـب ولا لغيره، بـل نسبت للرسـول مباشـرة.[1] ولنسـتدلّ برواية أخـرى علـى طريقة النقاش التلمودي، التي تغلّبت على كعب فـي محاوراته: قـال كعب لأبـي موسى الأشعري: أتـدري كـم عـدد أهـل الجنّـة؟ قـال أبـو موسـى: لا. قـال: أَفَتَدْري كـم هـم مـن صـفّ؟ قـال أبـو موسـى لا. قـال: أَفْتَـدْري مـا بـين كـل صفّيْن قال: لا. قال كعب: هم اثنا عشر صفّاً، أمّـة محمـد صلـى الله عليـه وسلم ثمانية صفوف ما بين كل صفّيْن كما بين المشرق والمغرب[2].

وكـذلك بحثنـا فـي المصـادر اليهوديّة ومراجعها علّنـا نجـد أصـل هـذه الرواية فلم نعثر لها على أثر. فيظهر أنها من القصص، الـتي كانـت شـائعة عند يهود بلاد العرب. تتردّد على الألسن ويتلقّاها فريق من أفواه فريق آخـر من دون أن يكـون لها أصل مدوّن، وهـذا هـو السـرّ فـي نسـيانها، بعـد أن تلاشت الطوائف اليهوديّة من أغلب بلاد العرب، والـذي نعلمـه مـن المصـادر اليهوديّـة هـو أن موسـى الكـليم خَلَـع نعلَيـه تعظيمـاً لله، وكـذلك نعلـم أن

1- قصص الأنبياء للثعلبي، طبع مصر، سنة 1297 هـ ص 171.

2- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج6، ص 14.

سدنة الحرم المقدّس بالقدس كانوا لا يدخلون الهَيكل إلا وهم حُفاة[1].

وقد أنصت الصحابة إلى كعب الأحبار بتسامح عجيب حينما ذكر التوراة وسمّاها بكتاب الله[2] قال كعب: إن الله اختار من البلاد مكّة[3] ثم يقول: كانت الكعبة غثاء على الأرض قبل خلق السموات والأرض بأربعين سنة[4].

وقد أشاد كعب بفضل مكّة والكعبة ومصر ودمشق وحمص وظفار اليَمَن وأجناد الشام وبيت جبرين بفلسطين. ولكنه بالغ في مدح بيت المقدس فنسب إليها من المآثر والمكارم ما لم يُسمع بمثله لغيرها من البلاد على وجه المعمورة[5].

ولا يفوتنا أن نشير، إلى أن غيره من المحدّثين مدحوا كذلك بيت المقدس وقد كان منهم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، المتوفّى سنة 124 للهجرة، الذي كان من أكابر الحفّاظ والفُقهاء، ومن أعلم الناس

1- راجع ما ورد في كتاب مدراش رباه: سِفر الخروج 2، 6 ما يأتي: كل مكان ظهرت السكينة فيه امتنع استعمال الحذاء، وكذلك كان الكهنة حفاةً في أثناء العبادة.

2- طبقات ابن سعد، ج 3، قسم 1، ص 240، تاريخ الطبري، ج1، ص 2722.

3- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 6، ص 15.

4- الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، طبع القاهرة، سنة 1921، ص 18.

5- نودّ أن نشير إلى أن الهمداني صاحب جزيرة العرب كان مشهوراً بكتابه الإكليل، الذي ضاع أغلب أجزائه، وأنقذ من براثن النسيان، الجزء الذي يتضمّن بحوثاً نادرة المثال عن اليَمَن ومساندها ودفائنها وقصورها. وقد نسب الهمداني لكعب الأحبار بعض الروايات التاريخية المتصلة باليَمَن (راجع كتاب الإكليل تأليف أبي محمد الحسن الهمداني تصحيح الأب أنستاس ماري الكرملي البغدادي، طبع بغداد، سنة 1931، ص137 وص155). وراجع فضائل المسجد الأقصى، في كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ص 200 –215.

بالحديث. وفي الجملة يظهر أن هناك أحاديث كثيرة انتحلت في النصف الثاني من القرن الأوّل للهجرة، بين سنة 64 وسنة 73، أي في المدّة التي كان فيها عبد الله بن الزبير خليفة في الديار الحجازيّة، إلى أن قتله الحجّاج بن يوسف، عامل الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان. ففي الفترة التي حُرم فيها أهل الشام من الحجّ إلى الروضة المطهّرة، وإلى مكة المكرّمة مسّت الحاجة القصوى إلى إيجاد أحاديث وروايات تشيد بمناقب بيت المقدس وفضلها على غيرها من المُدن. فانتشرت الروايات التي فيها المدح المبالغ فيه عن بيت المقدس، التي كانت القِبلة الأولى للصلاة، وفي الترغيب في شدّ الرحال إلى مساجد ثلاثة، أحدها المسجد الأقصى ببَيت المقدس وفي فضل الصلاة في المسجد الأقصى وفي فضل الإحرام في بيت المقدس، وفي فضل من أهلّ بعُمْرة من بيت المقدس، وكيف أن الدجّال لا يدخل بيت المقدس، وفي فضل الأذان ببيت المقدس وبيت المقدس أرض المحشر والمنشر وفضل الصخرة وفضل الدفن فيها[1]. وقد بحث الأستاذ جولدتسيهر في هذه المشكلة الخطيرة التي كانت سبباً في نحل كثير من الأحاديث ذات المغزى السياسي. وأشار إلى أن الزهري كان ممَّن أجبروا على قبول روايات موضوعة عن فضل بيت المقدس ومناقبها وشدّ الرحال إليها وفضل الإحرام فيها وإدماجها بالروايات الصحيحة التي كانوا ينشرونها بين الناس[2]. وكان كعب الأحبار ممَّن وُضعت هذه الروايات باسمه ونسبت إليه. ويرجع ذلك إلى شهرته بين الجماهير، كما

1- مسند أحمد، ج2، ص 176، ج 4 ص 67، وص 299، ج5، ص 434 – 435، ج6، ص 463، سنن ابن ماجه، طبع التازي بمصر، سنة1394،ج1، ص428 – 430، سنن النسائي، طبع مصطفى محمد بمصر، سنة 1348،ج2، ص33 – 34.

2 –Ignaz Goldziher: Muh. Studien II S. 35-37.

كان شأن بعض كبار الصحابة والتابعين.

2 - كعب الأحبار وعبد الله بن عبّاس

كان عبد الله بن عبّاس أكثر الصحابة تأثّراً بتعاليم أهل الكتاب عامّة، وبعِلم كعب الأحبار خاصّة. فقد وُلد عبد الله بن عبّاس قبل الهجرة ببضْع سنين. لذلك يعتقد الطبري[1] أن ابن عبّاس كان في التاسعة من عمره حين وفاة الرسول. أما ابن حنبل[2] وابن حجر[3] فيعتقدان أنه حين ذاك لم يكُن قد جاوز العاشرة من عمره. على أن لابن حنبل رواية أخرى[4] يذكر فيها أنه كان قد بلغ الخامسة عشرة. وعلى كل حال لم يكُن عبد الله بن عبّاس، قد جاوز السابعة عشرة من عمره، حين دخل كعب الأحبار المدينة.

ومن المُمْكِن أن نعتقد، أن أغلب ما وصل إلى عبد الله بن عبّاس من معارف ومعلومات إسرائيليّة، إنما أخذه من مسلمة يهود المدينة، بصفة عامّة، ومن كعب الأحبار بصفة خاصّة. ولكن لا يغيب عن البال أن ابن عباس كان قد اتصل بيهود العراق في أثناء ولايته القضاء بالبصرة بأمر من الخليفة علي بن أبي طالب[5]. وكذلك كان بعض اليهود والنصارى يزورونه في الطائف في أواخر أيّامه، ليتناقشوا معه في الشؤون

1- تاريخ الطبري، ج3، ص 2336.

2- مسند أحمد، ج1، ص 356 - 357.

3- تهذيب ابن حجر، ج5، ص 278.

4- مسند أحمد، ج1، ص 373، وراجع ما ورد في كتاب البداية والنهاية، لابن كثير، ج8، ص 295 - 296.

5 -Lidzbarski: De propheticis, p. 41.

الدينيّة[1]. وكانت وفاة عبد الله بن عباس في سنة 57 للهجرة.

وكان كعب الأحبار يطلق على ابن عباس اسم ربّاني[2] وهو اللقب الذي أطلقه القرآن الكريم على أحبار اليهود[3] إقراراً لليهود فيما ألفوه منذ القرن الأوّل ب.م. من إطلاقهم هذا اللقب على كل متعلم منهم كان يتمسّك بمبادئ حزب الفروشيم[4] وإطلاق كعب الأحبار، هذا اللقب على ابن عبّاس وحده دون غيره من الصحابة، فيه إشارة واضحة إلى أن ابن عبّاس، وهو شيخ المحدّثين، قد فاز بأكبر قسط ونال أَوْفَر نصيب من معارف الربّانيين وعلوم الأحبار.

سأل ابن عباس كعب الأحبار عن قوله «يسبّحون الليل والنهار ولا يفترون» ألا يسأمون، فقال: هل يؤدك طرفك؟ هل يؤدك نفسك؟ قال: لا،

1- تاريخ الطبري، ج1، ص 424، طبقات ابن سعد، ج2 قسم ثان ص 12.

2- ورد في كتاب الطبقات لابن سعد (ج 2 قسم ثان ص 123): قال كعب الأحبار لعكرمة مولاك ربّاني هذه الأمّة هو أعلم مَن مات ومَن عاش... لمّا دفن ابن عباس قال ابن الحنفية اليوم مات ربّاني هذه الأمة (طبقات ابن سعد، ج2، قسم ثان، ص 121). وراجع ما ذكر عن كلمة "ربان" في الإسلام عند المستشرقين:
A. Geiger: Was hat Muhammad aus dem Judentum aufgenommen p. 51 J. Horovitz: Koranische Untersuchungen p. 64. G. Dalman: Grammatik des Jüdisch – Palâstinischen Arâmaisch. P. 176. Anm 1.

3- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ...﴾ (سورة المائدة الآية 44).
﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الإِثْمَ...﴾ (سورة المائدة آية 63).

4 –Brüll: Einleitung in die Mishnah p. 51, Zunz: Gottesdienstliche Vortâge I p. 38. Lidzbarski: De Propheticis p. 36.
وراجع لمؤلف هذا الكتاب: تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهليّة وصدر الإسلام، ص 20 – 21.

قال: فإنهم ألهموا التسبيح كما ألهمتم الطرف والنفس[1].

وجاء ابن عباس إلى كعب الأحبار فقال له حدّثني عن قول الله ﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾[2] فقال إنها سِدرة في أصل العرش، إليها ينتهي عِلْم كل عالِم، ملك مقرب، أو نبي مرسل، وما خلفها غيب لا يعلمه الا الله.

وهناك رواية أخرى ورد فيها أن ابن عبّاس سأل كعباً عن سِدرة المنتهى فقال كعب: إنها سِدرة على رؤوس حَمَلَة العرش وإليها ينتهي عِلم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها عِلم، ولذلك سمّيت سِدرة المنتهى، لانتهاء العِلم إليها.

وكذلك سأل ابن عبّاس كعباً عن "أم الكتاب" قال: علم الله ما هو خلق وما خلقه عاملون فقال بعلمه: كن كتاباً فكان[3]، وهذا الذي قاله كعب عن معنى "أم الكتاب" هو بعَينه المذكور في المصادر اليهوديّة عن "أم التوراة" إذا صح هذا التعبير[4].

وكذلك سُئل كعب عن قراءة كلمة "حمئة" التي وردت في سورة

1- تفسير الطبري، ج 17، ص 9، قابل بين هذه الرواية وبين ما ورد في كتاب: مدراش رباه: سِفر التكوين 78: إن جماعة من الملائكة ملهمة في التسبيح والغناء أمام الله نهاراً وليلاً.

2- سورة النجم، آية 13 – 16.

3- تفسير الطبري، ج 13، ص 100، و ج 17، ص 126، وراجع ما ورد عن "أم الكتاب" في سورة آل عمران، آية 6، وسورة الرعد، آية 38، في تفسير الطبري، ج 3، ص 105، وص 115، و ج 13 من ص 97 – 102.

4- مدراش رباه: 1 – 5: خلق البارئ ستة أشياء قبل خلقه الكون، فبعضها خُلقت قبل الكَوْن خَلقاً فعلياً، مثل التوراة والعرش، ومنها ما لم يخلق قبل الكَوْن، ولكن الخالق فكّر في خلقها قبل خلق الكَوْن. كان الله يبصر في التوراة ويخلق الكَوْن.

الكهف آية 86 في قوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ لأن ابن عبّاس وعمرو بن العاص اختلفا في قراءتها فقرأها الأوّل: حمئة، وقرأها الثاني حامئة، وارتفعا إلى كعب الأحبار يسألانه في ذلك، فرجّح قراءة ابن عبّاس، وقال إن العين الحمِئة هي الثاط أو الطين السوداء[1].

على أن لابن هشام وللطبري نفسه رواية أخرى، يذكر فيها أن الاختلاف في ذلك لم يكُن بين ابن عباس وعمرو بن العاص، بل بين الأوّل ومعاوية[2].

ونذكر في هذا السياق، أن أبا بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي الأندلسي الأشبيلي، المتوفّى سنة 546 للهجرة، في شرحه لصحيح الترمذي، لم يَرُقْ له أن يكون كعب الأحبار قاضياً يفصل بين اثنين من الصحابة فقال: ... ولأميّة بن أبي الصلت شِعر لا يقبل منه قوله ولا من كعب، لأن كلامه منقول من التوراة المبدّلة، ولا يُحتاج إليه ولا يُعوّل عليه ولا يصحّ أن يُلتفت إليه[3].

وقد ذكر صاحب الجامع في الحديث عن عبد الله بن عباس عن يزيد بن قوس عن كعب أنه قال: رب قائم مشكور له، ورب نائم مغفور له، وذلك أن الرجلَين يتحابّا في الله، فقام أحدهما يصلّي فرضي الله صلاته ودعاءه، فلم يرد عليه من دعائه شيئاً، فذكر أخاه في دعائه من

1- صحيح الترمذي، طبع التازي بمصر، سنة 1353، ج 11، ص 15 – 56، وتفسير الطبري، ج 16، ص 9.

2- كتاب التيجان، لابن هشام، طبع حيدر آباد، ص 111، وتفسير الطبري، ج 16 ص 8.

3- صحيح الترمذي، طبع التازي، ج11، ص 56.

الليل، فقال: يا رب أخي فلان إغفر له، فغفر له وهو نائم[1].

ويعتقد الأستاذ كايتاني *Caetani*، أن ابن عبّاس كان كثير الاتصال بالمصادر اليهوديّة، وقليل الاتصال بالمصادر المسيحيّة، وأنه لم يكُن له صلة ما بالفرس، ولا بمصادرهم، وأنه قد عرف كيف يصبغ كل ما وصل إليه من المصادر اليهوديّة بالصبغة الإسلاميّة، وهو في تفسيره القرآن يسلك الطريقة نفسها المتّبعة في قصّة التلمود والرواية اليهوديّة في شرحها لآيات التوراة[2].

وقد صرّح العالِم لوث *Loth*، أن ابن عبّاس قد أنشأ مدرسة يهوديّة في الرواية الإسلاميّة وفي تفسير القرآن[3].

ويشكّ العالم شوللي *Schwally*، في صحّة اتصال ابن عبّاس المباشر بكعب الأحبار[4]، أما نحن فلا نشكّ في ذلك مطلقاً، لأن المصادر الإسلاميّة التي تذكر أن ابن عبّاس كان يوجّه الأسئلة إلى كعب، يمكن الاعتماد عليها والوثوق بها. ولنذهب بعين الخيال إلى المدينة المنوّرة، إبّان خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وهي تلك الفترة التي كان فيها ابن عبّاس يعيش في المدينة، ويُعلم أن كعب الأحبار قد ذاع صيته وانتشرت سمعته في مجالس الخليفة وفي اجتماعات الصحابة. فكيف نتصوّر، أن ابن عبّاس، الذي كان منذ شبابه يميل إلى البحث والتنقيب، ويحرص على التعمّق في شرح آيات القرآن الكريم، ويستعين في ذلك بكل مَن له دراية أو لديه رواية، وبكل مَن كان ذا عقل وعِلم من الصحابة والتابعين، وممَّن اعتنق الإسلام قديماً ومَن دخل فيه حديثاً، ثم

1- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 22.

2 –Caetani: Annali dell'Islam Introd. P. 48-49.

3 –Morgenlândische Forschungen. Fleischer-Festschrift S. 298.

4 –Noeldeke Schwally: Geschichte de Qorans II p. 165.

يهمل كعب الأحبار، الذي كان يمتاز بشيء يميل إليه ابن عبّاس بفطرته، وهو الموعظة بالقصّة في القرآن، فهو محتاج بلا شك إلى كعب العالِم الواقف على قصص أنبياء بني إسرائيل، الواردة في التوراة وفي بقيّة الكتب المقدّسة عند اليهود ليشرح له ما غمض عليه أمره منها.

والذي يلوح لنا، أن ابن عبّاس لم يعرف كعباً معرفةً عاديّة فحسب، بل إنه كان يلازمه طويلاً. ويصغي إليه بعناية، ويرتشف من علمه بشوق، فكثرت معارفه وزادت معلوماته، وقويَت مداركه. فانكشفت له أمور كثيرة كانت خافية على غيره من معاصريه[1]. ونرجّح أن ذلك الاتصال المباشر المبارك، بين الشيخ كعب الحديث العهد بالإسلام، وبين ابن عبّاس الشاب المسلم من مهده، قد أنتج تلك العبقريّة الفذّة التي كانت سبباً في تخليد اسم ابن عباس في كتب السنّة الإسلاميّة وفي تفسير القرآن.

3ـ كعب الأحبار وأبو هُرَيْرَة

يعدّ أبو هريرة ثاني المحدّثين، الذين رَوُوا عن الرسول. بل لم ينسب إلى غيره من الصحابة مثل ما نسب إليه من رواية الأحاديث. حتى أن ما جاء في مسند أحمد بن حنبل مرويّاً عنه، لا يقلّ عدد صفحاته عن 314 صفحة، في حين أن ما جاء في المسند نفسه مرويّاً عن ابن عبّاس لم يتجاوز 160

1- راجع النصوص التي ذكر فيها أن ابن عبّاس وجّه أسئلة إلى كعب الأحبار، أو التقى به وتحدّث إليه: طبقات ابن سعد، قسم أوّل ص، 87، تاريخ الطبري، ج1، ص 74، تفسير الطبري، ج16 ص 8، ج17، ص 9 وص126، ج27، ص28، وجامع الترمذي، طبع الهند، سنة 1293، ص 477، حلية الأولياء، ج5، ص 381 وص 382.

صفحة[1]. ومن المعلوم أن أبا هُرَيْرَة قد بلغ ما رَواه من الأحاديث مبلغاً عظيماً لفت أنظار كثيرين من الصحابة[2].

وقد كان أبو هُرَيْرَة يرجع في المسائل الإسرائيليّة إلى كعب الأحبار، كما صرّح هو نفسه بذلك، إذ قال: خرجت إلى الطور، فلقيت كعب الأحبار، فجلست معه فحدّثني عن التوراة، وحدّثته عن رسول الله، صلعم، فكان فيما حدّثته أن قلت: قال رسول الله، صلعم، خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجُمعة، فيه خلق آدم وفيه أُهبط من الجنّة وفيه تِيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة[3]. ومَن مِن دابة إلاّ وهي مصيحة يوم

1- مسند أحمد بن حنبل، ج 2 ص 228، - 425، و ج 1، ص 214 - 374.

2- عن أبي هريرة يقول ما للمهاجرين والأنصار لا يحدّثون عن رسول الله، صلعم، هذه الأحاديث إلخ... عن أبي هُرَيْرَة، أنه كان يقول: لو حدّثتكم بكل ما في جوفي لرميتموني بالعبر... عن أبي هُرَيْرَة لو أنبأتكم ما أعلم لرماني الناس بالخرف وقالوا أبو هُرَيْرَة مجنون... عن أبي هُرَيْرَة: يقولون أكثرت يا أبا هُرَيْرَة والذي نفسي بيده لو حدّثتكم بكل شيء سمعته من رسول الله لرميتموني بالقشع، يعني المزابل ثم ما نظرتموني (طبقات ابن سعد، ج 4، قسم ثان، ص 57) وقد ذكر ابن كثير أن عمر بن الخطاب قال لأبي هُرَيْرَة: لتتركن الحديث عن رسول الله، أو لألحقنك بأرض دوس (البداية والنهاية، ج 8، ص 106) وكذلك روي أن عائشة تأوّلت أحاديث كثيرة عن أبي هُرَيْرَة وَوَهَمَتْه في بعضها. وقد عابت عليه سرد الحديث، أي الإكثار من الساعة الواحدة، (البداية والنهاية، ج8 ص 107). وكذلك راجع ما ذكره المستشرقون في هذه المسألة عن أبي هُرَيْرَة:

Sprenger: Das Leben Muhammeds Bd I p. XXXIII. Goldziher Muh. Studien II. P. 49 anm. 4 Caetani: Annali dell'Islam p. 51 – 53.

3- وردت هذه النظريّة في المصادر اليهوديّة سنهدرين ص 38 ب وفي مصادر مسيحيّة راجع: Schatzhâhle, ed. Bezold. Leipzig 1883 Ubersetzung, p.62.

وقابل في هذه المسألة ما كتبه الأستاذ Lidzbarski في رسالته: opheticis p. 38 anm.6.

ويلاحظ في هذه المناسبة أن الطبري في تاريخه يقصّ هذه الرواية باسم كعب إذ قال: ...عن أبي سلمة أنه سمع أبا هريرة يحدث أنه سمع كعباً يقول: خير يوم طلعت في الشمس الخ (ج1، ص 114).

الجُمعة، من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً الساعة، إلا الجن والإنس، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلّي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه، قال كعب: ذلك في كل سنة يوم[1] فقلت: بل في كل جُمعة، فقرأ كعب التوراة، فقال صدق رسول الله، صلعم، .. ثم لقيت عبد الله بن سلام، فحدّثته بمجلسي مع كعب الأحبار، وما حدّثته به في يوم الجُمعة فقلت: قال كعب ذلك في كل سنة يوم. قال عبد الله بن سلام كذب كعب فقلت: ثم قرأ كعب التوراة فقال بل هي في كل جُمعة فقال: عبد الله بن سلام صدق كعب[2].

وهناك رواية أخرى تُنسب إلى أبي هُرَيْرَة، تذكر أنه لم يسمع من الرسول شيئاً عن فضائل يوم الجُمعة، بل إن كل ما سمِعه في ذلك، إنما هو من عبد الله بن سلام[3]. وكان هو الذي تحدّث مع الرسول عن فضل يوم الجُمعة للمؤمنين[4]. على أن مسلماً في صحيحه، لم ينسب شيئاً مِمَّا رَواه في باب مناقب يوم الجمعة إلى كعب أو إلى عبد الله بن سلام، ولم يذكرهما مُطلقاً في هذا الباب وكل ما رَواه عن ذلك نسبهُ مباشرة إلى الرسول[5]، وهذه إحدى الظواهر الخطيرة التي تعرض للباحث في تطوّر

1- يشير كعب إلى صوم عاشوراء، المعروف بيوم الغُفران، الذي فيه يصلّي اليهود في المعابد طول النهار.

2- كتاب الموطأ، طبع الحلبي، بمصر، سنة 1343، ج 1، ص 131 – 132، سنَن النسائي، ج 3، ص 114، مسند أحمد، ج 5، ص 453.

3- مسند أحمد، ج5، ص 450.

4- مسند أحمد، ج5، ص 451.

5- صحيح مسلم، ج3، ص 288، أما صاحب حلية الأولياء فينسب روايات في مناقب يوم الجُمعة إلى كعب، (حلية الأولياء، ج 5، ص 382).

أسانيد الرواية الإسلاميّة. وهي ظاهرة تلقي شعاعاً من النور، على مصدر كثير من الروايات كانت في بدء الأمر منسوبة إلى أحد الصحابة أو التابعين، ثم حدث أن نُحلت في زمن متأخر ونُسبت إلى الرسول مباشرة.

وتبدو هذه الظاهرة ساطعة لامعة، حينما نجد في المصادر القديمة روايات وجّه فيها أبو هُرَيْرَة السؤال إلى كعب الأحبار، أو إلى عبد الله ابن سلام، ثم نرى هذه الروايات نفسها، قد نُسبت في المصادر المتأخّرة إلى الرسول مباشرة. فلا نشكّ أن أصحاب هذه المصادر وهم بعض جامعي الروايات في القرن الثالث للهجرة، لم يرُق لهم، لأمر من الأمور، أن يقبلوا رأياً من مصدر يهودي، أو مِمَّن اعتنق الإسلام حديثاً، فآثروا أن تروى الرواية وتنسب إلى الرسول مباشرة.

ويحدّثنا صاحب الموطأ بما يأتي: قال عبد الله بن سلام لأبي هُرَيْرَة إن خير ساعة للصلاة تكون آخر ساعة في يوم الجُمعة، فقال له أبو هُرَيْرَة كيف تكون آخر ساعة في يوم الجُمعة وتلك الساعة ساعة لا يصلّى فيها، فقال عبد الله بن سلام ألم يقُل الرسول، صلعم، مَن جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلّي[1].

ويجدر بنا في هذا المقام أن نشير، إلى أن رواية شبيهة بها مذكورة في كتاب الجامع لابن وهب، وهي عبارة عن محادثة بين عبد الله بن سلام وبين كعب، وليس لها صِلة بأبي هُرَيْرَة[2] ثم إننا عثرنا على هذه

1- الموطأ، ج 1، ص 59، النسائي، ج 3، ص 115.

2- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 37، ورد في هذا الكتاب ما يأتي: حدث عمرو بن الحرث، أن عبدالله بن سلام وكعب التقيا فقال أحدهما: إني لأعرف ليلة في السنة ينزل الله فيها إلى سماء الدنيا، فيقول: اليوم أعفو للمؤمنين وأملي للكافرين وأدع أهل الحق حتى ينحلّ حقدهم وقال الآخر: بل هي كل ليلة.

الرواية في كتاب متأخر منسوب لِكعب لا لِعبد الله بن سلام[1].

وليس من شكّ، أن عبد الله بن سلام عرف كعباً إذ عرض عليه في أثناء اجتماع بينهما، عند الخليفة عمر بن الخطاب السؤال الآتي: يا كعب، مَنِ العُلماء؟ قال: الذين يعلمون بالعِلم. قال: فما يذهب العِلم من قلوب العُلماء؟ قال: الطَمَع وشِرِه النَفْس وتطلّب الحاجات إلى الناس، قال صَدَقْت[2].

ونودّ أن نشير، إلى أن أبا هُرَيْرَة كان على كثرة إنتاجه في الحديث يتورّط في بعض الأحوال، ويخلط بين حديث الرسول ورواية كعب الأحبار، كما يتّضح لنا من الرواية المنسوبة لمسلم بن الحجّاج: قال لنا بشر بن سعيد: كنا نجالس أبا هُرَيْرَة فيُحدّث عن رسول الله، ويحدّثنا عن كعب الأحبار، ثم يقوم، فأسمع بعض مَن كان معنا يجعل حديث رسول الله عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله، وفي رواية يجعل ما قاله كعب عن رسول الله، وما قاله رسول الله عن كعب، فاتقوا الله وتحفّظوا في الحديث. وقال يزيد بن هارون، سمعت شعبة يقول: أبو هُرَيْرَة كان يدلّس – أي يروي ما سمعه من كعب وما سمعه من رسول الله، صلعم، ولا يميّز هذا من هذا[3].

1- قوت القلوب، لأبي طالب المكي، طبع مصر، سنة 1310، ج 1، ص 66، قابل بين هذه الرواية وما يقابلها في الآداب اليهوديّة (راجع المشنا، كتاب المشنا براخوت فصل 1/5 والتلمود براخوت ص 32 ب).

2- الإصابة، لابن حجر، ج 3، ص 638.

3- ابن كثير: البداية والنهاية: ج 8، ص 109.

4. كعب الأحبار وعبد الله بن عمرو بن العاص

وثمّة صحابي آخر كان على اتصال وثيق بكعب الأحبار، ذلك هو عبد الله بن عمرو بن العاص. وقد وَرَد عن علاقته بكعب، في كتاب الجامع لابن وهب ما يأتي:«حدّث آوس آن عبد الله بن عمرو بن العاص التقى بكعب فقال له: يا كعب علّمني النجوم فقال كعب: لا خير فيه. قال عبد الله: لِمَ؟ قال: لأن فيه ما تكره، يريد الطيرة. قال كعب: فإن مضى وقال اللهمّ إنه لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا ربّ غيرك. قال ثم سكت، فقال عبد الله بن عمرو: ولا حَوْلَ ولاَ قوّة إلاَ بك. قال كعب: جاء بها عبد الله، والذي نفسي بيده إنها لرأس التوكّل وكنز العبد في الجنّة. ولا يقولها عند ذلك ثم يمضي إلا لم يضرّه شيء. قال عبد الله: أفرأيت إن لم يمضِ وقعد. قال: طعم قلبه طعم الإشراك»[1].

ومضمون هذه الرواية مذكور في مكان آخر من الكتاب نفسه على المنوال الآتي:«سأل كعب الأحبار عبد الله بن عمرو فقال: هل تَتَطَيّر. قال: نعم. قال: كيف تقول إذا تطيّرت. قال أقول اللهمّ لا طير إلا طيرك ولا خير إلا خيرك ولا ربّ غيرك ولا قوة إلا بك. فقال كعب: أنت أفقه العرب وإنها كذلك في التوراة...[2] وَوَرَدَت هذه الرواية عند ابن سعد أيضاً»[3].

ولابن وهب روايتان منسوبتان لكعب الأحبار ورد في واحدة ما يأتي:«حدّث كعب عبد الله بن عمرو بن العاص وقال إنه يدعو يوم القيامة فيقول أين المتحابّون لجلالي فيؤتى بهم. ثم يقول ادعوا إلى جيراني فيقولون

1- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 107.
2- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 108.
3- طبقات ابن سعد، ج4، قسم ثان، ص 13.

ربّنا ومَن جيرانك؟ فيقول عمّارو مساجدي، فيجعلون على كراسيّ تحت العرش ويعتقون النار»[1].

وقد ورد في الثانية :«قال كعب: إن المتحابّين في الله على عُمُدٍ من ياقوت أحمر على رأس العمود مشرفين على أهل الجنّة مكتوب في جباههم، هؤلاء المتحابّون في الله إذا طلع أحدهم ملأ حُسنه أهل الجنّة، كما تملأ الشمس أهل الأرض، يقول أهل الجنّة: هذا رجل من المتحابّين في الله اطلع ينظرون إلى وجهه مثل القمر ليلة البدر[2]».

ولو صحّت هذه الرواية لأمكن الاستدلال منها على مبلغ عواطف كعب الصوفيّة. فهي تدلّ دلالة واضحة على أنه كان راسخ الإيمان بالله شديد الإخلاص لعقيدته، كما هو شأن المؤمنين المتفانين في كل ملّة وكل دين.

5. رأي كعب الأحبار في أمر عقوق الوالدين

سُئل كعب عن عقوق الوالدَين فقال: إذا أمرك أبواك فلم تُطِعهما فقد عققتهما. وإذا دعوا عليك فقد عققتهما العقوق كلّها[3].

وتحدّثنا رواية أخرى باسم سعيد المقبري أنه سمع السلولي يُحدّث نوفل بن مساحق أنه سأل كعب الأحبار: ما تجدون في كتاب الله من عقوق الوالد فقال: إذا أقسم عليه فلم يلوه وسأله فلم يعطه وأتمنه فلم يؤدّه عليه واشتكى إلى الله ما يلقى منه فذلك العقوق كلّه[4].

1- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 29.
2- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 22، حلية الأولياء، ج5، ص 380.
3- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 15.
4- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 11، حلية الأولياء، ج 6، ص14.

وفي رواية أخرى يقول كعب: والذي نفسي بيده إن الله ليجعل خير العبد، وإذا كان عاقاً لوالدَيه ليجعل له العذاب، وإن الله ليزيد في عمر العبد إذا كان باراً بوالدَيه ليزداد برّاً وخيراً. وقال كعب: أجد في كتاب الله أنه إذا دعاه فلم يجبه فقد عقّه، وإذا ألجأه إلى أين يدعو عليه ويبكي إلى الله منه فيما يليه ويليه فقد عقّه كل العقوق، وإذا ائتمنه فخانه فقد عقّه، وإذا سأله مما يقدر عليه فمنعه فقد عقّه[1].

وتعدّ الروايات المذكورة من أقدم ما نُسب إلى كعب في أقدم المصنّفات في الحديث. ولو صحّت لكان لنا فيها خير دليل على كيفيّة تعريفه النظريّات الأخلاقيّة المستمدّة من "كتاب الله".

ونحن نعتقد أن المقصود من السؤال الموجّه إلى كعب: كيف تجدون في "كتاب الله"؟ هو الاستفهام عمّا ورد في هذه المعضلة في كتاب التوراة، إذ لم يكُن الصحابة والتابعون بحاجة إلى أن يسألوا كعباً ما يجده في القرآن عن عقوق الوالدَين.

6. تراجُع تأثير كعب الأحبار في القرن الثاني للهجرة

إن كثرة الروايات المنسوبة إلى كعب الأحبار في المصادر القديمة، تدلّ على ما كان له من المكانة في نفوس الصحابة والتابعين في النصف الأوّل من القرن الأوّل للهجرة، ولسنا بحاجة إلى القول إنّ كل ما ورد عن كعب في تلك المصادر صحيح لا شكّ فيه. ولكن ما يمكننا أن

1- الجامع في الحديث، لابن وهب، ص 18، حلية الأولياء، ج 6، ص22.
ونودّ أن نشير إلى أن الأصبهاني صاحب الحلية ينقل روايات كثيرة باسم ابن وهب وهي غير موجودة في الجامع في الحديث يدلّ ذلك على أن ابن وهب في مؤلّفاته الأخرى لم يحجم عن جمع روايات كعب الأحبار.

نستخلصه هو أن كعب الأحبار كان من الأفراد البارزين الذين كان يعوّل عليهم في أدب الإسرائيليّات وفي كل ما له صِلَة بالمصادر اليهوديّة في بيئة الصحابة والتابعين.

ولكن مع ضعف العناية في القرن الثاني للهجرة بقصص الأنبياء في رواية الحديث، وقلّة الاهتمام بالمراجع والمصادر، التي استقى منها كثيرون من الصحابة والتابعين معلوماتهم، أغفل العُلماء ذكر أسماء الكثيرين، لا سيما مِمَّن كانوا قنطرة الصِلَة بين الإسلام وحضارات الأُمَم الأخرى، فأُهمِل اسم كعب إهمالاً فاحشاً.

7. مَن هو الذبيح: إسحاق أم إسماعيل؟

وأقوى دليل على أن الرأي العام في القرن الثاني للهجرة أخذ يرغب عن كعب ويهمل شأنه عن قصد، هو الخلاف الذي نشأ بين العُلماء المسلمين في مسألة الذبيح: هل كان المفدي إسحاق أم إسماعيل[1]. فإذا نحن تتبّعنا الأحاديث النبويّة في أقدم مصادرها، اتضح لنا أن الرأي السائد في الأندية الإسلاميّة مدى القرن الأوّل للهجرة كان الاعتقاد فيه بأن الذي أمر الله بذبحه إنما هو إسحاق كما هو معروف من التوراة[2]. ويظهر أنه لم يطرأ تغيير على هذا الرأي في أكثر سني القرن الأوّل بدليل أن الأسقف يوحنا الدمشقي أشار في رسالته التي نشرها في أواخر القرن الأوّل للهجرة مناقشاً فيها المسلمين في قداسة الحجر الأسود بمكّة المكرّمة، إلى أن الذبيح هو إسحاق، وقد جاءت إشارته إلى ذلك بعبارة

1- سورة الصافات، آية 101 – 107.
2- سفر التكوين، آية 1 – 19.

يفهم منها أن هذا أمر متّفق عليه بين الفريقَين. ولو كان هناك خلاف بين المسلمين والأسقف في هذا الأمر لما سكت عنه، ولكان تعرّض له ليظهر مبلغ الاختلاف بين العقيدة الإسلاميّة وغيرها من عقائد أهل الكتاب[1].

ولكن حدث في أوائل القرن الثاني للهجرة في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، الذي حكم من صفر سنة 99 إلى رجب سنة 101 للهجرة، أن رجلاً كان يهوديّاً وأسلم فحسن إسلامه صرّح برأي جديد لم يكُن أحد من المسلمين يقول به قبل ذلك، وهو أن إسماعيل هو ذبيح الله وهو الذي فدي بذبح عظيم. فاهتم الخليفة بهذا الأمر[2] وسأل محمد بن كعب القرظي عن رأيه: أي ابني إبراهيم أمر الله بذبحه؟ فقال محمد بن كعب: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين.

وهكذا نشأ الخلاف. ولم يكُن لِيَنْشَأ لو ذكر القرآن اسم المفدي (وفَديناه بذبح عظيم)[3]. على أن الروايات القديمة تُثبت أن النبيّ صرّح بأن الذبيح المفدي هو إسحاق[4]. ولكن بالرغم من هذه الرواية انقسمت الآراء وافترق الناس إلى فريقَين أحدهما ينصر الرأي القديم المعروف في التوراة من أن إسحاق هو ذبيح الله، وآخر ينتصر بغيرة وحماسة للرأي المستحدث القائل بأن إسماعيل هو الذبيح المفدي.

واحتجّ الفريق الأوّل بما رُوي عن كعب الأحبار وأبي هُرَيْرَة وعكرمة

---

1 –Goldziher: Die Richtungen der Koran auslegung.

2- تفسير الطبري، ج 23، ص 48، تاريخ الطبري، ج 1 ص 298، قصص الأنبياء للثعلبي ص 64.

3- سورة الصافات آية 107.

4- تفسير الطبري، ج 23، ص 46.

والسـدّي كمـا اسـتدلّوا بمـا رَواه ابـن عبّـاس عـن الـنبي أن إسـحاق هـو الذبيح[1].

أمـا أصـحاب الـرأي الثـاني، فلـم يعبـأوا بمـا رَواه ابـن عبّـاس، مـن أن الرسول قال إنّ الذبيح هو إسحاق، بل نشروا أحاديث على لسان ابن عبّاس نفسه تقول إن إسماعيل هـو المقصود بالـذبيح. وقـد أسـندت هـذه الأحـاديث برواية أهم تلاميذ ابن عبّاس وهما مجاهد والشعبي[2].

ومِمَّا يجب أن يُلاحظ أن عكرمـة الـذي كـان أيضـاً مـن تلاميـذ ابـن عبّاس لم يَنسب إليه شيء يؤيّد النظريّـة الجديـدة، بـل تـرك يـروي باسـم أستاذه الرواية القديمـة، التـي تثبـت أن إسـحاق هـو الـذبيح. ونحـن نعلـم مـن أوْثَق المصادر أن عكرمة كان أصدق تلاميذ ابن عبّاس فـي الروايـة، وأنـه كان أعلم الناس بكتاب الله[3] والتفسير[4].

ويجدر بنا أن نـذكر أن ابـن سـعد، المتوفّى سـنة 230 للهجرة، والـذي عني بترجمة إسماعيل بن إبراهيم خليل الله[5] وأحمد بن حنبل المتوفّى سنة 241 للـهجرة، والـذي ذكـر إسماعيـل مـراراً[6] لم يتعرّضـا للخـوض فـي مشكلة الذبيح كأنهما يتهرّبان منها ولا يقبلان أن ينتصـرا فيهـا لفئـة مـن

1- تفسير الطبري، ج23، ص 46، تاريخ الطبري، ج 1، ص 265.
2- تفسير الطبري، ج23، ص 48، تاريخ الطبري، ج 1 ص 299، قصص الأنبياء للثعلبي ص 64.
3- المرتضى الزبيدي: إتحاف السادة المتّقين، طبـع مصـر، سـنة 1311، ج4، ص556.
4- طبقات ابن سعد، ج5، ص 212. وقد ذكر ابن سعد باسم عمـرو بـن دينـار قال: «دفع إلي جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة وجعل يقول: هذا عكرمة مولى ابن عبّاس، هذا البحر فسلوه». حلية الأولياء، ج6، ص 326 – 347.
5- طبقات ابن سعد، ج 1، ص 253.
6- مسند أحمد، ج 1، ص 253.

دون الأخرى.

أمّا الطبري، المتوفّى سنة 310 للهجرة، والذي جمع بعناية فائقة كافّة الأحاديث والروايات، التي تستند إليها كل فئة من الفئتَين المختلفتَين، فيرجّح بصراحة وجرأة لا تترك مجالاً للفرض أو التشكّك، أن إسحاق هو المقصود بالذبيح، وأن إسماعيل لم يكُن هو المفدي، وقد ذكر في هذا الموضوع ما يأتي: «وأولى القولَين بالصواب في المفدي من ابنَي إبراهيم خليل الرحمن على ظاهر التنزيل قول مَن قال هو إسحاق لأن الله قال وفدَيْناه بذبح عظيم، فذكر أنه فدى الغلام الحليم، الذي بشّر به إبراهيم حين سأله أن يهب له ولداً صالحاً من الصالحين، فقال ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، (سورة الصافات 100) فإذا كان المفدي بالذبح من ابنَيه هو المبشّر به وكان الله تبارك اسمه قد بيّن في كتابه، أن الذي بشّر به هو إسحاق... فإذا كان ذلك كذلك فمعلوم أن الذي ذُكر تعالى ذكره في هذا الموضع، هو الذي ذُكر في سائر القرآن أنه بشّره به، وذلك لا شكّ أنه إسحاق إذ كان المفدي هو المبشّر به..»[1].

ولم يتردّد العالِم إبراهيم بن محمد البيهقي المتوفّى سنة 320 للهجرة[2] والشاعر أبو العلاء المعرّي، المتوفّى سنة 449 للهجرة[3]، والفقيه عبد القادر الجيلاني المتوفّى سنة 561 للهجرة[4]، في أن يجاهروا، أن إسحاق إسحاق هو الذي كان المفدي من الذبح، على أن الجاحظ المتوفّى سنة

1- تفسير الطبري، ج 23، ص 49.
2- كتاب المحاسن والمساوئ، طبع Schwally ج 1 ص 151.
3- سقط الزند، طبع مصر، سنة 1276، ج 1، ص 64.
4- الغنية لطالبي طريق الحق عزّ وجلّ، طبع مكّة، سنة 1314، ج2 ص40.

225 للهجرة، لم يشأ أن يرجّح أحد الرأيَين بل اكتفى بذكر زُعماء الفريقَين[1]. أمّا الثعلبي، المتوفّى سنة 427 للهجرة، فقد سرد أخبار الخلاف، ورجّح رأي الفئة الثانية، مستدلاً بما رواه الشعبي من أنه رأى قرني الكبش الذي ذبح فداء الذبيح[2]. وقد تعرّض الطبري لهذا التعليل الساذج وقال:«أمّا اعتلال مَن اعتلّ بأن قرن الكبش كان معلّقاً في الكعبة فغير مستحيل أن يكون حُمل من الشام إلى مكّة. وقد رُوي عن جماعة من أهل العِلم أن إبراهيم إنّما أمر بذبح ابنه إسحاق بالشام وبها أراد ذبحه»[3].

وعلى نحو الفئة الثانية، نحا ابن قيم الجوزية المتوفّى سنة 751 للهجرة[4] ومحمد رمضان، من مسلمي جنوب الأندلس، الذي دوّن رسالة باللغة الإسبانيّة عن قصص الأنبياء في سنة 1603 للميلاد[5] والأستاذ عبد الوهاب النجار، الذي يعتقد أن لفظ إسحاق حشر حشراً في غضون قصّة الذبيح في التوراة، وأن المفتدى إنما كان إسماعيل لا غيره[6]، وكذلك ذكر الشريف الرضي الشيعي المذهب، المتوفّى سنة 406 للهجرة، أن المفدي من الذبح كان إسماعيل[7]، ويميل جمال الدين محمد جار المخزومي القرشي من رجالات القرن التاسع للهجرة اعتماداً على بحث

1- كتاب الحيوان، للجاحظ، طبع مصر سنة 1323، ج 1 ص 16.

2- قصص الأنبياء، ص 65.

3- تفسير الطبري، ج 23 ص 49.

4- كتاب زاد المعاد في هدى خير العباد، طبع مصر سنة 1324، ج1 ص16.

5 -M. Grünbaum: Neue Beitrage zur Semitischen Sagenkunde. Leiden 1893, p.249.

6- قصص الأنبياء، طبع مصر سنة 1351، ص 76.

7- تفسير القرآن المسمّى بحقائق التأويل في متشابه التنزيل، تأليف السيد الشريف الرضي، طبع النجف الأشرف، سنة 1936، ج 5 ص 250.

مفصّل عميق في القرآن إلى الرأي بأن إسحاق هو المفدي[1].

ولما كان أغلب عُلماء المسلمين في العصور المتأخّرة قد أخذوا بالرأي الثاني ولم يعبأوا بالحجج، التي استند إليها الفريق الأول، فقد شاع تلقيب كل من سمّي إسماعيل بلقب "أبو الفداء".

ومِمَّن اشتهر بهذا اللقب، إسماعيل بن علي أبو الفداء، المتوفّى سنة 732 للهجرة، صاحب المختصر في أخبار البشر، وأبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي، المتوفّى سنة 774، صاحب البداية والنهاية، وأبو الفداء إسماعيل بن محمد القونوي المتوفّى سنة 1195 للهجرة، صاحب **حاشية القونوي** على تفسير القاضي البيضاوي.

ولقد توسّعنا في ذكر تفاصيل الخلاف في مسألة الذبيح لأننا نعتقد أنها من خيرة الأمثلة، التي يستطيع الباحث أن يسوقها ليوضح مبلغ التقلّبات التي طرأت على بعض الروايات، ويظهر مقدار ما لحقها من عبث، بسبب الأغراض المختلفة والأهواء المتباينة[2].

8. كعب الأحبار في أدب الفقه

ليس لكعب الأحبار في الفقه الإسلامي مكانة ذات قيمة، ولم نجد له في هذا الميدان إلا بعض روايات ذكرها أقدم الجامعين للروايات الفقهيّة الإسلاميّة، فقد وردت عند مالك روايتان فقهيّتان عن كعب

1- الجامع اللطيف في فضل مكّة وأهلها وبناء البيت الشريف، طبع القاهرة، سنة 1921 ص 257 – 258.

2- راجع ما ورد في أمر المفدي من الذبح في كتاب:
Ignaz Goldziher: Die Richtungen der Islamischen Koranauslegung. Leiden 1929 p. 79 – 81.

الأحبار، ذكر في الأولى منهما بإسناد عن عطاء بن يسار أنه سأل عبد الله بن عمرو بن العاص وكعب الأحبار، عن الذي يشكّ في صلاته فلا يدري كم صلّى أثلاثاً أم أربعاً، فكلاهما قال: ليصلِّ ركعة أخرى ثم يسجد سجدتيْن وهو جالس[1].

وذكر في الثانية، وهي أهم من الأولى، عن عطاء بن يسّار أيضاً ما يأتي: «إن كعب الأحبار أقبل من الشام في ركب، حتى إذا كانوا ببعض الطريق وجدوا لحم صيد، فأفتاهم كعب بأكله، فلمّا قدموا على عمر بن الخطاب بالمدينة ذكروا ذلك له فقال: من أفتاكم بذلك قالوا: كعب، قال: فإني قد أمّرته عليكم حتى ترجعوا، ثم لمّا كانوا ببعض طريق مكّة مرت بهم رجل من جراد فأفتاهم كعب أن يأخذوه فيأكلوه. فلما قدموا على عمر بن الخطاب ذكروا ذلك له فقال: ما حملك على أن تفتيهم بذلك قال هو من صيد البحر. قال وما يدريك قال: يا أمير المؤمنين والذي نفسي بيده إن هي إلا نثرة حُوت ينثره في كل عام مرّتين»[2].

وتتضمّن هذه الرواية فَتْوَيَيْن الأولى في بيان لحم الصيد في الحجّ، ويوجد مثل هذه الفتوى، مرويّة عن أبي هريرة، الذي كان على رأس قَوم محرمين بالربذة فاستفتوه في لحم صيد وجدوا ناساً أحلة يأكلونه فأفتاهم بأكله، ثم قدم المدينة على عمر بن الخطاب فسأله عن ذلك فقال: بما أَفْتَيْتهم قال: أَفْتَيْتهم بأكله، فقال عمر: لو أَفْتَيْتهم بغير ذلك لأَوْجَعتك[3].

أما الفتوى الثانية المذكورة في رواية كعب، فهي عن حلّ صيد

1- موطأ مالك، طبع مصر، سنة 1343، ج1، ص 118.
2- موطأ مالك، طبع مصر، سنة 1343، ج1، ص 324.
3- موطأ مالك، طبع مصر، سنة 1343، ج 1، ص 324.

الجـراد المحـرم. وهنـاك روايـة أن عمـرو بـن العـاص دعـا خالـد بـن ثابـت الفهمـي، جـدّ بـني رفاعـة ليجعلـه علـى المكس فاسـتعفاه فقـال عمـرو مـا تكـره منه قال: إن كعباً قال لا تقرب المكس فإن صاحبه فـي النار[1].

9ـ كعب الأحبار والشعر العربي

لم نعثر فـي أشعار المعاصرين لكعب على ما يُثبت اتصاله بالشُعراء، سوى ما جاء فـي رواية واحدة عن عثمان بن أبي عائشـة الـذي قـال: سمع كعب الحبر رجلاً ينشد بيت الحطيئة:

من يفعل الخيرَ لا يُعدمْ جوازيه   لا يذهبُ العرفُ بين الله والناس

فقـال: والـذي نفسـي بيـده إن هـذا البيـت لمكتـوب فـي التـوراة، قـال إسـحاق قال العمري: والذي صحَ عندنا فـي التوراة لا يذهب العرف بـين الله والعباد[2].

10 ـ قياس التحقّق من روايات كعب الأحبار

لم يصـل إلينـا، أن لِكعـب الأحبـار شـيئاً مـن المصنّفات بـل لم يصـل إلينا، أن أحداً من الصحابة أو التـابعين فـي النصـف الأوّل للقـرن الأوّل مـن الهجـرة قـد ألّـف كتابـاً أو دوّن مصـنّفاً، ومـع ذلـك لا نشـكّ فـي أن هنـاك روايات كثيرة قـد دوّنـت فـي أثنـاء القـرن الأوّل للـهجرة، لأن تلاميـذ بعـض الصـحابة كـانوا يـدوّنون الروايـات والقصـص والنظريـات المنسـوبة إلى

1- كتاب فتوح مصر وأخبارها، لابن عبد الحكم، ص 112.

2- أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، طبع بولاق، سـنة 1285، ج2، ص 50. حلية الأولياء ج6، ص 44، وقد ورد هذا البيت من الشعر في ديوان جرول ابن أوس الحطيئة (راجع مقالة العـالم جولدتسـهير I. Goldziher) فـي المجلـة الألمانية الشرقية (Z.D.M.G. X L VI P. 38).

أساتذتهم[1]. وقد ذكر صاحب الفهرس[2] أن كتاب ابن عبّاس الذي رَواه مجاهد وعكرمة، الذي انتقلت رواياته مكتوبة إلى أيدي الناس، كانت من أقدم مصنّفات المسلمين[3]، ومن المعروف أن بعض الصحابة كانوا يدوّنون بأيديهم بعض الروايات، كما ذكر عن ابن عبّاس، أنه كان يكتب على ألواح عن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله[4]، وأن عبدالله بن عمرو بن العاص كان يكتب أحاديثه عنه[5]، وأن أبا هُرَيْرَة لم يكتب. ولكن كاتب مروان كتب عنه كما يتّضح من الرواية الآتية: «كان مروان قد دعا أبا هُرَيْرَة وأقعده خلف السرير، وجعل مروان يسأل وجعل كاتب مروان يكتب عنه، حتى إذا كان عند رأس الحول، دعا به وأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص ولا قدّم ولا أخّر»[6].

وأنّا لنعلم أن ابنَي كعب كانا يدوّنان كثيراً مِمَّا سمعا عن أبيهما[7]. وكذلك نعلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص، كان يكتب أحاديثه ثم ينشرها على الناس[8].

وينبغي أن نشير إلى أن استعمال الأسانيد لم يكُن مألوفاً في النصف

---

1 –Goldziher: Muh, Studien II p. 9 f.

2- فهرس ابن النديم، ص 50، 51، 57 (كتاب ابن عبّاس رواه مجاهد – كتاب تفسير عكرمة رواه عن ابن عبّاس).

3- إحياء، ج 1، ص 79 ، Goldziher: Koranauslegung, p. 76 f.

4- طبقات ابن سعد، ج 3 ص 123.

5- البداية والنهاية لابن كثير، ج 8، ص 106.

6- البداية والنهاية لابن كثير، ج 8، ص 106.

7- تاريخ الطبري، ج 1، ص 424، تهذيب ابن حجر، ج 1، ص 508.

8- البداية والنهاية لابن كثير، ج 8 ص 106.

الأوّل من القرن الأوّل للهجرة[1]، ولذلك فإن كثيراً من الروايات المنقولة عن كعب لم ينسبها تلاميذ ابن عبّاس وأبي هُرَيْرَة إلى كعب، بل نسبوها مباشرة كلٌ إلى أستاذه. وعلى هذا النحو وصلت من السَلَف إلى الخَلَف. وقد نسب ابن جرير الطبري في تفسيره كثيراً من الروايات الإسرائيليّة المأخوذة من التوراة والتلمود لابن عبّاس وأبي هُرَيْرَة وغيرهما من الصحابة والتابعين، مع أننا نعرف يقيناً أنهم إنما نقلوها عن كعب وعن غيره من مسلمة اليهود. وكذلك يستقي الطبري معلومات كثيرة في القصص والإسرائيليّات من مصنّفات وهب بن منبه[2]. وهو الذي اعتمد على كعب كعب في كثير مِمَّا رَوى من أحاديث الأنبياء والعِباد وأحاديث بني إسرائيل.

على أن أغلب ما رواه كعب الأحبار ضاع على مرّ الزمن، واندمجت بعض تعاليمه ورواياته في كُتب وأسانيدهم الصحابة والتابعين والمؤلّفين الآخرين في القرن الثاني والثالث للهجرة.

أما القول، بأن جميع ما نُسب إلى كعب من الروايات منحول ومدسوس عليه، فقول لا أساس له من الصحّة، ولا شكّ في بطلانه، لأن من الذين رَوُوا عن كعب كثيرين من العُلماء والمؤرّخين الأثبات، الذين بلغوا النهاية القصوى من الفضل والأمانة، واليقظة، وماذا نقول في أمثال مالك بن أنس، وعبد الله بن وهب وابن سعد والطبري؟

ولسنا نعني بذلك، أنه ليس هناك شيء منتحل منسوب إلى كعب، فهذا أمر محتمل، ولكن إنكار الجميع ونفي كل شيء فأمر غير معقول

---

1 –Goldziher: Muh. Studien II p. 6. caetani: Annali dell'Islam I p. 31

2 –J. Horovitz. Alter und Ursprung des Isnad im Islam, VII p. 39. Goldziher: Koran auslegung p. 89.

ولا مقبول، كما لا يُعقل ولا يُقبل أن نُنْكر جميع ما ورد عن غيره من الصحابة والتابعين في المدوّنات المذكورة، إذ هناك ولا شكّ روايات تشتمل على أسانيد قويّة لا ريب في صحّتها، ولا شك في تواترها، وكيف يمكن أن نتّهم جميع رجال الإسناد بالرياء والكذب وسوء النيّة وفساد الطوية، ثم إن مَنْ يعرف حمية مالك الدينية ومكانته العلميّة، ومَن وقف على عقليّة عبد الله بن وهب القرشي **"طالب العِلم والحقيقة"**[1]، ومَن درس نفسيّة ابن سعد النزيهة وعقليّته الحصيفة في بحوثه التاريخيّة[2]، ومَن تبيّن مجهود الطبري المؤرّخ والمفسّر[3] الذي كان كالنهر العظيم، قد جمع مياهه المتلاطمة من بحيرات وجداول لا عدّ لها ولا حصر... إن مَن عرف هؤلاء ووقف على مقدار ما بذلوه من مجهود في تأليف مدوّناتهم القيّمة لا يستطيع أن ينفي كل ما ورد فيها من روايات، أو يشكّ في جميع ما أثبت بها من أسانيد، بل الطريقة المُثلى، إنما هي أن نَنْظر في كل رواية على حدة فنفحص أسانيدها ومتنها ونبحث فيها بحثاً تحليلياً نقدياً، ثم نحكم لها أو عليها بالقبول أو بالرفض.

لقد ذكرنا، أن هناك قصصاً دينيّة كثيرة، كانت شائعة بين جميع يهود المعمورة تتداولها الأَلْسُن ويتناقلها الخَلَف عن السَلَف، من دون أن تكون مدوّنة في مصنّف أو مثبتة في كتاب. ولا شكّ أن يهود بلاد العرب، كان لديهم من هذه القصص مثل ما كان لدى غيرهم، وكان

1- راجع مقالتنا في جريدة الأهرام، من يوم 25 نوفمبر سنة 1933 عدد 17590.
2- راجع مقدّمة العلاّمة ساخو لطبقات ابن سعد، ج3، قسم أوّل ص 30.
3- راجع مقالتنا عن الطبري في جريدة الأهرام منيوم 4 يناير سنة 1934، وما ورد في كتاب:

J. Goldziher: Die Richtungen der Koranauslegung p. 86-98.

كعب أحد أعلام اليهود في بلاد اليَمَن قبل اعتناقه الإسلام. فهو بلا شك عارف بهذه القصص، واقف على دقائقها وتفاصيلها. وقد قصّ منها ما شاء أن يقصّ بعد أن اعتنق الإسلام. فأُثبتت في المراجع الإسلاميّة، ولم تُثبت في المراجع اليهوديّة، بل ضاعت هناك مع ضياع المراكز الدينيّة اليهوديّة في بلاد العرب.

ويجب ألا يغيب عن بالنا، أن عدم وجود اسم كعب في أدب الحديث ولا في مجموعاته الصحيحة، لا يدلّ على عدم الثقة بشخص كعب الأحبار كما أراد غير واحد من المتأخّرين أن يذهب إليه، إنما يرجع ذلك إلى أن الأحاديث الصحيحة لم تُجمع إلا لأغراض فقهيّة قبل كل شيء، وعِلم كعب كان في الإسرائيليّات وفي قصص التوراة والتلمود. ويؤكّد لنا الأصبهاني ما يأتي: «لقد أسند كعب عن أكابر الصحابة، عن أمير المؤمنين الفاروق عمر وعن السيد المهاجر المتاجر صهيب بن سنان»[1]. لذلك لم يرد لابن إسحاق ذكر في صحيح البخاري مطلقاً مع أنه جمع أحاديث كثيرة جداً. ولكنه نقلها عن الصحابة والتابعين الذين رَوَوا الأحاديث الفقهيّة، التي لم يكُن لِكعب مجال فيها حتى لم يُرْوَ عنه شيء منها إلا نادراً جداً، لأنه ليس إلا رجل سيرة وبحث في التاريخ.

ثم إن كعب الأحبار لم يكُن صحابياً، فهو لم يرَ الرسول ولم يعرف من أحاديثه أكثر مِمّا سمعه من غيره، لذلك لم يكُن معاصروه يتباحثون معه في أحاديث الرسول كثيراً. ولنا الحق في أن نفرض أن رجال الصحيح لم يشاؤوا أن يعتمدوا على كعب في روايته الحديث، لأنه كان يهودياً قبل أن يعتنق الإسلام، كما فعلوا مع عبد الله بن سلام الذي كان

1- حلية الأولياء، ج 6 ص 45.

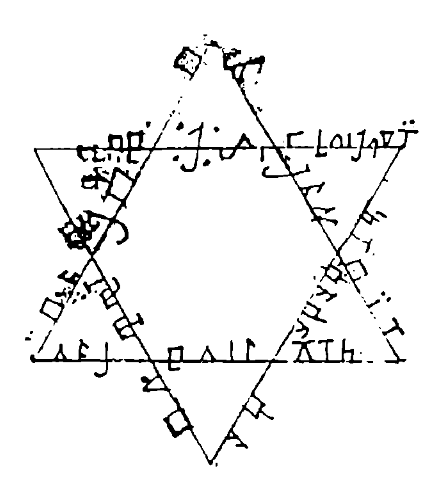
صحابياً جليلاً، وكان من أصدق أصدقاء الرسول منذ دخل يثرب. وكان بلا شكّ قد عرف عن الرسول أكثر مِمَّا عرف أبو هُرَيْرَة، الذي لم يتّصل بالرسول إلا في أواخر أيّامه، وكان عبد الله بن سلام من خيرة الصحابة في التقوى والإخلاص للإسلام، ومع ذلك رغب عنه المحدّثون ولم ينقلوا عنه إلا في النادر وعند الحاجة القصوى.

وكذلك كان شأنهم مع كلّ مَن اعتنق الإسلام من اليهود والمسيحيين. أما اعتمادهم على محمد بن كعب القرظي، وأخذهم بروايته فيرجع إلى أنه لم يُولَد يهودياً بل كان والده قد دخل الإسلام في صباه. فكان هو مسلماً من المهد إلى اللحد، وكان فوق ذلك قد أظهر من الغيرة على الدين الحنيف، ما بلغ حدّ التطرّف وبالغ في الطعن على اليهود، وحمل عليهم حملات شعواء. وقد شهد ابن خلدون، أن العرب لم يكونوا أهل كِتاب ولا عِلم، وإنّما غلبت عليهم البداوة والأميّة، فإذا تشوّفوا إلى معرفة شيء مِمَّا تتشوّف إليه النفوس الإنسانيّة في أسباب المكوّنات وبدء الخليقة وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكِتاب قبلهم ويستقبلونه منهم. وهؤلاء مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم، فامتلأت التفاسير من النقولات عنهم في أمثال هذه الأغراض موقوفة عليهم، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرّى فيها الصحّة، التي يجب بها العمل، وتساهل المفسّرون في مثل ذلك، وملأوا كتب التفسير بهذه النقولات، حتى بعد صيتهم وعظمت أقدارهم بما كانوا عليه من المقامات في الدين والملّة فتلقيت بالقبول من يومئذ...(1).

1- مقدمة ابن خلدون، ج 2 ص 392.

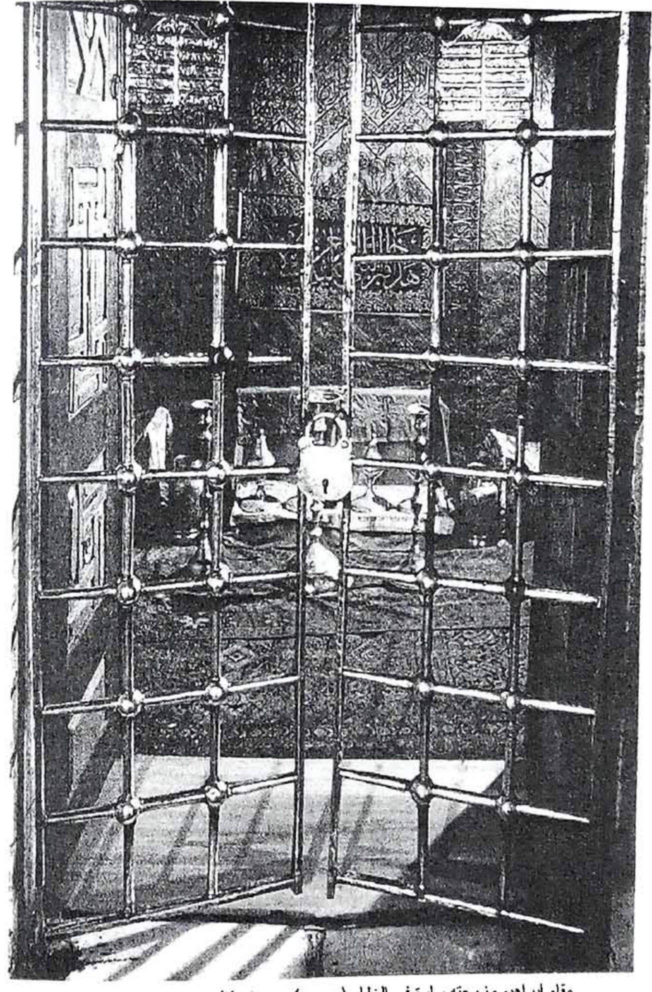
(Prolégomènes d'Ebn Khaldoun premier Tome, deuxième partie, p. 387.)

ونودّ أن نشير في ختام هذا الباب، إلى أن الرأي العام عند رجال الدين من اليهود، قد أظهر سخطاً شديداً على نظريات منسوبة لكعب، حيث قيل إن رأس الجالوت[1] قال لأبي الأسود، إن كل ما تذكرون عن كعب بما يكون أنه يكون إنْ كان. قال لهم، إنه مكتوب في التوراة يسبح لله الطيور والشجر وكذا وكذا، وإنما الذي يحدّث به كعب عمّا يكون من كُتب أنبياء بني إسرائيل وأصحابهم، كما تحدّثون أنتم عن نبيّكم وعن أصحابه...[2].



1- عرف الرئيس العام ليهود بلاد العراق في بعض عصور سابقة للإسلام، وفي أثناء حكم المسلمين في الديار العراقيّة إلى سنة 1040 للميلاد باسم رأس الجالوت.

2- الإصابة لابن حجر، ج3، ص 638.



مقام إبراهيم وزوجته سارة في الخليل (حبرون) وهو يتوسط مسجد وكنيست يهودي

الباب الثالث

كعب الأحبار شيخ قصّاصي الإسلام

فصول الباب الثالث:

1-نمو القصّة الإسلامية بين القرنَيْن الأوّل والخامس.

2-كعب الأحبار في قصص الأنبياء للثعلبي.

3-مقارنة قصص كعب عند الثعلبي والطبري.

4-قصّة الخضر وكعب الأحبار.

5-كعب الأحبار وقصّة إِرَم ذَاتْ الْعِمَادِ.

6-كعب الأحبار في قصص الأنبياء للكسائي.

1. نمو القصة الإسلاميّة بين القرنين الأوّل والخامس

لا شك في أن نشأة القصّة الإسلاميّة تعود إلى عهد الخُلفاء الراشدين، فقد كانت الجماهير الإسلاميّة من ذلك الحين، بحاجة شديدة إلى مَن يفصّل الكلام ويوسع المجال للخيال، في أثناء شرح الآيات القصصيّة من الكتاب الكريم[1].

لذلك انتشر القصّاص في الأمصار الإسلاميّة، وأخذوا يسردون أقاصيصهم لجماهير الناس في الجوامع والمجامع، شارحين القصص القرآنية شرحاً شعبيّاً ملائماً لِمستوى عقول الجماهير. فكان عامّة الشعب يجتمعون رجالاً ونساءً فيستمعون إلى القاصّ بشغف متأثّرين بالمواقف المختلفة تأثّراً شديداً واضحاً، فيهتفون هتافاً حماسيّاً ويرفعون أصواتهم ويمدّون أيديهم[2] كما هو شأنهم إلى اليوم حين يجتمعون في الأندية الشعبيّة وينصتون في ليالي رمضان وفي غيرها إلى القصّاص الذين يقصّون عليهم قِصصاً مختلفة ما بين دينيّة ودنيويّة.

لكن هذا العمل لم يُرضِ الجميع. بل كان كثيرون من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأتقياء يرون فيه "بُدعة" غير مقبولة حتى قيل: «لم يقصّ في زمن رسول الله ولا أبي بكر ولا عمر حتى ظهرت الفِتنة، فلَمّا

1- راجع ما ورد عن القصّاص في كتاب: I. Goldziher: Muhm. Studien p. 161 ff

2- قوت القلوب، ج1، ص 148.

وقعت الفِتنة. ظهر القصّاص»[1].

ولكي نتمكّن من أن نقف وقوفاً صحيحاً على النزاع بين طبقة المحافظين من رجال المسلمين وبين أنصار بدعة القصّة، من أوّل نشأته، نسرد ما ورد في هذا الأمر الخطير في باب الجلوس إلى القاصّ من كتاب الجامع في الحديث، وهو أقدم مصدر إسلامي في هذه المادة:«لم يكُن ابن المسيب يجلس مع القاصّ ولا يسجد معه إذا سجد، وقد حدّث مالك، أن عبد الرحمن بن القاسم كان ألزم شيء لأبيه، ففقده ذات ليلة ثم جاء فقال: أين كنت فقال عند قاصّ، قال: خير إن شاء الله يا بُنَي ولا تعُد مرّة أخرى. عن أزهر بن سعيد قال: سمعت ذا الكلاع يقول: كان كعب يقصّ في إمارة معاوية فقال لي عوف بن مالك يا أبا شرحبيل أرأيت ابن عمك هذا بأمر الأمير يقصّ؟ قال لا أدري، قال: سمعت رسول الله عليه السلام يقول القصّاص، فإنه أمير أو مأمور أو مُختال. وعن كامل بن نفير أن أم الدرداء بعثته إلى نوف البكالي وإلى رجل آخر يقصّان فقالت: قل لهما ليكُن موعظكما الناس لأنفسكما. عن علي بن أبي طالب أنه قال: مَن لا يعلم منسوخ القرآن فلا يقصّ على الناس. قال مالك إن عبد الله بن عمر أقام بعد رسول الله عليه السلام سبعين سنة، وقد كان ابن مسعود وغيره من أصحاب النبي عليه السلام وما أعلم أحداً منهم قصّ. عن مالك بن تميم الداري قال لعمر بن الخطاب دعني أدعو وأقرأ وأقصّ وأذكّر الناس، فقال عمر: فأعاقبك عليه، فقال: إنه يريد أن يقول أنا تميم الداري فاعرفوني، ثم ضربه عثمان بن عفان على القصص في المسجد حيث وجده يقصّ بعد المغرب. عن عبد الله بن أبي فروة قال: رأيت حرس عمر بن

1- المرتضى، الزبيدي، إتحاف السادة، طبع مصر سنة 1280، ج1، ص 243.

عبد العزيز يتبعون القصّاص في المسجد يخرجونهم من المساجد. عن عمرو بن دينار أن تميم الداري استأذن عمر بن الخطاب في أن يقصّ فقال: إن شئت أذنت لك وهو الذبح وأشار بيده إلى حلقه. ودخل عوف بن مالك الأشجعي مسجد حمص، ومعه ذو الكلاع من حمير فقال له عوف: هذا ابن عمّك يقصّ، فقال ذو الكلاع: وما يمنعهم وهو حبر هذه الأمّة. فقال عوف: أما أنا سمعت رسول الله، صلعم، يقول: لا يقصّ في مسجدنا إلا أمير أو مأمور أو مختال عن أبي صالح الغفاري قال: بينما سليم بن عتر يقصّ على الناس إذ قال شَيْخ من بَني غفار: ما قطعنا أرحامنا ولا ساءت ذات بيننا حتى قام هذا ونحوه بين أظهرنا. وقعد سلمان الفارسي يوماً مع ناس من قريش والأنصار، فلمّا أراد أن يقوم سألوه أن يدعو لهم، فلمّا كان من الغد قعد إليهم فسألوه أن يدعو لهم فأبى، فقالوا له أصلحك الله قد دعوت لنا أمس فما بالك اليوم، قال: وَدَدْتُ أني بمجلسي أمس كفاني، لا علي ولا لي، وأتاني الشيطان فقال: رجال قريش والأنصار يأتورْك في دعائك...[1].

ولكن رغم مقاومة الخُلفاء والأتقياء، فإن القصّة انتشرت في الأمصار انتشاراً عجيباً لم يقوَ على إضعافه والتقليل منه إخراج القصّاصين من المساجد[2]، وضربهم بالسياط[3]، وإنذار الخليفة المعتضد ببغداد، بألا يقصّ القصّاص في الطُرق والمساجد[4] بالتوبيخ والإهانة حتى قيل

1- الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب باب الجلوس إلى القاص من ص 83 سطر 5 إلى ص 85 سطر 4.
2- قوت القلوب، ج1، ص 148، منتخب كنز العُمال لعلاء الدين الهندي على هامش مسند أحمد، طبع مصر سنة 1313، ج4، ص 56.
3- كتاب الإحياء للغزالي، ج3، ص 279.
4- تاريخ الطبري، ج3، ص1231، إتحاف السادة للزبيدى ج1، ص242.

أكذب الناس القصّاص[1]. وقد شاعت القصّة شيوعاً عظيماً[2] لأن هذا النوع من الأدب كان من لوازم الدين عند الطبقات الشعبيّة.

وكان من أهم موضوعات القصّة ما ورد حول الآيات القصصيّة في القرآن عن أنبياء بني إسرائيل، وقد بذل القصّاص مجهوداً عظيماً في جمع ما وصل إليهم من الأخبار عن طريق اليهود والمسيحيين، وزادوا عليه ما اخترعته مخيّلتهم الخصبة، ثم ألبسوه بمهارة مسحة إسلاميّة توافق المبادئ الإسلاميّة وترضي المجتمع العربي في الوسط الإسلامي.

وإلى هذا النوع من الأدب القصصي المعروف بأدب قصص الأنبياء، يتّصل اسم كعب اتصالاً وثيقاً. ومع أنه لم يذكر في المصادر الإسلاميّة باسم قصاص بل باسم راوية، فهو يعدّ شَيخ القصّاصين لأخبار بني إسرائيل عند المسلمين.

وكان كعب يقصّ في المساجد والمجالس علانيّة أمام الخُلفاء والصحابة التابعين. ولا نتردّد في التصريح بأن كعباً لم يترك شيئاً مدوّناً في القصص، بل ترك قصصه روايات تنتقل من السَلَف إلى الخَلَف. وقد ذكرنا من قبل أن الصحابة والتابعين، لم يتركوا كتاباً منسوباً إليهم. وقد كان الاعتقاد الشائع في الأندية الإسلاميّة منذ عصور كثيرة، أن أوّل مَن دوّن في قصص الأنبياء هو عبيد بن شرية، الذي إليه نسب كتاب **الملوك وأخبار الماضين**[3]. وليس ما يدلّ على ما إذا كان عبيد نفسه، هو الذي كتب مصنّفه بيده، أم أن تلاميذه هم الذين صنّفوه ثم نشروه باسم أستاذهم.

1- إتحاف السادة، ج1، ص 243، قوت القلوب، ج1، ص 143.

2- الجاحظ، كتاب الحيوان طبع عبد السلام محمد هارون بمصر سنة 1938 (عبد الأعلى القاص)، ج1، ص 107، (أبو كعب القاص)، ج3، ص 24 – 25.

3 –C. Brokelman: Geschichte der Arabischen Litteratur I p. 64.

أما المستشرقون، فيشكّون في صحّة وجود كتاب في القصص منسوب لعبيد بن شرية. وقد ذهب العالِم ليدسبرسكي في شكّه إلى إنكار وجود عبيد نفسه، وإنما هو في نظره شخصيّة خياليّة خرافيّة، لا أصل لها في الوجود، إذ لم يكُن هناك صحابي بهذا الاسم[1].

وأوّل كتاب في الموضوع لا شكّ فيه ولا ريب يوم حوله، هو الذي انتشر منذ أوائل القرن الثاني للهجرة والمنسوب لوهب بن منبه المتوفى سنة 110 للهجرة. وقد عرف كتابه باسم قصص الأنبياء، وضعه لتلاميذه وقد نقل عنه الطبري والمسعودي والثعلبي والكسائي وابن حجر العسقلاني.

والغريب أنه مع كثرة انتشار القصاص، وإقبال الجمهور على قصص الأنبياء، لم يصل إلينا مصنّفات كاملة، إبان القرن الثالث والرابع في هذا النوع من الأدب، ويبدو لنا أن ذلك راجع إلى الاضطهادات الكثيرة التي كانت تلحق كل مَن له صلة بهذا النوع من التدوين، حتى كانوا معرّضين لعقوبة الإعدام[2].

1- ونُسخ هذا الكتاب التي كانت متداولة في أيدي الناس في زمن الهمداني أثناء القرن الرابع للهجرة كانت مختلفة في مضمونها وكانت الأيدي الكثيرة قد عملت فيها وتصرّفت بها زيادةً ونقصاً، وكانت رائجة رواجاً عظيماً في جميع الأمصار الإسلاميّة.

وذكر ابن النديم عنه ما يأتي: «عبيد بن شرية الجرهمي في زمان معاوية وأدرك ولم يسمع منه شيئاً. ووفد على معاوية بن أبي سفيان، فسأله عن الأخبار المتقدّمة وملوك العرب والعجم وسبب تَبَلْبُل الألسِنَة، وأمر افتراق الناس في البلاد، وكان استحضره من صَنْعاء اليَمَن، فأجابه إلى ما أمر، فأمر معاوية أن يدوّن وينسب إلى عبيد بن شرية. وعاش عبيد بن شرية إلى أيام عبد الملك بن مروان. وله من الكتب كتاب الأمثال وكتاب الملوك وأخبار الماضين... وكتاب الأمثال نحو خمسين ورقة رأيته. (كتاب الفهرس طبع مصر سنة 1348، ص 132).

2 –Lidzbarski: De Propheticis. P.2

ويذكر مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المشهور باسم حاجي خليفة، أن المتصوّف سهل بن عبد الله التستري المتوفّى سنة 283 للهجرة، قد ترك مصنّفاً في قصص الأنبياء وصرّح بأنه رأى هذا الكتاب[1]. ومع ذلك فإنه يشكّ في صحّة وجود كتاب في قصص الأنبياء للتستري، لأن صاحب الفهرس يعدّ للتستري ثلاثة كتب من دون أيّة إشارة إلى مصنّف له في قصص الأنبياء[2]. وأهمّ كتاب في هذا الموضوع بعد كتاب وهب بن منبّه هو الذي دوّنه العلاّمة أبو إسحاق أحمد بن محمد إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي المتوفّى سنة 427 للهجرة وعنوانه "عرائس المجالس في قصص الأنبياء"[3]، ثم هناك مجموعة في قصص الأنبياء ألّفها العلامة الكسائي في النصف الأوّل من القرن الخامس للهجرة.

ولما كان كعب الأحبار قد ورد ذكره في هذين المصنّفَين مرّات عديدة، لا بل هو من أبرز الرُواة عندهما، فليس من الصعب معرفة مكانته في أدب قصص الأنبياء، والبحث عن أنواع الروايات المنسوبة إليه.

2 - كعب الأحبار في قصص الأنبياء للثعلبي

لم يسلك الثعلبي في جميع روايات قصصه مسلك جامعي روايات صحيح الحديث كالنووي، أي أن يكون كل حديث متّصل الإسناد بنقل

1- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج4، ص 518.

2- وذكر ابن النديم ما يأتي: سهل بن عبد الله التستري المتصوّف له من الكتب: كتاب دقائق المعجبين، كتاب مواعظ العارفين، كتاب جوابات أهل اليقين (كتاب الفهرس، طبع مصر، سنة 1348، ص 263).

3- ونودّ أن نشير إلى أن حاجي الخليفة، ذكر العالِم عزّ الملك بن عبد الملك المسيحي الحرائي المتوفى سنة 420، الذي دوّن مصنّفاً في قصص الأنبياء (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون). ج 4، ص 518.

الثقة عن الثقة من أوّله إلى منتهاه سالماً من الشذوذ والعلّة[1]، هذه الشروط غير موفورة عند الثعلبي وفي أحوال كثيرة تتصدّر القصّة سلسلة من الأسانيد، لكنها غير متواترة ولا دقيقة[2]. ولم تكمل فيها شروط الصحيح من الروايات، كأنها إنما جاءت لتقليد نظام الروايات دون النظر الى شروطها.

وأغلب الروايات عنده جاء بدون إسناد، فتارة يتّصل مباشرة بالرسول[3]. وطوراً يذكر اسم أحد المحدّثين من الصحابة والتابعين، دون أي إسناد[4].

ويلوح لنا أن طريقة الثعلبي هذه كانت مقصودة، وليست ناشئة عن إهمال أو نسيان. لأنه لو أراد أن ينحو نحو المحدّثين المدقّقين، لَمَا كان ذلك عليه بالأمر العسير.

ولكن **كتاب العرائس**، كان موجّهاً إلى الطبقات الشعبيّة، لأن العُلماء والملمّين بتفسير القرآن، ليسوا بحاجة إلى هذا النوع من القصص. ثم إن كثيراً من موضوعاته إنما استقي من مصادر يهوديّة ومسيحيّة غير موثوق بها. لذا اكتفى الثعلبي، بأن قلّد نظام الروايات، من دون أن يأخذه بكل ما فيه من الجِدّ والعناية بالبحث عن الأسانيد والتحرّي عن سلسلة متواترة صحيحة.

وقد قصّ الثعلبي في **كتاب العرائس**، خمساً وثلاثين رواية على

1- شرح النووي لصحيح مسلم، طبع مصر، سنة 1348، ج1، مقدّمة ص15.
2- قصص الأنبياء، ص 5، 12، 13، 45، 58.
3- وقد ورد في قصص الأنبياء الإسناد على هذا النحو: روى عن النبي (ص 24، 74) وروى عن النبي، ص 29، 31.
4- فقد ورد مثلاً: ورَوَت عائشة، ص 28، 40 وقال علي بن أبي طالب، ص 12، 18 وقال ابن عباس ص 11، 35 قال كعب، ص 4، 9 قال وهب، ص 6، 22.

لسان كعب الأحبار. وتُروى ثانية قصص الكتاب من الفصل الأوّل باسمه، لأن الرواية الأولى لم تنسب لراوٍ معيَّن بل ذكر في صدرها :«وروى الرُواة بألفاظ مختلفة ومعان متّفقة». ويبدو لنا أن هذا الافتتاح مقصود من المؤلّف، لأن كعباً كان مشهوراً بأنه شَيْخ الرُواة في أدب قصص الأنبياء.

وقد ورد في هذه القصّة ما يأتي: قال كعب الأحبار إن إبليس تَغَلْغَل إلى الحُوت، الذي على ظهره الأرض، فَوَسْوَس إليه، وقال له أتدري ما على ظهرك يا لوتيا من الأُمَمْ والدواب والشجر والجبال وغيرها لو نفضتها وألقَيْتها عن ظهرك أجمع، لكان ذلك أَرْيَح لك. فهمّ لوتيا أن يفعل ذلك، فبعث الله تعالى إليه دابّة فدخلت في منخره فوصلت إلى دماغه فعجّ الحُوت إلى الله تعالى منها. فأذن الله تعالى لها فخرجت، قال كعب الأحبار والذي نفسي بيده إنه لينظر إليه إن همَّ بشيء من ذلك عادت كما كانت[1].

ونحن نعتقد أن كلمة لوتيا محرّفة عن اللفظ العبري لويتان المذكورة مرّات عديدة في أسفار العهد القديم[2]. ويميل العالِم ليدسبرسكي إلى الاعتقاد أن القصّة المذكورة وصلت إلى القصّاص من مصادر يهوديّة ومسيحيّة[3]. أما قصّة الحُوت الذي يحمل الأرض على ظهره والذي دخلت الدابّة في منخره فوصلت إلى دماغه، فمأخوذة عن قصّة يهوديّة مرويّة في التلمود عن طيطوس الذي عصى الله حينما قفل راجعاً إلى روما، بعد أن

1- قصص الأنبياء للثعلبي ص 4، وكذلك وردت القصّة في مصدر أقدم منه هو حلية الأولياء ج6، ص 8.

2- سفر أشعيا، فصل 27 آية 1، مزامير، فصل 74، آية 14، فصل 104، آية 26، سفر أيوب، فصل 3، آية 8، وفصل 40، آية 25.

3 –Lidzbarski: De ropheticis p. 9.

خرّب بيت المَقْدس، فدخلت الذبابة من منخره فوصلت إلى دماغه فهلك[1].

ويعتقد ليدسبرسكي أن خرافة طيطوس هذه منقولة عن قصّة نمرود الجبّار. وأن المسلمين أخذوا هذه القصّة من مسيحيّي السريان[2]. ونشير بهذه المناسبة إلى أن ثمّة قصصاً أخرى مرويّة على لسان كعب، عن الحُوت منها ما وَرَد عند المقدسي[3] أن المدّ والجزر في البحار من عمل الحوُت أو أنّ الحُوت ينثر في كل عام مرّتين[4].

وأكثر من نصف الروايات المنسوبة إلى كعب عند الثعلبي، مذكورة على لسانه وحده[5]، من دون أن يشاركه فيها غيره من الرُواة، أمّا الباقي فمنسوب إليه وإلى غيره في آنٍ واحد[6]. وعند الثعلبي من

1- راجع التلمود جطين 56، 1.

2 -Zeitschrift für Assyrologie VII p. 112-114.

3- شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالمقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع ليدن، سنة 1877، ص 13.

4- كاتب الموطأ، ج1، ص 324.

5- ص 4 "قصّة الحُوت"، ص 11 "قصّة خَلْق العرش"، ص 28 "قصّة آدم"، ص49 "قصّة صالح"، ص 76، 87، 91، 92 "قصّة يوسف"، ص 100 "قصّة عبد الله بن عمرو وكعب"، ص 129 "قصّة موسى وفرعون"، ص 143 "قصّة كعب والحبر من اليهود"، ص 204 "قصّة سليمان"، ص 254 "قصّة معاوية وابن عباس وكعب"، ص 263 و265 "قصّة يحيى"، ص 266 "قصّة مقتل زكرياذ"، ص 270 "قصّة عيسى"، ص 277 "قصّة المائدة".

6- وقد ذكر الثعلبي هذا النوع من الروايات على هذا المنوال: قال كعب وغيره وكان من قصصهم على ما ذكر محمد بن إسحاق بن يسار والسدّي والكلبي، ووهب بن منبه وكعب، قال وهب وكعب وغيرهما من أهل الكتاب، راجع: ص12 "قصّة سِدرة المنتهى"، ص 12 "قصّة خلق الشمس والقمر"، ص 46 "قصّة صالح"، ص 64 و66 "قصّة ذبح ولد إبراهيم"، ص 79 و82، "قصّة يوسف"، ص 101 "قصّة إرَمَ ذاتِ العِمَاد"، ص 106 "قصّة أيوب"، ص 140 "قصّة موسى"، ص158 "قصّة الخضر"، ص 206 "قصّة سليمان"، ص 283 "قصّة عيسى بن مريم".

الروايات المنسوبة لِكعب، ثلاث روايات مرفقة بسلسلة من الأسانيد[1].
ويظهر لنا أن ربط الأسانيد إلى هذه الروايات لم يكُن من باب المصادفات، بل من الموضوعات المقصودة لأغراض معيّنة، أمّا الأولى فهي قصّة توبيخ عبد الله بن عبّاس لكعب في حكاية قذف الشمس والقمر في النار، والثانية تشتمل على رواية من حياة يوسف الصديق، والثالثة تتضمّن قصّة عن موسى الكليم الذي نظر في التوراة ورأى فيها خير أمّة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المُنكر، ويؤمنون بالكتاب الأوّل والآخر.

والقصّة الثانية والثالثة غير موجودتَين في المصادر الإسلاميّة القديمة، لذلك نعتقد أن ربطهما بالأسانيد لا يدلّ على صحّتهما، لا سيما إذا كان الإسناد من النوع الذي ورد في الثانية: وروى السدّي وجاء، عن ابن مسعود وابن عبّاس وناس من أصحاب النبي، صلعم، وإسحاق ابن بشر بن جويبر، عن الضحّاك، عن ابن عبّاس ومقاتل عن ابن بحيرة، عن كعب الأحبار، عن سعيد بن أبي عروبة، عن الحسن[2].

هذا التخليط في الأسانيد الذي يشتمل على بعض الأسماء المجهولة مثل ابن بحيرة، الذي لم نجد اسمه بين الصحابة أو التابعين أو الرُواة من ناحية، وذكر كعب الأحبار، الذي يَروي باسم أبي عروبة والحسن من ناحية أخرى، يثير الشكّ في صحّته ويرجّح عندنا، أنه بعيد عن الحقيقة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن الرواية لم تُذكر في المصادر القديمة قَوِيَت الشبهة

1- راجع ص 13 "قصّة الشمس والقمر"، ص 79 "قصّة يوسف"، ص 143 "كعب والحبر من اليهود".

2- قصص الأنبياء ص 79.

في أن أسانيد هذه الرواية، إنما جاءت لغرض معيّن، كما ذكرنا.

وعلى كل حال، لم يعتمد الثعلبي على الأسانيد في قصصه، بل اكتفى في أغلب الأحوال بعبارة غاية في البساطة مثل: قال كعب أو رَوى ابن عبّاس أو رَوى مجاهد عن ابن عبّاس، ويظهر أن وهب بن منبه في كتابه عن **قصص الأنبياء**، لم يستعمل نظام الأسانيد[1].

3 ـ مقارنة بين قصص كعب عند الثعلبي والطبري

لقد اتضح لنا بعد البحث والتدقيق، أن خمس قصص فقط من المرويّة على لسان كعب، عند الثعلبي، موجودة عند الطبري أيضاً، ولكن مع اختلاف كبير في الأسانيد وفي الأسلوب، بل وفي المضمون. حتى يمكننا الجزم بأن الثعلبي لم يعتمد على الطبري وحده في تأليف كتابه **العرائس**.

فهناك قصّتان وردتا عند الثعلبي بدون أسانيد، وهما قصّة، **سِدرة المنتهى** وقصّة **الأسئلة**، التي عرضها عبد الله بن عمرو على كعب. ومع أن مضمون القصّة الأولى واحد تقريباً في المرجعين، لكن الأسلوب وتحليل الموضوع يختلف فيهما اختلافاً بيّناً، ما يدلّ دلالة واضحة على أن الثعلبي، اعتمد في هذه الرواية على مصدر آخر غير تفسير الطبري. أما في القصّة الثانية فبين النصّين تشابه عظيم في الأسلوب وفي مضمون القصّة، حتى لنذهب إلى أن الثعلبي نقلها نقلاً حرفياً عن تفسير

1- راجع مقالة العالِم يوسف هوروفيتس في مجلّة:
J. Horowitz: Islamic Culture 1927, p. 557

الطبري[1].

وكذلك يمكن أن يُقال، إن الثعلبي قد نقل من الطبري، قصّة قذف الشمس والقمر في النار[2] وقصّة فتنة الشيطان، وتضليله إبراهيم وزوجته سارة وابنه إسحاق[3] لشدّة التوافق وقوّة التشابه بين النصّين في أسلوب القصّتين ومضمونهما.

لكن القصّة الأخيرة، وهي قصّة الخلاف حول كلمة "حمئة" في القرآن فيختلف أسلوبها في نصّي الثعلبي والطبري اختلافاً كبيراً[4].

وثمّة أمر آخر يجب أن نشير إليه، وهو أن الثعلبي يقصّ قصصاً كثيرة على لسان كعب، وليس لها أثر عند الطبري، وقد ذكرنا أن الطبري يقصّ كثيراً من القصص على لسان وهب بن منبه، أو يرويها بإسناد عن ابن إسحاق، الذي أخذها عن وهب بن منبه، مع أنها في مصادر أخرى مرويّة باسم كعب على لسانه مباشرة. وليس من المعقول أن

1- وهذا هو نصّ القصّة عند الثعلبي: قال كعب: لما قدم مكّة عبدالله بن عمرو بن العاص قلت: سَلوه عن ثلاث، فإن أخبركم فإنه عالِم، سَلوه عن شيء من الجنّة وضعه الله للناس، وعن أول ما وضع في الأرض، وعن أول شجرة غرست في الأرض. فسئل عنها فقال عبدالله: أما الشيء الذي وضعه الله للناس في الأرض من الجنّة، فهو هذا الركن الأسود، وأما أول ما وضع للناس في الأرض فبئر برهوت باليَمَن، يردها أرواح الكُفار، وأما أول شجرة وضعها الله تعالى في الأرض فالعوسجة التي اقتطع منها موسى عصاه. فلمّا بلغ ذلك كعباً قال صدق الرجل "قصص الأنبياء" ص 123. وعند الطبري يُنهي كعب حديثه على هذا النحو: والله إنه لعالِم. "تاريخ الطبري، ج1، ص 464.

2- قصص الأنبياء، للثعلبي، ص 66، تفسير الطبري، ج30، ص 47، وتاريخ الطبري.

3- قصص الأنبياء، للثعلبي، ص 66، تفسير الطبري، ج 30، ص 47، وتاريخ الطبري ج1، ص 292.

4- قصص الأنبياء، للثعلبي، ص 66، تفسير الطبري، ج16، ص 8.

يكون الثعلبي قد انتحل الأسانيد انتحالاً، حتى أوصلها إلى كعب الأحبار، بل المعقول أن يكون قد اعتمد في تأليفه **كتاب العرائس**، على مصادر أخرى كثيرة عدا كتابي **التاريخ والتفسير** للطبري. فإن من المعلوم أن الثعلبي دوّن تفسيراً كبيراً للقرآن المعروف **بالكشف والبيان** في تفسير القرآن[1]، وأنه قبل أن يدوّن تفسيره اطّلع على أكثر من مئة مصنّف في التفسير واستقى منها رواياته ومعلوماته[2]. أي أنه كان عالماً عظيماً وقف في أغلب ما دوّن وصنّف في التأريخ والرواية، قبل أن يقبل على وضع تفسيره وتدوين كتابه في **قصص الأنبياء**. ويظهر أنه ألّف تفسيره أوّلاً. ثم لخّص منه الموضوعات الملائمة للعقليّة الشعبيّة وحذف منها أغلب الأسانيد، وجعلها في كتابه عن **قصص الأنبياء**[3].

ونلاحظ هنا، أن أغلب ما ذكره الطبري من القصص على لسان كعب، خاص بموضوعات موجودة في كتاب العهد القديم، والقليل النادر يتعلق بموضوعات من الإنجيل أو من تاريخ العرب في الجاهليّة.

أما الثعلبي فينسب لكعب كثيراً من الموضوعات اليهوديّة والمسيحيّة والجاهليّة العربيّة على حد سواء، وهذا مِمّا يرجّح ما ذهبنا إليه، من أن الثعلبي اطّلع على مراجع لم يعرفها الطبري.

وبعبارة مختصرة نلاحظ أن المصادر القديمة لا تنسب إلى كعب من الروايات المتعلقة بموضوعات غير يهوديّة، إلاّ القليل النادر، أما المراجع المتأخّرة، فقد اختلط فيها الحابل بالنابل، ولم تميّز الموضوعات التي توافق

---

1 –Ahlwardt: Verzeichnis der Arabischen Handschriften Bd I p. 292 ff. N. 737.

2 –C. Brokelman: Geschichte der arabischen Litteratur B. I p. 350. Noeldeke und Schwally: Geschichte der Qorans II p. 173.

3– راجع مقالة العالم بروكلمان عن الثعلبي في دائرة المعارف الإسلاميّة.

عقليّة كعب، عن تلك التي تُخالفها. فنسبت إليه كثيراً من الروايات الخاصّة بالمصادر المسيحيّة. مع أن كعباً، اليهودي الأصل، لم يتميز إلا بالموضوعات المأخوذة من المصادر اليهوديّة.

وإليك بعض الأمثلة، التي تدلّ على أن الثعلبي قد اعتمد على مراجع أخرى غير كُتب الطبري ففي قصّة الصديق،[1] وفي أخبار أيّوب[2]، وما أُصيب به من بَلاء لم يروِ الطبري شيئاً مطلقاً عن كعب، بل جلّ ما ذكره عن هذَين الرجلَين رَواه عن وهب بن منبه، في حين أننا نجد الثعلبي، قد نسب لكعب في قصّة يوسف ست روايات وفي قصّة أيوب الروايتَين[3].

على أن كعباً، لم يكُن عند الثعلبي أعظم الرُواة، بل أغلب الروايات عنده مَروي على لساني وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق.

وقد نسب الثعلبي لكعب روايات عن الخضر وصالح ويحيى وزكريا وعيسى. أما الطبري فلم ينسب إليه شيئاً من ذلك، لأنه، كما ذكرنا، يتحاشى في أكثر الأحوال أن ينسب لِكعب روايات تتعلّق بموضوعات غير يهوديّة، لأنه يعرف أن الحبر اليهودي لا يعلم شيئاً كثيراً عن الموضوعات، التي لم يَرِد لها ذكر في التوراة والتلمود والآداب الدينيّة اليهوديّة.

وعند الثعلبي نوع من القصص، على لسان كعب، فيه وصف لِهَيْئة الأنبياء وتحليل دقيق لِملامح وجوههم، ليستدلّ منها على أخلاقهم وكنه عقليّاتهم. فقد وَرَد على لسان كعب، أن هارون بن عمران، كان رجلاً فصيح اللسان بيّن الكلام إذا تكلم، تكلم بتؤدة وعلم، وكان أطول من

1- تفسير الطبري، ج12، ص83، و ج13 ص1، وتاريخ الطبري، ج1، ص371.
2- تفسير الطبري، ج12، ص38، وتاريخ الطبري، ج1، ص 361.
3- راجع ما ذكر عندنا عن تقسيم الموضوعات المنسوبة لِكعب الأحبار في قصص الأنبياء للثعلبي.

موسى، وكان على رأسه شامة وعلى طرف لسانه أيضاً شامة سوداء. وكان موسى بن عمران، رجلاً آدم اللون طويلاً، كأنه من رجال أزد شنوأة[1]. وكان بلسان موسى عقدة وثقل وسرعة وعجلة، وكان أيضاً على طرف لسانه شامة سوداء[2].

وكان أيّوب رجلاً عظيم الرأس، جعد الشعر، حسن العينَين، والخلق قصير العنق غليظ الساقَين والساعدَين، وكان مكتوباً على جبهته المبتلي الصابر[3].

وصف كعب الأحبار المسيح وصفاً بليغاً، ذكر فيه: كان عيسى بن مريم رجلاً أحمر، مائلاً إلى البياض، ما هو سبط الرأس ولم يدهن رأسه قط. وكان عيسى يمشي حافياً ولم يتّخذ بيتاً ولا حلية ولا متاعاً ولا ثياباً ولا ورقاً إلا قوت يومه. وكان حيثما غابت الشمس صفّ قدمَيه وصلّى حتى يصبح.. وكان أشعث الرأس صغير الوجه[4].

وقد أبدع كعب في وصف حُسن يوسف الصديق إبداعاً كبيراً حيث يقول: وأعطى الله يوسف من الحُسن والجَمال، ما لم يُعْطِه أحداً من الناس.. فكان حُسن يوسف كَضَوْء النهار، وكان يوسف أبيض اللون، جميل الوجه، جعد الشعر، ضخم العينَن مستوي الخلقة، غليظ الساقَين والعضدَين والساعدَين، خميص البطن، أقنى الأنف صغير السرّة، وكان بخدّه الأيمَن خال أسود، وكان ذلك الخال يزيّن وجهه، وأن بين عَيْنَيْه

1- ازد شنوأة قبيلة من قبائل اليَمَن "راجع اللسان"، ج4 ص 38.
2- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 120، راجع ما ورد عن العقدة بلسان موسى في كتاب: مدراش رباه كتاب الخروج 27، يلقوط شمعوني 166.
3- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 106.
4- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 270.

شامة بَيْضاء، كأنّها القمر ليلة البدر، وكانت أهداب عَيْنَيْه تُشبه قوادم النسور، وكان إذا ابتسم رُؤي النور من ضواحكه، وإذا تكلّم رأيت شعاع النور يشرق من بين ثناياه، لا يقدر بنو آدم ولا أحد على وصف يوسف...[1].

وقد نسب الشاعر الفارسي الفردوسي ما جاء في قصيدته القصصيّة عن يوسف وزليخا من وصف جمال يوسف الخلاّب إلى كعب الأحبار[2].

وكذلك يصف كعب يحيى بن زكريا فيقول:«كان يحيى بن زكريا نبيّاً، حَسَن الوجه والصورة، ليِّن الجناح، قليل الشعر، قصير الأصابع، طويل الأنف، مقرون الحاجبَين، رقيق الصَوت كثير الغيرة، قويّاً في طاعة الله، وقد ساد الناس في عبادة الله وطاعته»[3].

وليس من الضروري أن نعتقد، أن هذه التفاصيل الوافية في وصف الأنبياء، وفي تحليل ملامحهم حقيقيّة وصحيحة، أو أنها حقيقة مرويّة عن كعب، أو عن غيره من الرُواة الأقدَمين. وإنما يستدلّ منها على مِقدار ما بذله جامعو القصص من العناية والبراعة، في إيجاد نوع من القصص، يشتمل على أوصاف تحليليّة، تُثير إعجاب الجماهير، التي كانت تميل إلى هذا النوع من الأدب. ونسب الجامعون هذا النوع من التحليل لِكعب ولغيره من المحدّثين، لأنهم وجدوا بعض روايات من هذا النوع منسوبة إليهم. فَلَمّا وجدوا رغبة الجمهور متزايدة إلى هذا النوع اخترعوا فيه ما شاؤوا، ونسجوا على المنوال عَيْنه، ونسبوه إلى الرُواة إيّاهم، نظراً لثقة الجمهور

1- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 76.

2- راجع النص الفارسي لقصيدة يوسف وزليخا طبع العالم.

H. Ethè: Anecdota Oxoniensia, Oxford 1908, p. 264.

3- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 263.

بالنوع المذكور واعتقاده بصحته.

ومن العجيب أننا وجدنا في صحيح مسلم، أحاديث نبويّة، تتضمّن وصفاً لِهَيْئَة الأنبياء، كالتي وردت عند الثعلبي على لِسان كعب الأحبار[1].

وإذا كان ابن سعد، يروي قصّة مرض الملك حزقيا، على لسان كعب، فالثعلبي يدمجها في قصّة كبيرة مرويّة على لِسان ابن إسحاق[2]، وإذا كانت القصّة المذكورة عند ابن سعد، قريبة في نصّها من نصّ الأصل الموجود في سِفر الملوك من العهد القديم، فهي عند الثعلبي مرويّة في أسلوبه الشعبي المألوف مع التصرّف المعروف عنه في قصصه، وقد ذكر الجاحظ قصّة العقاب الذي أنزله الله على سيّدنا آدم وحواء كما ذكر قصّة الحُوت على لِسان كعب[3]. أما الثعلبي فلم ينسب ذلك إلى كعب.

4- قصّة الخضر وكعب الأحبار

لم يذكر الثعلبي اسم كعب في قصّة الخضر إلا مرّة واحدة، في رواية شاركه فيها غيره من المحدّثين[4]. ولكن غير الثعلبي من القصّاص،

1- صحيح مسلم، ج1، ص 248.

2- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 229.

3- كتاب الحيوان، للجاحظ طبع مصر سنة 1323 ج4، ص66، وقصص الأنبياء، للثعلبي ص 22 – 24، ويلاحظ الجاحظ بعد نقله القصّة المرويّة على لسان كعب ما يأتي: وأنا أظنّ أن كثيراً مِمّا يحكى عن كعب أنه قال مكتوب في التوراة، إنه إنما قال نجد في الكتب، وهو إنما يعني كتب الأنبياء والذي يتوارثونه من كتب سليمان وما في كتبهم من كتب أشعيا...

4- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 158. "قال كعب وغيره".

ذكر اسم كعب في هذه القصّة مرّات عديدة[1]. وإذا كان الثعلبي يذكر اسم كعب في قصّة الخضر مرّة واحدة فقط، فقد ذكر غيره من العُلماء اسم نوف البكالي، وهو ابن امرأة كعب الأحبار كما أسلفنا. وكان نوف قد قصّ على الناس بالكوفة «بأن موسى صاحب بني إسرائيل ليس بموسى صاحب الخضر، ولما سمع ذلك ابن عبّاس قال: كذب عدو الله[2]. وفي رواية أخرى يقصّ سعيد بن جبير، أنه بينما كان جالساً عند ابن عبّاس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم: يا أبا العبّاس إن نوفاً ابن امرأة كعب يزعم عن كعب أن موسى النبي الذي طلب العِلم إنما هو موسى بن منشا فقال ابن عبّاس: أنوف يقول هذا؟ فقال سعيد: نعم أنا سمعت نوفاً يقول ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال نعم. فقال ابن عبّاس: كذب نوف[3]. ويقول العالِم جولدتسيهر عن هذه الحادثة: ولعلها نظرية

1- كتاب الإصابة، لابن حجر، ج1، ص 883، 885، 886، 890، المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص13، زكريا بن محمد القزويني: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، طبع ويستنفلد، سنة 1849، ج1، ص 106، حسين بن محمد الدياربكري: الخميس في أحوال أنفس نفيس المعروف بتاريخ الخميس طبع مصر، سنة 1302، ج1، ص 120، حلية الأولياء في طبقات الأصفياء، ج6، ص7، ومع أنه لم يذكر اسم كعب في قصّة الخضر في كتاب قصص الأنبياء، للكسائي المطبوع فإن النسخة المخطوطة التي في المتحف البريطاني تذكر بين الرُواة اسم كعب الأحبار أيضاً. راجع:

Manuscripts of the British Museum Or. 3054 Folio 154 b. I. Friedlânder: Die Hadirlegende, p. 94.

2- صحيح البخاري، طبع بولاق، ج6، ص 88، صحيح مسلم، ج5، ص134، صحيح الترمذي، ج12، ص 2 – 3، تاريخ الطبري، ج1، ص 417، تفسير الطبري، ج15، ص 166.

3- تفسير الطبري، ج15، ص 166 – 167. I. Goldziher: Muhm. Studien II p. 163

متأخرة قُدمت ونُسبت إلى رجال الرواية في الزمن القديم».

وفي أية حال يظهر أن نوف البكالي لم يتأثّر بمعارضة المعارضين، ولم يرجع عن رأيه في موسى، الذي التقى بعبد صالح من عِباد الله، ولم يستطع معه صبراً[1]. فقال إن موسى صاحب الخضر هو موسى بن منشا[2].

وتُذكّرنا هذه القصّة بما حدث لِكعب مع عائشة أم المؤمنين في تفسير آية "يا أخت هارون" كما وَرَد ذكر ذلك فيما مضى، وذاعت نظريّة نوف البكالي وانتشرت على مرّ الزمان، وظهرت قصّة أساسها أن موسى صاحب الخضر هو موسى بن منشا بن يوسف الصديق، الذي أرسله الله إلى أسباط بني إسرائيل، حينما ظهر فيهم المُلك فغيّروا سيرتهم وأفسدوا في الأرض، وفشا فيهم السحر والكهانة فبعث الله تعالى إليهم موسى بن منشا رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وأداء أمره وإقامة سِنَنِه وذلك قبل مَوْلِد موسى بن عمران بمئتَي سنة. فأطاعه قَوم منهم وعصاه آخرون... فلبث فيهم ما شاء الله أن يلبث يقيم أمرهم ويصلح أحوالهم ثم مات...[3].

وبما أن الطبري وغيره من القُدماء لم يذكروا اسم كعب في القصص التي رَوَوْها عن الخضر فغالِب الظن أن الأسانيد التي نسبت بعد ذلك إلى كعب في هذه القصّة إنما نشأت بعد أن ذاع رأي نوف البكالي في أن موسى صاحب الخضر سابق لِموسى صاحب بني إسرائيل[4].

1- الكهف 18/64 – 67.

2- تاريخ الطبري، ج1، ص 424.

3- قصص الأنبياء للثعلبي، ص99، وقصص الأنبياء للكسائي، ص194.

4 –I. Friedlânder: Die Hadirlegende, p. 75.

5- كعب الأحبار وقصّة إرَمَ ذاتِ العِمَادِ

تميل غالبيّة عُلماء المسلمين إلى الاعتقاد بأن ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[1] اسم مكان فهي عندهم اصطلاح جغرافي. فمنهم مَن قال إنها مدينة الإسكندريّة[2]. ومنهم مَن قال إنها مدينة دمشق[3]. ورأى غير هؤلاء وهؤلاء أنه اسم لمدينة في جنوب بلاد العرب بين صنعاء وحضرموت[4]. وذكر الهمداني أن في اليَمَن جبلاً باسم إِرَم ذَاتَ الْعِمَادِ[5].

وظهرت بعد ذلك قصّة عن "إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" متّصلة بكعب الأحبار ذكرها الثعلبي على هذا المنوال: كان رجل يُقال له عبد الله بن قلابة خرج في طلب إبل له قد ضلّت فبينما هو في فلوات الصحراء إذ وقع على مدينة عليها حِصْن، وحَول ذلك الحصن قصور عظيمة، وأعلام طوال، فلمّا دنا منها ظنّ أن فيها مَن يسأله عن إبله، فلم يرَ فيها أحداً لا داخلاً ولا خارجاً، فنزل عن ناقته وعقلها، وسلّ سيفه ودخل من باب الحِصن فإذا هو ببابَيْن عظيمَيْن لم يرَ في الدنيا أعظم منهما ولا أطول.. ثم فتح أحد البابَين فإذا هو بمدينة لم يرَ الراؤون مثلها قطّ، وإذا هو بقصور معلّقة تحتها أعمدة من زبرجد وياقوت وفوق كل قصر منها غُرف مبنيّة بالذهب

1- سورة الفجر، آية 6 – 7.
2- تفسير الطبري، ج30، ص96، ياقوت ج1، ص 212.
3- تفسير الطبري، ج30، ص 96. وتاريخ الطبري، ج1، ص748، و ج2، ص587. الهمداني، كتاب البلدان، ص123. الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص80.
4- القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ج1، ص29. معجم البلدان، لياقوت ج1، ص 123، قصص الأنبياء، للثعلبي، ص 100.
5- الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص3.

والفضّة واللؤلؤ الخ... ثم إنه حمل من لؤلؤها وبنادق المسك والزعفران وخرج حتى أتى ناقته فركبها، حتى رجع إلى اليَمَن وباع بعض ذلك اللؤلؤ... ففشا خبره حتى بلغ معاوية بن أبي سفيان، فأمر بإشخاصه. ولمّا خلا به سأله عن أمر المدينة وما رأى فيها فاستعظم ذلك معاوية وقال: كيف أصنع حتى أعرف اسم هذه المدينة ولِمَن هي ومَن بناها.. فأشار عليه بعض جُلسائه بإشخاص كعب الأحبار الذي يخبر أمير المؤمنين بخبرها وأمر هذا الرجل.. وأرسل معاوية إلى كعب الأحبار فلمّا حضر قال: يا أبا إسحاق لأمر رَجَوْت أن يكون عِلمه عندك فقال: يا أمير المؤمنين على الخبير سقطت، سَلْ عمّا بدا لك. فقال له أخبرنا يا أبا إسحاق هل بلغك أن في الدنيا مدينة مبنيّة بالذهب والفضّة وعَمَدها من زبرجد وياقوت. فقال كعب والذي نفسي بيده لقد ظَنَنْت أني سأسأل قبل أن يسألني أحد عن تلك المدينة وما فيها ولكن أخبرك بها يا أمير المؤمنين، ولِمَن هي ومَن بناها. أمّا تلك المدينة فهي حق على ما بلغ أمير المؤمنين، وعلى ما وصفت له، وأما الذي بناها فشداد بن عاد. وأمّا المدينة فهي "إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ"، التي لم يُخلق مثلها في البلاد، فقال له معاوية يا أبا إسحاق حدّثني بحديثها يرحمك الله، فقال كعب: يا أمير المؤمنين إن عاداً كان له ابنان سمّى أحدهما شَديداً، والآخر شِداداً، فهلك عاد وبقي ولداه بعده. فملكا وتجبّرا وقهرا كل البلاد وأخذاها عنوةً وقهراً حتى دان لهما جميع الناس.. ومات شَديد بن عاد وبقي شِداد. فملك وحده ولم ينازعه أحد وكانت له الدنيا.. ثم أمر ببناء مدينة إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ.. وأقام العُمال في بنائها ثلاثمائة سنة.. ثم سار الملك شِداد ليسكنها وبلغ منها موضعاً وبقي بينه وبين دخولها مسيرة يوم وليلة بعث الله تعالى عليه وعلى كل مَن كان معه

صَيْحَةَ من السماء، فأهلكَتهم. ولم يبقَ أحد منهم. ولم يدخل شِداد ومَن كان معه إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ. ولم يقدر أحد منهم على الدخول فيها حتى الساعة. وإنه سيدخلها رجل من المسلمين في زمانك ويرى فيها فيحدّث بها عاين ولا يُصدَّق.. ثم التفت كعب فرأى عبد الله بن قلابة فقال هو ذاك الرجل. فقال معاوية: يا أبا إسحاق لقد فضّلك الله على غيرك من العُلماء ولقد أعطيت من عِلم الأوّلين والآخرين ما لم يُعْطِه أحد. فقال: يا أمير المؤمنين والذي نفس كعب بيده ما خلق الله شيئاً إلا وقد فسّره في التوراة لعبده موسى عليه السلام تفسيراً، وإن هذا القرآن أشدّ وعيداً وكفى بالله شهيداً..."[1]

وأما ما يلفت النظر في هذا الموضوع فهو أن هذه القصّة المُطوّلة، لم تُذكر مطلقاً في المصادر القديمة، وكان الأولى أن يذكرها الذين كتبوا عن اليَمَن قبل الإسلام أو أن يذكرها الطبري في تفسيره لأنه اهتم بها خاصة وجاء بروايات عديدة عن معنى إِرَمِ ذَاتَ الْعِمَادِ.

وما ورد على لسان الخليفة إلى كعب يبعث على السخريّة لأن فيه مبالغة لا توافق الأمر الواقع، حتى بدا للأستاذ ونسينك أن المسعودي كان يشكّ في صحّتها لأنه اكتفى بالإشارة إليها فقط[2].

1- قصص الأنبياء، للثعلبي، ص 100 – 102، مروج الذهب، للمسعودي، طبع باريس سنة 1861، ج4، ص 88، ويضيف المسعودي بعد أن يأتي على ملخص الحكاية ما يأتي: فإن كان هذا الخبر عن كعب حقاً في هذه المدينة فهو حسن وهو خبر يدخله الفساد من جهة النقل وغيره. معجم البلدان، لياقوت، ج1، ص215، القزويني، عجائب المخلوقات، ج1، ص9.

2- مقالة العالم ونسنك Wensinck عن إِرَمَ ذاتِ العِمَاد، بدائرة المعارف الإسلاميّة، ج2، ص555، وهو المشهور بتأليف كتاب "مفتاح كنوز السنّة" للأحاديث النبويّة، ونقله إلى العربيّة محمد فؤاد عبد الباقي سنة(1352 هـ/1933م)، طبع مصر.

على أن الثعلبي وياقوت والقزويني، قد ذكروا هذه القصّة مفصّلة تفصيلاً وافياً كأنها صحيحة لا غبار عليها. ولكن يجب ألاّ يغيب عن البال، أن الذين اخترعوا هذه القصّة قد وقعوا في غلطة تاريخيّة لا تُغْتَفَر، وهي أنهم نسوا أن كعباً توفي في عهد عثمان بن عفان، وقد كان معاوية حينذاك أميراً على الجيش في الشام لا أمير المؤمنين. ولم يُلقَّب بخليفة المسلمين، إلاّ بعد أن تولّى عرش الخلافة في سنة 40 للهجرة.

ويظهر أن أحد عُلماء المسلمين بالأندلس قد تنبّه لهذا الخطأ الفاحش فقدّم رواية كعب الأحبار في قصّة إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب[1].

6. كعب الأحبار في قصص الأنبياء للكسائي

قبل أن نتعرّض للبحث في أمر روايات كعب في قصص الأنبياء للكسائي، يجدر بنا أن نطرح هذا السؤال: من هو الكسائي صاحب **قصص الأنبياء؟**

كان الرأي الراسخ عند عُلماء المسلمين، أن مؤلّف **قصص الأنبياء**، هو الكسائي علي بن حمزة المتوفّى سنة 185 للهجرة، أعْلَم عُلماء عصره في النحو[2]. ولكن العالِم ليدسبرسكي كان أوّل مَن شكّ في هذا الرأي وقال إن الكسائي صاحب **قصص الأنبياء** لم يكُن النحوي الشهير بل كان كسائياً آخر توفّي في غضون القرن الخامس للهجرة[3]. ووافقه العالِم ولهوزن *Wellhausen* في شكّه في أن يكون

1 –Commentaire Historique sur le Poème d'Ibn Abdoun B. Badroun

2- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج4، رقم 37 – 94.

3 –Lidzbarski: De Propheticis p. 25

مؤلّف **قصص الأنبياء** هو الكسائي النحوي، غير أنه أنكر وجود عالِم آخر باسم الكسائي في القرن الخامس للهجرة. بل اعتقد أن الكتاب دُوّن في القرن الخامس ونسب للكسائي المشهور الذي توفّي بالقرن الثاني للهجرة[1]. أما العالِمان بروكلمان *Brokelmann*[2] وأهلورت *Ahlwardt* فيميلان إلى الرأي الأوّل القائل إنّ عالماً باسم الكسائي عاش في القرن الخامس للهجرة، وألّف كتاب **قصص الأنبياء**، الذي وصل إلينا[3].

والذي يلوح لنا أن قصص الكسائي لم تدوّن قبل قصص الثعلبي، أي أنها لم تكُن من تأليف الكسائي القديم مطلقاً، بدليل أن الثعلبي لم يذكرها بين مراجعه لا تصريحاً ولا تلميحاً، ولم يَشر إليها أية إشارة في جميع ما ذُكر من الكتب في تفسيره أو قصصه، فيحقّ لنا أن نفترض أن الكسائي الثاني أو المنتحِل، لم يدوّن كتابه قبل سنة 427 للهجرة.

وإذا كان الثعلبي قد استخلص كتاب قصصه من تفسيره ليكون مناسباً للعقليّة الشعبيّة، التي لها حظّ من الأدب الديني، فإن الكسائي قد قصد بكتابه عامّة الشعب فقط. فهو يمثّل تمثيلاً صحيحاً أدب القصّة

1- راجع الرسالة التي وُضعت تحت إشراف العالِم ولهوزن:
J. Eisenberg: Die Prophetenlegenden des Al-Kisai. Bern 1898 p.5

2- راجع مقالة بروكلمان في دائرة المعارف الإسلاميّة عن الكسائي مؤلّف قصص الأنبياء. Ahlwardt: Verzeirhnis der Arabischen Handschriften I. p.407

3- وإذا كان كتاب قصص الأنبياء، للكسائي في الأزمنة الغابرة، قد لَقيَ رواجاً عظيماً بين الطبقات الشعبيّة في الأمصار الإسلاميّة، فإنه بقي مجهولاً تقريباً في عصرنا، وقد نشر أحد العُلماء المستشرقين ملخّصاً عنه – لا النص الكامل في سنة 1922 Kisai: Vita Prophetrum Ed. J. Eisenberg. على أن الملخّص أيضاً بقي إلى يومنا روضة أنفاً لم يطأه غير عدد قليل من العُلماء في البلدان الشرقيّة، وقد اعتمدنا في بحثنا عن قصص الكسائي على الملخّص المطبوع المذكور.

الشعبيّة الإسلاميّة، وقد مكّن القارئ من أن يستفيد من قصصه الفائدة التي أرادها له. فمحا الأسانيد محواً يكاد يكون تامّاً. لأن قارئه ليس بحاجة إلى أسانيد، ولا يرغب في البحث عن صحّة الرواية، ولا يريد أن يقف على أصلها. وإنما يريد أن يستمتع بلذّة قراءتها فقط.

وقد أدّى حذف الأسانيد إلى إيجاد قصص كاملة بعضها مندمج ببعض، كأنها حوادث تاريخيّة متسلسلة مع الزمن المتتابع. فالقارئ ينجذب من موضوع إلى آخر كما ينجذب حين يقرأ رواية شعبيّة كروايات عنترة بن شدّاد، أو حكايات ألف ليلة وليلة. لذلك نجح الكسائي نجاحاً باهراً، وأخذ كتابه ينتشر بسرعة في الأمصار الإسلاميّة. وشرع المؤلّفون ينسجون على منواله في تأليف القصص. ومن هنا يبدو لنا، أن أدب قصص الأنبياء وصل إلى ذروة رفعته بكتاب الكسائي، الذي ألّفه في أواسط القرن الخامس للهجرة.

أما إسناده، إذا وجد حاجة لوضعه، فكان غاية في البساطة لا يزيد على ما يأتي: قال النبي، رَوى ابن عبّاس، قال كعب.

وعلى الإجمال فإن عدد رُواته قليل، وهم ابن عبّاس وكعب ووهب بن منبه وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن سلام، وأبو ذر الغفاري وقتادة، ومجاهد، وأبي. وعنده قصص كثيرة لا رُواة لها، وغيرها تصدر باسم راوية ثم تستمر عدّة صفحات تنتقل في أثنائها من موضوع إلى آخر بدون انقطاع كأنها من رواية محدث واحد. مع أنها في المصادر التي سبقت الكسائي متفرّقة في أحاديث كثيرة وروايات منفردة من مصادر مختلفة، كما أن فيها زيادات غير موجودة في كتب المتقدّمين، ويعدّ كعب

الأحبار أهمّ راوٍ عند الكسائي إذ يروي على لسانه 63 رواية[1] في حين أنه ينسب لوهب بن منبه 51 رواية. ولم يذكر ابن عباس أكثر من 32 مرّة، أما المحدّثون الآخرون فلم يذكرهم الكسائي إلا في أحوال نادرة جداً[2]، وإذا كان الثعلبي لم يذكر كعباً في قصّة نوح، فإنه عند الكسائي الراوي الرئيسي في هذا الموضوع[3].

وإذا كان الطبري لم يذكر كعباً مطلقاً في تفسيره لسورة يوسف. وإذا كان الثعلبي لم يذكر كعباً في قصّة يوسف إلاّ في ست روايات، فإنه عند الكسائي الراوي الأوّل في الفصل عن يوسف[4].

1- راجع قصص الأنبياء، للكسائي، ص 6 "موضوع اللوح"، ص 8 و11 "خلق الأرض"، ص 12 و13 و15 روايتان "خلق السموات"، ص 15 "خلق الشمس"، ص 22 "الجن"، ص 25 و26 و33 "آدم"، ص 37 "الحيّة"، ص 43 "آدم"، ص52، ص 53 "النسر والحُوت" ص 53، "الجراد" ص 55، "يونس والحوت" ص 62 "حواء"، ص 64 و65 روايتان "الحب"، ص 66 "الديك"، ص 69 "آدم"، ص 75 "المؤمنون"، ص 87 و91 و99 و101 و102 "نوح"، ص 104 و105 و109 "هود"، ص 110 "صالح"، ص 117 "ثمود"، ص 121 "نمرود"، ص 141 و145 "ابراهيم"، ص 150 "اسحق"، ص 156 و176 و179، "يوسف"، ص 190 "شعيب"، ص 194 "موسى بن منشا"، ص 195 "فرعون"، ص 199 "آسيا بنت مزاحم"، ص 203 "تابوت موسى"، ص 211 "هرون"، ص 216 "فرعون"، ص 217 "فلق أليم"، ص 233 "عوج"، ص 240 و241، "يوشع بن نون"، ص 242 "ابن كالب"، ص 250 "صموئيل"، ص 270 "داود"، ص 285 "سبأ"، ص 295 "سليمان"، ص 296 "يونس ومتى"، ص 301 "زكريا".

2- أبو ذر الغفاري ص 7، عبد الله بن سلام ص 12، أبو هُرَيْرَة ص 11 و43، سعيد بن المسيب ص 54، مكحول ص 54، قتادة ص 11 و67 و152، عمر بن عبد العزيز ص 216، مجاهد ص 152، الدهاك ص 152، ابن عمر ص 152، الحسن ص 152، الحسين ص 152، مقاتل ص 195.

3- قصص الأنبياء للكسائي 87 – 101، قصص الأنبياء للثعلبي ص 34 – 40.

4- قصص الأنبياء للكسائي، ص 156 – 176.

ثم إذا كان الطبري لم يذكر كعباً في الموضوعات المسيحيّة، ولم يذكره الثعلبي بين رُواة القصص المسيحيّة إلا نادراً، فإنه عند الكسائي يروي الأخبار المسيحيّة والأخبار اليهوديّة على حدّ سواء.

ولكن يجب ألا يغيب عن بال، أن الموضوعات المسيحيّة قليلة الوجود عند الكسائي، لأنه لا يتناول أكثر من قصّتين مسيحيّتين هما يونس بن متى، وقصّة عيسى بن مريم[1]. في حين أن الثعلبي قد أورد كثيراً من القصص المسيحيّة[2].

وكذلك لم يذكر الكسائي قصّة أهل الكهف ولا قصّة ذي القرنين التي لها أقاصيص من مصادر مسيحيّة مختلفة[3]. بينما ذكرهما الثعلبي[4].

وكذلك أهمل الكسائي قصص لقمان ومواعظه وأصحاب الأخدود وعاد، التي هي من أخبار الجاهليّة العربيّة. وقد جاءت مفصّلة عند الثعلبي[5].

وأغلب ما يتناوله الكسائي من الموضوعات في حكايات العهد القديم، يأتي بعضها كأنه مترجم ترجمة دقيقة، عمّا ورد في النصّ

1- قصص الأنبياء للكسائي، ص 296 – 301 وص 301 – 309.

2- "زكريا" ص 259، ص 266، "مريم" ص 259، "يحيى" ص 261 – 266، "عيسى" ص 266 – 282، "قصّة الرسل الثلاثة" ص 282، "يونس بن متّى" ص 284، "جرجيس" ص 299.

3- راجع مقالة العالم ونسينك Wensinck في دائرة المعارف الإسلاميّة عن أهل الكهف وراجع رسالة العالم نولدكه.

Th. Noeldeke: Beitrâge zur Geschichte des Alexander Romans, Wien 1890.

4- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 250 – 259، وص 287 – 299.

5- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 243 – 246، وص 305 – 307.

العبري الأصلي، كأن المؤلّف يهودي أو من اليهود الذين أسلموا في القرن الخامس للهجرة، أو كأنه مسلم دَرَسَ العبريّة دراسة كافية. لذلك ليس بعجيب أن نجد له ترجمة لآيات من التوراة مطابقة للأصل كل المطابقة دون زيادة أو نقصان[1].

وكذلك إذا جاء ببعض القصص المذكورة في التلمود، فهي جدّ قريبة من الأصل مع أنها غير موجودة عند الثعلبي.

ولم يقع الكسائي في الأخطاء، التي وقع فيها الثعلبي. فقد ذكر هذا أن سارة زوج إبراهيم، هي أم يوسف الصديق[2]. أما الكسائي فيعرف أن راحيل هي أم يوسف كما ذُكر في التوراة[3].

وإذا قال الكسائي إن يوسف ورث جماله عن أمه. فهذا هو بِعَيْنِه ما جاء في المصادر اليهوديّة[4].

وما ذكره الكسائي عن الملائكة الذين يحملون العرش هو بِعَيْنِه ما ذكر في سِفر حزقيال وفي المصادر اليهوديّة الأخرى[5].

1- راجع مثلاً النصوص الآتية: ص 152: قد حملت بابْنَيْن يتضاربان في بطني.. فلمّا تمّت أيام الحَمْل.. وأحدهما متعلقاً بعقب أخيه، قابل النص العبري من التوراة: سِفر التكوين، فصل 25 آية 22 – ص 153: فأما الجسد جسد عيسو، قابل النص العبري من سِفر التكوين، فصل 27 آية 22 – ص 154، ألا تعلم أن الصغيرة، لا تتزوج قبل الكبيرة، قابل النص العبري من سِفر التكوين فصل 29 آية 26.

2- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 76.

3- قصص الأنبياء للكسائي، ص 156، وراجع سفر التكوين، فصل 30 آية 25.

4- مدراش: يلقوط شمعوني 39 و 18.

5- قصص الأنبياء للكسائي، ص 7 وسِفر حزقيال، الفصل الأوّل، آية 6 – 10.

وإذا كان ما ذكره الكسائي عن الفيوم من أنها إحدى البلاد التي استَوْطَنَها يوسف وذرِّيته، لا يستند إلى الحقيقة التاريخيّة وليس مذكوراً في التوراة، فهو من الأحاديث الشائعة بين يهود مصر إلى يومنا هذا. فهم يقولون، إن أرض جوشن التي استَوْطَنَها بَنُو إسرائيل كانت في بُقعة الفَيُّوم[1].

كل هذا يدل على أن الكسائي مؤلّف **قصص الأنبياء**، كان متّصلاً بالهيئات اليهوديّة المصريّة في عصره.

وكذلك ذَكَر الكسائي، أن الحيّة التي وُجدت في الجنّة مع آدم وحواء، كانت على هَيْئَة جَمَل، وهذا أيضاً يوافق ما وَرَد في أدب القصّة اليهوديّة[2].

وقد جمع الأصبهاني، جُملة روايات قصصيّة منسوبة لِكعب، لم تندمج في المصادر والمراجع المذكورة[3].

1- قصص الأنبياء للكسائي، ص 178.

2- قصص الأنبياء للكسائي، ص 37 وراجع:

3- قصّة حمل عظام يوسف من مصر إلى الأرض المقدّسة "حلية الأوليـاء"، ج6، ص 27، وقصّة إبراهيم الذي كان يقري الضيف "حلية الأولياء"، ج6، ص 27-29، وقصّة موسى الذي كلّمه الله بالألسنة كلّها "حلية الأوليـاء"، ج6، ص 29، وقصّة يأجوج ومأجوج "حلية الأولياء"، ج6، ص 23 - 24.



حتى يؤمر فينفخ والقرن شبه البوق ودائرة راس البوق كعرض السموات والارض وهو شاخص ببصره

نحو العرش ينتظر متى
يؤمر فاذا نفخ فيه
صعق من في السموات
ومن في الارض الا من
شاء الله قالت
عائشة رضي الله عنها
قلت لكعب الاحبار
سمعت رسول الله صلى
الله عليه وسلم يقول يا
رب جبرئيل وميكائيل
واسرافيل اما جبرئيل
وميكائيل فسمعت بهما
في القران واما اسرافيل
فاخبرني عنه فقال
كعب الاحبار انه ملك
عظيم الشان له اربعة
اجنحة احدها في
المشرق والاخر في

المغرب والثالث تسربل به [illegible] الى الارض والرابع [illegible] به من عظمة الله تعالى وقدماه تحت الارض السابعة وراسه
ينتهي الى اركان قوائم العرش وبين عينيه لوح من جوهر فاذا اراد الله تعالى ان يحدث في عباده امرا امر القلم
ان يخط في اللوح الى اسرافيل فيكون بين عينيه ثم ينتهي الى ميكائيل عليه السلم وله اعوان في جميع العالم
حتى الاركان والمولدات ينفخون فيها ارواحها فيصير معدنا وحيوانا ونباتا وهي القوى التي بها حياتها

مخطوطة وصورة الملاك إسرافيل

الباب الرابع

كعب الأحبار في القصص الشعبي بعد القرن الخامس الهجري

فصول الباب الرابع:

1- كعب الأحبار في أدب الشيعة.

2- كعب الأحبار في أدب طائفة المدجّنين (Moriscos).

3- كعب الأحبار في قصص ألف ليلة وعنترة.

4- كعب الأحبار في أدب القصّة الشعبيّة الحديثة.

5- كعب الأحبار وقصص الأنبياء في المصنّفات اليهوديّة.

1. كعب الأحبار في أدب الشيعة

أخذ مؤلّفو القصص الشعبيّة بعد القرن الخامس للهجرة يدمجون اسم كعب في مؤلّفاتهم، وينحلون باسمه الروايات والقصص الجديدة، حتى لِيَنْدر أن يحدث لغيره من الصحابة والتابعين من رجال القرن الأوّل للهجرة ما حدث له في تلك العصور المتأخّرة. وقد راج اسمه في الأدب الشعبي وبين العامّة في جميع الأمصار الإسلاميّة.

ونشر له نوع خاص من القصص كان منها تلك القصص اليوسفيّة التي يستطيع الباحث بواسطتها أن يتتبّع مكانة كعب عند مؤلّفي القصص ويعرف منزلته على مرّ الزمان وتوالي القرون.

لم يأتِ الطبري بتاتاً على ذِكر كعب في قصص يوسف كما أسلفنا، ولكن الثعلبي ذكر اسمه مع غيره من المحدّثين في رواياته عن يوسف. وقصص يوسف انتشرت عند الفرس ونسبت إلى كعب الأحبار وحده. وكأنه لم يكُن راوية فحسب، بل كان مؤلّفاً ترك للأجيال المُقبلة مصنّفاً عن يوسف الصدّيق. على نحو ما فعل الفردوسي في قصيدته عن يوسف وزليخا التي ذكر كعب الأحبار في مطلعها:

همي كعب أحبار كويد نخست روايت از كعب دارم درست[1]

وكذلك تَغَنَّى الشاعر الشيعي كثير المتوفّى سنة 105 للهجرة بمدح محمد بن الحنفية وأشاد بذكر كعب الأحبار على هذا المنوال:

---

1 –Yusuf and Zalikha by Firdusy ed. H. Ethé (Anecdota Oxoniensia) Oxford 1908 p. 258 N. 2599.

أقــرّ الله عينـــي إذ دعـــاني	أمـــين الله يلطـــف فـــي الســؤالِ
وأثنى في هــواي علــيّ خيــراً	ويسأل عــن نبــي وكيــف حــالي
وكيف نكرت حال أبــي خبيــب	وزلـــة فعلـــه عنـــد الســؤالِ
هــو المهــدي خبرنـــاه كعــب	أخو الأحبار فــي الحقــب الحــوالي

وكان كثير كيسانياً يؤمن بالرجعة فقيل له: ألقيت كعباً؟ قال: لا. فقيل له: فَلِمَ قلت: "خبرناه كعب"؟ فقال بالتوهّم. وكان كثير شيعياً مغالياً، يزعم أن الأرواح تتناسخ[1].

وذكر العلاّمة أبو الريحان البيروني، المتوفّى سنة 440 للهجرة، على لسان كعب الأحبار ما يأتي: ردّت الشمس على يوشع بن نون ثلاث ساعات في يوم سحابي ومثل ذلك في ردّها يحكيه بله الشيعة في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[2].

وهذه الرواية تعطينا صورة صحيحة للتقلّبات التي طرأت على الأسانيد مع مرور الأجيال، وقد نسب الثعلبي هذه الرواية للرسول[3] ورواها الكسائي باسم وهب بن منبه[4] وقصّها الطبري تارة باسم السدّي وطوراً آخر من دون إسناد عن أهل التوراة[5]. ثم وردت عند أبي الريحان

1- أبو الفرج علي بن الحسين القرشي المعروف بالأصبهاني: كتاب الأغاني، طبع بولاق، سنة 1285، ج 8 ص 33، وراجع ما ورد عن هذه القصيدة في مقالة العالم نولدكه:

Th.Noeldeke: Zur Ausbreitung des Schütismus im Islam XIII, p. 70.

2- أبو الريحان البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبع ليبسيك، سنة 1878، ص 248، وراجع ما ورد عن "عن رد الشمس ووقوف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه" سفر يوشع فصل، 10 آية 12.

3- قصص الأنبياء للثعلبي، ص 171.

4- قصص الأنبياء للكسائي، ص 241.

5- تاريخ الطبري ص 512.

البيروني على لسان كعب. وقد بقي كعب متمتّعاً بمكانة عالية في أدب القصّة الإسلاميّة الفارسيّة حتى العصور الأخيرة القريبة من عهدنا، بدليل وجود رسائل تتضمّن قصصاً مرويّة على لسانه. فقد عثرنا في مكتبة دار الكُتب المصريّة على رسالتين صغيرتين مخطوطتين منسوبتين لكعب الأحبار، تعرف الأولى باسم "مناجاة سيدنا موسى" عن جعفر بن محمد.. عن كعب الأحبار.

وقد ذكر الثعلبي مضمون هذه الرسالة في أحد فصوله، ولكن بعبارة مختصرة. أمّا في رسالتنا هذه فذكر هذا المضمون بشيء كثير من التصرّف مع زيادة تشتمل على محادثة صوفيّة وعظيّة.

وليس في المخطوط ما يدلّ على مؤلّفه ولا على تاريخ تأليفه، على أننا نقدّر اعتماداً على الخطّ والورق، أنه كتب في القرن الثاني عشر للهجرة.

وإذا كان الثعلبي ينسب فصله عن مناجاة موسى لكثيرين من الرُواة من بينهم كعب، فإن مؤلّف هذه الرسالة الصغيرة يرويها عن بكرة أبيها باسم كعب الأحبار. أما وجود اسم جعفر الصادق في سلسلة الأسانيد فإنما يدلّ على علاقة الرسالة بالأندية الشيعيّة. على أن هذه الرسالة نفسها مطبوعة ومنتشرة في مصر، ولعلّ نشرها قد تمّ بواسطة أفراد الشيعة المقيمين بمصر[1].

1- دار الكتب المصريّة: فهرس الكتب العربيّة الموجودة بالدار، سنة 1924، ج1، ص 363 وهناك أيضاً نسخة من هذه الرسالة مطبوعة ومتداولة بين عامّة الشعب بمصر، وهي غير مؤرّخة، ولكنها من المطبوعات الدينيّة واسمها "مناجاة كليم الله سيدنا موسى بن عمران" وكذلك يوجد منها نسخ مخطوطة أخرى، بعنوان: "كتاب فيه مسائل يسألها موسى ربه تبارك، رواية وهب بن منبه عن كعب الأحبار راجع:

أما المخطوط الثاني الموجود بدار الكُتب المصريّة فيذكر باسم **"أحاديث قدسية"** مرويّة عن كعب الأحبار[1]، وهي من نوع الروايات التي لم تذكر في غيرها من المصادر والمراجع القديمة، ولم يذكر لها مؤلّف، على أن هناك تاريخاً ذُكر على هذا المنوال: تمّ الكتاب سنة 1148[2] ويلاحظ أن السَطْر السابع من هذا المخطوط يتضمّن النص الآتي: «اللهم صلّ على محمد وآل محمد وسائر النبيين وآل كل أنهارية».

وهذا النص غير مألوف في غير أدب الشيعة من المسلمين، والرسالة تتضمَّن شرحاً مفصّلاً بالفارسية ما يدلّ على أنها لم تكُن موجّهة إلى أفراد الطبقة المستنيرة من الفُرس، بل إلى عامّتهم ومَن ليس له نصيب في معرفة اللغة العربيّة منهم.

2. كعب الأحبار في أدب طائفة المدجّنين (Moriscos)

يُعرف المسلمون الذين بقوا في الأندلس بعد غلبة الأسبان النصارى عليهم وانتزاعهم الملك من أيديهم بالمسلمين المدجّنين[3].

Katalog der Handschriften der Universitâts Bibliothek zu Leipzig von K. Vollers, p. 58 No. 222-3

1- دار الكتب المصريّة وفهرست الكتب العربيّة بالدار، ج1، ص 83.

2- راجع آخر سطر من المخطوط المذكور.

3- وقد سمّوا المدجّنين مَن دجن بالمكان بمعنى ألف الإقامة به... ووجه المناسبة ظاهر، فعندما كان النصارى يتغلّبون على بلاد الإسلام ويبقى فيها مَن لم يستطع الهجرة أو عزّ عليه فراق وطنه فآثر البقاء تحت حكم النصارى وألِفَ الخضوع لهم، فسمّي هؤلاء: المدجّنون.. راجع كتاب الأمير شكيب أرسلان: الحلل السندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسيّة، طبع مصر سنة 1936، ج 2، ص 297.

F. Guillen Robles: Leyen das de José hijo de Jacob y de Alejandro Magno. Zaragoza 1888.

وإذا كان الإسبان في أوّل الأمر بعد انتصارهم قد تسامحوا مع "المدجّنين" واليهود بعض التسامح، وأباحوا لهم أن يقيموا شعائرهم ويتمسّكوا بحقوقهم، فإنهم لم يلبثوا طويلاً على ذلك. بل عادوا فضيّقوا عليهم مسالك الحياة، وأخذوا يضطّهدونهم اضطّهاداً شديداً، ويكرهونهم على ترك دين أسلافهم، ويذيقونهم أشدّ أنواع العذاب، ويسومونهم أفظع ما عرفه التاريخ من الذلّ والهوان، وذلك عن طريق محاكم التفتيش التي قضت على البقيّة الباقية من الطوائف الإسلاميّة واليهوديّة بأرض الأندلس. وكان من نتيجة ذلك الاضطهاد، أن تنصّر ظاهراً عدد غير قليل من المعذّبين. ولكنهم استمرّوا يقيمون شعائر دينهم في الخفاء.

على أن المدجّنين أخذوا ينسون لغتهم العربيّة بالتدريج، ويبدّلونها بلغة إسبانيّة مشوبة بألفاظ عربيّة كثيرة، وكانوا يدوّنون بهذه اللهجة الإسبانية العربية كثيراً من المصنّفات الدينية، إلى أن خرجوا نهائياً في سنة 1610 ب.م. من الجزيرة الأندلسية، فهاجروا إلى شمال أفريقيا، ومنها انتشروا في الأمصار الإسلاميّة.

وكان بعض المدجّنين قد عنوا عناية شديدة بقصّة يوسف وزليخا مرويّة على لسان كعب الأحبار، وهي في الواقع ترجمة إسبانية لما ورد في **قصص الأنبياء**، للثعلبي، عن يوسف الصدّيق، وليس هناك من فَرق سوى أن الثعلبي يَعَدّ كعباً واحداً من المحدّثين الكُثُر الذين يروي عنهم هذه القصص، بينما رجال طائفة المدجّنين ينسبون كل هذه القصص إلى كعب الأحبار وحده الذي يعرف عندهم باسم *Caab el histoiador* [(1)].

1- ومما يدلّ على انحطاط اللغة العربيّة بين طبقات رجال العِلم عند المدجّنين في طورهم الأخير، تبديل مؤلّف قصّة يوسف المذكور كلمة الأحبار بالأخبار (El historiado).

وفي لغة طائفة المدجّنين رسائل مخطوطة أخرى تتضمّن كثيراً من قصص الأنبياء، منها رسالة مرويّة على لسان كعب، مؤلّفها مجهول وتاريخها يرجع إلى القرن السابع عشر، أي أنها دوّنت قبل خروج المسلمين نهائياً من الأندلس بزمن قصير[1].

وكذلك وصلت إلينا قصة إبراهيم الخليل ونمرود بهذه اللغة مرويّة عن كعب[2]. وفي النهاية نذكر قصص محمد ربضان "رمضان"[3] الذي رَوى قصّة واحدة عن سليمان النبي *(Racontamiento de Solaiman Profeta de Allah)* وقد نسب المؤلّف هذه القصّة للرسول نفسه *(Profeta Mahoma)* كما ورد فيها اسم كعب على هذا المنوال: *Cabu el Ajbar*، وفي هذه المجموعة قصّة عن موسى منسوبة لكعب ومشابهة لِمَا ورد في قصّة مناجاة موسى لربّه[4].

3ـ كعب في قصص ألف ليلة وعشرة

لَم يَرِد لِكَعب الأحبار ذكر في ألف ليلة وليلة إلا في قصّة واحدة هي قصّة إِرَم ذَاتُ الْعِمَاد التي لا تختلف في مضمونها عمّا جاء عند

---

1 –Catalogue General des Manuscrits de France, Tome XVIII: Alger par Fagman, p. 555-556 No. 1944.

2 –Sphira: Legends bibliques attribuées a Ka'b al Ahbar : Revue des Etudes juives, Tome 69, p. 86 ff.

3 –Joseph Morgan: Mahometism fully explained written in Spanish and Arabic Anno 1606 for the instruction of the Moriscos in Spain by Mahomet Rabadan an Arragonian Moor.

4 –M. Grünbaum: Neue Beitrâge zur semitischen Sagen Kunde-Leiden. 1893-p. 271, 281.

الثعلبي[1].

وكذلك اندمجت في سيرة عنترة بن شدّاد أخبار كثيرة من قصص الأنبياء مرويّة عن وهب بن منبه وكعب الأحبار[2] وفي هذه السيرة ثلاث قصص منسوبة إلى كعب الأحبار وحده[3].

4. كعب الأحبار في أدب القصّة الشعبيّة الحديثة

لقد ظل أدب القصّة الشعبيّة محتفظاً بمكانة في النفوس طيلة

1- كان العالمان برلس وباخر Perles: Rabbinische Agadas in Tausend und Eine Nacht. قد رأيا أن بعض أقاصيص ألف ليلة وليلة، مأخوذة من مصادر يهوديّة، ثم جاء العالم شوفن ووضع رسالة كاملة عن القصص اليهوديّة التي أدمجت في ألف ليلة وليلة.

Bacher: M.G.W.Y.XXII p. 332 – 336. V. Chauvin, une recension égyptienne de 1001 Nuits 1099.

وعندنا أن الحذر والحيطة خير سبيل يسلكه الباحث في مسألة تبيين التأثير المباشر للمراجع اليهوديّة على ألف ليلة وليلة. ونرى أن أغلب ما اندمج من الموضوعات في ألف ليلة، لم يأتِ من المصادر اليهوديّة مباشرة، بل جاء إلى المؤلفين المسلمين من قصص الأنبياء الإسلاميّة، التي كانت قد راجت رواجاً عظيماً ثم أدمجت بعض أخبارها في مجموعة ألف ليلة وليلة. لذلك نجد قصّة بلوقيا المرويّة عند الثعلبي على لسان عبد الله بن سلام، "قصص الأنبياء للثعلبي، ص 337" دخيلة في حكاية حاسب كريم الدين "ألف ليلة وليلة، طبع بيروت، سنة 1880، ج2، ص 829 – 893، وحكاية بلوقيا فيها من ص 832 – 844" دون أن يشير الناقل إلى أنها من روايات المحدثين، لأنه ليس من العرف في هذه الحكايات، الإشارة إلى الأسانيد أو إلى المصادر "وكذلك راجع قصّة إرم ذات العماد، في ألف ليلة وليلة الطبعة المذكورة، ج2، ص 579 – 582، وراجع مقالة للمؤلف عن الحكايات اليهوديّة التي اندمجت في ألف ليلة وليلة في مجلة عبريّة.

2- سيرة عنترة بن شداد، طبع مصر، سنة 1286، ص 7 – 90.

3- سيرة عنترة بن شداد ص 18، ص 20، ص 23.

العصور الإسلاميّة بأسرها، فالشعب كان دائم الإقبال على الأدب الديني الممزوج بالقصص التي تعينه على فهم دقائق الدين، وتساعده على كشف الغامض من الأخبار القرآنية، وتسهّل له الطريق للوصول إلى نتيجة حاسمة في الموعظة والاعتبار. لذلك لم ينقطع التأليف في هذا النوع من الأدب الشعبي طيلة العصور الإسلاميّة بأكملها.

ولكن الطبقة المستنيرة من المسلمين، لم تنظُر يوماً بعَين الرِضى إلى هذا النتاج العقلي. ولم تجد فيه ما يستحقّ أيّة عناية. وكان لها من قصص ألف ليلة وليلة وعنترة والزير وغيرها موقفاً مماثلاً. مع أن هذه الحكايات هي المقياس الصالح للوقوف على ميول الشعب العقليّة في شؤون الدُنيا والدين، ومثل كثرة التدوين في قصّة الشُعب الإسلاميّة في جميع العصور مثل الدوحة العظيمة القديمة، التي توغّلت جذورها في أعماق الأرض، وتشعّبت فروعها بأوراقها الكثيفة، ممتدّة في كل جانب. وقد ورد بعض هذه القصص، التي دوّنت في العصور الحديثة على لسان كعب الأحبار وغيره من المحدّثين، الذين عاشوا في القرن الأوّل للهجرة، مثل عبد الله بن عبّاس، وأبو هُرَيْرَة، وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه وغيرهم[1].

1- ولنذكر من هذه القصص على سبيل المثل ما يأتي:
أ- قصّة الجُمْجُمَة مرويّة عن كعب الأحبار، مصر، وسنة الطبع غير مذكورة، وقصّة الجُمْجُمَة قديمة العهد وكانت متداولة بين المسلمين منذ القرن الثالث للهجرة، وقد نقلها الأصبهاني في مجموعته عن الأولياء "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، ج6، ص 9 – 12. على أن المتأخرين قد توسّعوا فيها على مرّ الزمن حتى وصلت إلينا في المجموعات الشعبيّة الكثيرة الرواج في الأصقاع الإسلاميّة. وهي حكاية شديدة التأثير وذات مغزى وعظي عميق.

ومن هذا الأدب، مروياً على لسان كعب، رسالتان صغيرتان مخطوطتان منتشرتان في بلاد الجزائر من المغرب، الأولى تشتمل على قصّة لسيّدنا موسى، ترجع إلى القرن الحادي عشر للهجرة[1] والثانية قصّة عن سليمان الحكيم دوّنت سنة 1141 للهجرة[2].

وفي مكتبة برلين، مجموعة من القصص الشعبيّة دوّنت نحو سنة 1750 ب.م. وقد رُوِيَت القصّة الثالثة منها على لسان كعب الأحبار، وهي تصف العقاب الذي ينزله الله بإبليس في يوم الدين[3] وكذلك تحتوي المكتبة المذكورة على مخطوط آخر، دوّن نحو 1800 ب.م.، ويشتمل على قصص يُروى في واحدة منها على لسان كعب، موعظة دينيّة منسوبة للتوراة[4]. ثم هناك أيضاً مجموعة ثالثة من القصص في المكتبة المذكورة يُروى فيها لكعب ولغيره من المحدّثين، مثل ابن مسعود، وسفيان الثوري، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم[5].

← ب- نصر السمرقندي: تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين، طبع مصر، سنة 1347.

جـ- نصر السمرقندي: بستان العارفين: طبع مصر، سنة 1343.

د - حسن العدوي: مشارق الأنوار في فوز أهل الاعتبار، مصر سنة 1280.

هـ - عبد الرحمن بن أحمد القاضي: دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار، طبع مصر، سنة الطبع غير مذكورة.

و- عبد الرحمن الصفوى - نزهة المجالس ومنتخب النفائس، طبع مصر، سنة 1269.

1 – Catalogue General des Manuscrits de France, Tome XVIII: Alger par Fagnan, p. 20 No. 68, 3.

2 – Ibid p. 550 No. 1919, 2.

3 – Ahlwardt: Verzeichnis der arabischen Handschriften. Tome VII, p. 481 No. 8503.

4 –ibid, Tome V, p. 24, No. 5423,2.

5 –ibid, Tome VII, p. 467 No. 8483, 33.

ونشير كذلك إلى مجموعة من القصص في دار الكُتب المصريّة[1] ورد فيها بعض صفحات باسم كعب الأحبار، وكان ناسخ هذه المجموعة قد ذكر في إحدى الصفحات ما يأتي: وكان الفراغ من هذه النسخة الشريفة في خامس عشر محرم الحرام افتتاح سنة ألف ومائة واثنتين وثلاثين من الهجرة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على يد كاتبها أفقر العباد حسن جلبي ابن الحاج مكي[2]. ويتّضح أن ناسخ هذه المجموعة ليس هو المؤلّف، بل إنه اكتفى بجمعها في مصنّف واحد نقلاً عن مصادر متعدّدة. وتشتمل الرواية التي جاءت على لسان كعب على أسباب جديدة لإسلامه لم تذكر في المجاميع القديمة من الروايات الإسلاميّة[3].

1- دار الكُتب المصريّة، فهرس الكُتب العربيّة، ج7، ص 443.

2- راجع نهاية صفحة 102 من المخطوط المذكور.

3- ومع أن المجموعة، لم تُنشر كلّها إلى الآن، رغم أنها تستحقّ النشر بنصّها الكامل مع دراسة وتحقيق، فإننا نكتفي بنقل ما رُوي فيها عن كعب، حتى لا نخرج عن موضوعنا:

عن كعب رضي الله عنه، قال حُذيفة بن اليماني رضي الله عنه: بينما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم في المسجد، إذ دخل عليه كعب الأحبار رضي الله عنه، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة أيكم خليفة رسول الله، صلعم، أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، فقام إليه ابن عبّاس رضي الله عنه وقال له اقصد أمامك في المحراب فهو خليفة رسول الله عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، فأتى إليه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقام إليه عمر بن الخطاب قائماً على قدمَيه. وقال له: وعليك السلام، لَعَلَّك كعب الأحبار الذي أوصانا بأمرك رسول الله، صلعم، فقال له كعب: أنا ذلك يا عمر رضي الله عنك. فقال له عمر رضي الله عنه: سألتك بالربّ الذي هداك لدين الإسلام ألا ما أعلمتنا كيف كان سبب إسلامك، قال كعب: نعم يا عمر كنت في

دين اليهوديّة أخدم حبراً من الأحبار، فقرأت عليه التوراة وحفظتها فوقعت في التوراة على عشرة أسطر طلسمتها اليهود وأمحتها لكي لا يشتهر أمرها، وكنت قد خدمت ذلك الحبر أربعة أعوام فلمّا أتَتْهُ الوفاة جلست على رأسه وقلت له ألَمْ أكُن لك ناصحاً في الخِدمة قال نعم. فقلت له فهل سألتك فيها حاجة أو طلبت منك أجرة؟ فقال: لا، وكفاك من ناصح. فقلت له: فلي إليك حاجة، فقال لي: ما هي يا كعب، فقلت له: قرأت في التوراة وحفظتها حرفاً حرفاً وسطراً وسطراً فوجدت فيها عشرة أسطر مطلسمة، وأريد منك تفسيرها لي فارتعش وارتعد واصفرّ لونه وقال: سألتني عن شيء لا أطلعك والله عليه، فإني أخشى عليك لكن إذا أنا مت، فسر إلى الحبر الفلاني فإنه أعلم بها مني. ثم أنه مات، لعنة الله عليه. ثم سرت إلى الحبر الذي ذكر لي، فخدمته عشرة أعوام فلمّا أتاه الموت سألت منه مثل ما سألت الحبر الأوّل فقال لي: أخشى أن أفسّرها لك تصير إلى دين محمد بن عبد الله. فقلت له أعوذ بالله من ذلك. فأحضر التوراة وقال لي إحلف عليها أنك لا تصير إلى دين محمد، فحلفت له عليها. فقال لي: يا كعب أما السطر الأوّل فقرأته في التوراة وفسّرته بالعبراني ورأيت بيانه في كتاب الله: بسم الله الرحمن الرحيم، ووصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، فقلت للحِبر والسطر الثاني، قال الحِبر: قرأته في التوراة وفسّرته بالعبراني، ورأيت بيانه في كتاب الله تعالى: أم كنتم شهدا إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون. قال كعب الأحبار رضي الله عنه فقلت للحبر: والسطر الثالث، قال: قرأته في التوراة وفسرته بالعبراني، ووجدت بيان ذلك في كتاب الله تعالى قوله تعالى: ما كان إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، قال كعب رضي الله عنه فقلت للحِبر: والسطر الرابع قال: قرأته في التوراة وفسّرته بالعبراني، ووجدت بيان ذلك في كتاب الله تعالى وهو قوله: أفَغَيْر دين الله يبغون وله أسلم مَن في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون، قال كعب الأحبار فقلت له والسطر الخامس: قال قرأته في التوراة وفسّرته بالعبرانيّة، ورأيت بيانه في كتاب الله تعالى وهو قوله: ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين، قال كعب: فقلت للحِبر: والسادس، قال: قرأته في التوراة وفسّرته بالعبرانيّة، ووجدت بيانه في كتاب الله وهو قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. قال كعب الأحبار رضي الله عنه فقلت للحِبر، والسطر السابع،

5. كعب الأحبار وقصص الأنبياء في المصنّفات اليهوديّة

إذا كان أدب القصّة الإسلاميّة منذ نشأته إلى أواخر القرن الخامس للهجرة قد تغذّى من المصادر اليهوديّة قبل كل شيء، فإنه حدث منذ القرن السادس ردّ فعل قوي أدّى إلى توغّل القصّة الإسلاميّة في أدب اليهود بالأمصار الإسلاميّة عامّة وبمصر خاصّة.

وهناك مجموعات في قصص الأنبياء عند اليهود، يتّضح أنها متأثرة بالقصّة الإسلاميّة. فإن مصنّفات مثل فصول الحبر أليعازر وفصول إلياهو والسِفر المستقيم والمصنّف الجميل تأليف الحبر نسيم تشتمل على روايات تلموديّة عليها مسحة من أدب القصص الإسلاميّة، ويبدو ذلك من أسلوبها

← قال قرأته في التوراة وفسّرته بالعبرانيّة، ورأيت بيانه في كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى: قل إن هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. قال كعب رضي الله عنه فقلت للحِبر، والسطر الثامن، قال: قرأته في التوراة وفسّرته بالعبرانيّة، ووجدت بيانه في كتاب الله تعالى، وهو قوله: اليوم أكملت لكم دينكم وأتْمَمْت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً. قال كعب الأحبار رضي الله عنه فقلت للحِبر والسَطر التاسع، فقال: قرأته في التوراة وفسّرته بالعبرانيّة، ووجدت بيانه في كتاب الله تعالى وهو قوله تعالى: وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل، قال كعب الأحبار رضي الله عنه فقلت للحِبر: والسَطر العاشر فسَكت، فَكَرَّرْت عليه وقلت له سألتك بما في التوراة ألا ما أكملت علَيَّ هذه الأسطر فقال: أخشى عليك لكن أحلف لي على التوراة ثانياً، فكتب لي على الأرض فقرأت ما كتب لي فإذا هو مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله، إن الدين عند الله الإسلام. فقلت للحِبر لأي شيء لم تفعل بهذه العشرة الأسطر ولأي شيء أنتم طلسمتوها وغيّرتم أشكالها. فسكت وتغيّر لونه. فقلت له أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فلما سمعني شخص ورأيته قد ضرب برأسه الأرض وشَهَقَ شَهقَة فارق الدنيا، لعنة الله عليه. ففَرَرْت من ذلك الدين إلى دين الإسلام، وهذا هو سبب إسلامي يا أمير المؤمنين، تمّت بعون الله تعالى "راجع المخطوط المذكورة أعلاه من ص 59 – 61".

العربي ومن أسماء الأعلام العربيّة وآداب قصّتها الإسلاميّة[1].

وليس ردّ الفعل هذا مقتصراً على اقتباس النصوص والأسماء والأعلام فحسب، بل يشمل نقل قصص كاملة أخذها المؤلّفون اليهود من العربيّة، ولم يلتفتوا إلى أصلها في المصادر العبريّة، والذين لا يعلمون مقدار تأثير الآداب العربيّة من شِعر وفلسفة ومنطق وعلوم في يهود القرون الوسطى بالأمصار الإسلاميّة يعدّون ذلك ظاهرة غريبة. ولكن الذين يعلمون مبلغ تأثير الحياة العقليّة العربيّة والإسلاميّة في الثقافة اليهوديّة، إبّان القرون الوسطى من الناحيتَيْن الدينيّة والدنيويّة، يفهمون سبب

1- وقد عني عُلماء اليهود منذ القرن الأخير بمسألة تأثير القصص الإسلاميّة في ما دوّن من أدب قصص الأنبياء عند اليهود في أثناء القرون الوسطى نود أن نشير إلى أهم المراجع فيها:

M. Steinschneider: Polemische und apologetische Litteratur p. 304, 338, 339 f.

Zunz: Gottesdienstliche Vortäge: 66-74, 154-156, 166, 271 – 278, 270 – 287.

Lidzbarski: De Popheticis p. 57 – 64.

Yellinek: Beth Hamidrash p. 25-34

B. Shapira: Legendes Bibliques attribuées à Ka'b al Ahbar: Revue des Etudes juives, Tome 69, p. 86-107. Tome 70, p. 37-43.

Horovitz: Enc. Judaica VIII, p. 580.

Aptowitzer: Kain und Abel. Wein 123, 129, 154, 156, 158, 182.

Bacher: Jewish Enc, XII 60-61

Israel Levi: Revue des Etudes juives XVIII, 83-89

M. Grünbaum: Neue Beitrâge, p. 127-131.

Strack: Einleitung in den Talmud 217f 223. (Meller: Monatschrift für Leschichte und Wissenschaft des Yundentums 1925, LXIX, 42-54)

George Foote Moore: Judaism I, 138-139. 145-146.

Gaster: Exampla of the Rabbis 32-39.

D. Sidersky: les origins des Légendes Musulmanes, Paris 1933

الاعتماد على المراجع العربيّة الإسلاميّة في القصص بدلاً من الرجوع مباشرة إلى المصادر اليهوديّة.

وقد تصرّف المؤلّفون اليهود في القصص التي أدخلوها في البيئة اليهوديّة من الأدب العربي كي تلائم العقليّة اليهوديّة والعقائد الإسرائيليّة.

ووجد بين أوراق الجنيزة اليهوديّة في مصر نسختان من قصّة إبراهيم ونمرود. وإذا كانت هذه القصّة عند الثعلبي منسوبة إلى جملة محدّثين دون أن يذكر بينهم كعب، فإنها عند الكسائي مروية عن كعب وابن عباس. وقد خصّها الثعلبي بفصل صغير. في حين توسّع الكسائي في سرد هذه الرواية وفصّلها تفصيلاً وافياً، راجعاً الى مصادر متعدّدة.

وأخذها اليهود عن الكسائي ونسبوها كلّها إلى كعب الأحبار[1] والنسختان المذكورتان ترجع أولاهما إلى القرن الثاني عشر ب.م. وترجع الأخرى إلى القرن السابع عشر ب.م. وهما مدوّنتان باللغة العربيّة بحروف عبريّة. وقد ورد اسم كعب في النسخة القديمة على هذا المنوال: قال كعب الأحبار.

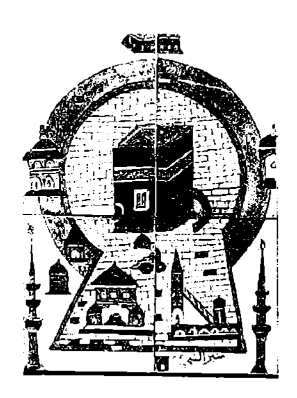
أما النسخة الثانية المتأخّرة فقد ورد الإسناد على هذا المنوال: قال المحدث.

ولا شكّ عندنا أن النسخة القديمة منقولة مباشرة من مجموعة عربيّة

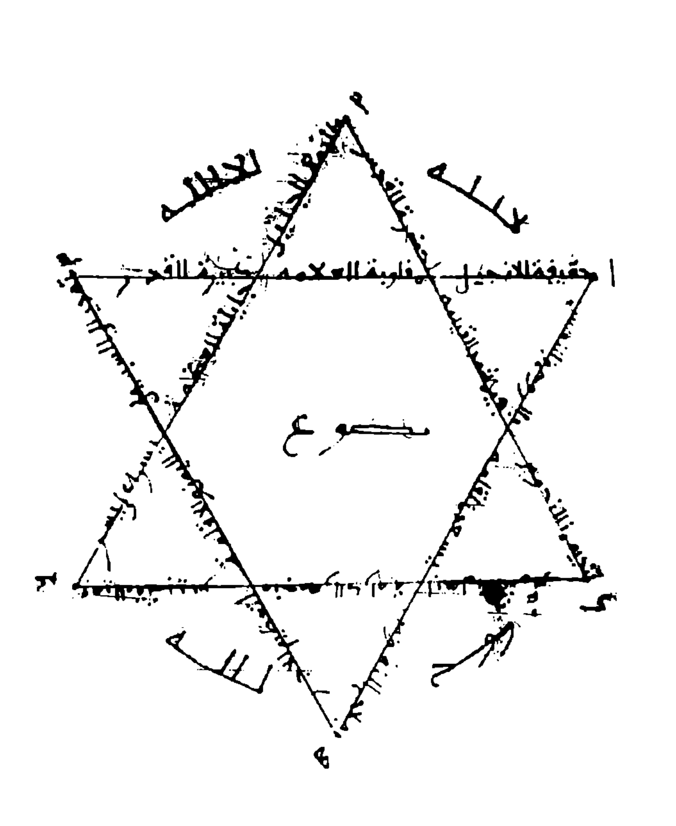
1- ويظهر أن هذه القصّة قد حظيَت برواج عظيم في حارة اليهود بمصر، بدليل كثرة النسخ التي وجدت منها عندهم، وقد عثرنا على نسخة واحدة منها، وهي مكتوبة باللغة العربيّة بحروف عبريّة. ولكن، للأسف، فأوّلها ضائع وآخرها كذلك، والرواية مسندة إلى كعب الأحبار ولا يمكن تحديد زمن تدوينها. فالصفحات الباقية من هذه النسخة تعطي صورة واضحة عن أسلوب اليهود العربي في القرون الوسطى. وهذا الأسلوب عربي مشوب بألفاظ غير قليلة من اللغة العبريّة. كما هو شأن العربيّة المألوفة عند يهود القاهرة إلى يومنا الحالي.

إسلاميّة بشهادة أسلوبها العربي الصريح، وبدليل الآيات القرآنيّة، التي وردت فيها والنظريّات الإسلاميّة الخالصة، التي لا وجود لها في المصادر اليهوديّة مطلقاً.

أما النسخة الثانية فمدوّنة بلغة عربيّة شعبيّة مشوبة بكلمات عبريّة، فأسلوبها يشبه أسلوب المحادثة بالعربيّة عند يهود القاهرة في عهدنا، لذلك لا يبعد أن يكون أحد أدباء اليهود من الذين كان لهم إلمام بأدب القصّة، قد نقلها وهَيّأَهَا للقارئ اليهودي بعد أن حذف منها كل ما لا يُلائم العقليّة اليهوديّة ولا يتّفق مع التقاليد الإسرائيليّة بمصر [1].



1- راجع ما ورد عن المخطوطين في مقالة العالم (Shapira) شابيرا في مجلة:
Revue des Etudes Juives. Tome 69, p. 86-107, Tome 70, p. 37-43.



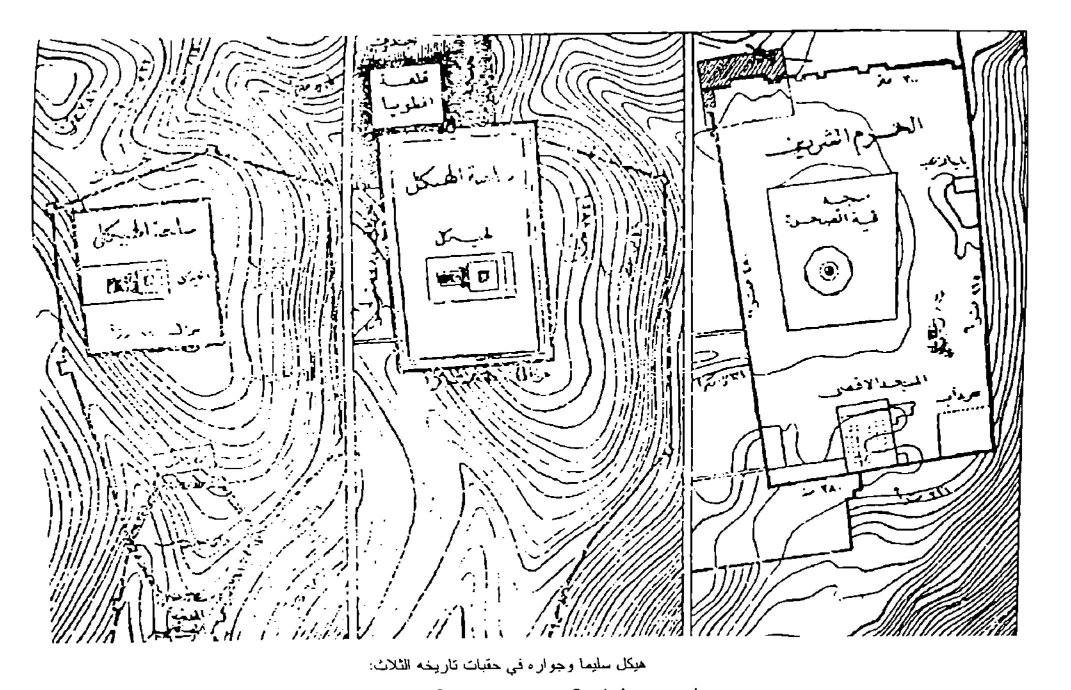
حقيقة الانجيل مقابلة العلامة

ملحق

وقائع ندوة

قراءة في كتاب

"من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام"



هيكل سليما وجواره في حقبات تاريخه الثلاث:

1 – عصرسليمان، 2 – عصر هيرودس، 3 – العصر الإسلامي

تتشرّف جمعية المعارف الإسلامية الثقافية بدعوتكم
إلى ندوة بموضوع

قراءة في كتاب

"من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام"

للدكتور لويس صليبا

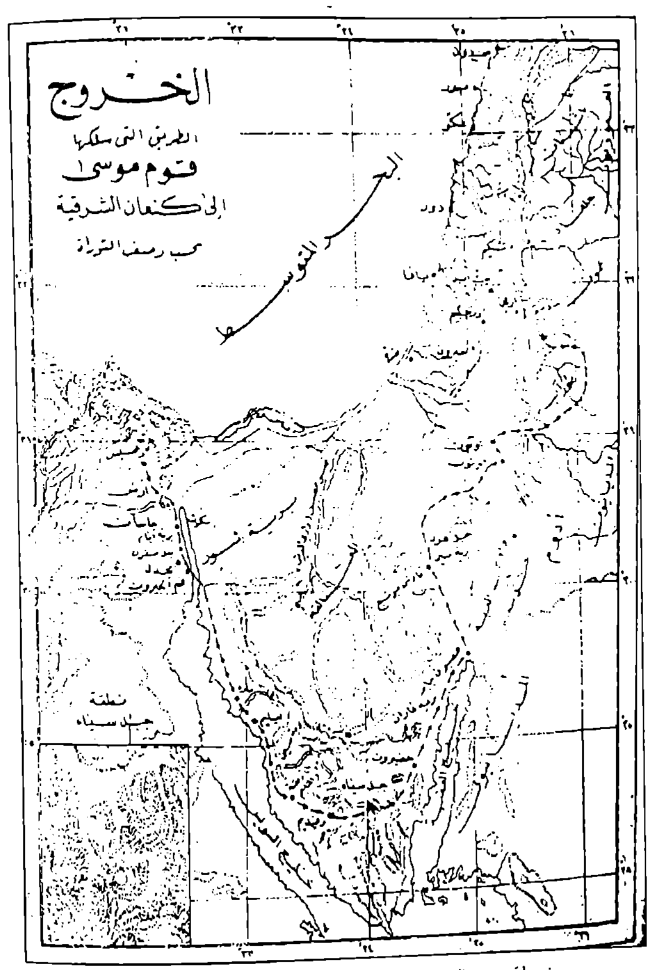
المشاركون:

- الأب الدكتور سهيل قاشا
- الدكتور إحسان مرتضى
- الدكتور جميل قاسم

تدير اللقاء: الأستاذة جاندارك أبي عقل

الزمان: الأحد 2007/05/13
الساعة 5:00 عصراً – قاعة الندوات

المكان: معرض المعارف الثاني للكتاب العربي والدولي
مجمّع سيّد الشهداء في ضاحية بيروت



خريطة مسيرة العبرانيين من مصر إلى كنعان الشرقيّة وفق رواية التوارة

كلمة جندارك أبي عقل

أيّها السادة،

نصف قرن وأكثر ونحن نحكي عن الصهيونيّة،

ونصف قرن مضى وما زلنا لا نفهم الصهيونيّة،

نصف قرن ويزيد وهذه المنطقة تعاني وتعاني لأنّها أُخذت على غفلة من أبنائها ولأنّ الأخطبوط له في كلّ مركز ثقل وقرار، يد طائلة.

الكنيسة الكاثوليكيّة، التي استشعرت خطر الصهيونيّة على العقيدة رفضتها بشدّة وحرّمت ما تفرّع عنها من بدع وما تزرعه من مبادئ هدّامة، ووقفت عند هذا الحدّ .

والحكومات العربيّة ... الحكومات التي كانت تحارب الصهيونيّة ودولة إسرائيل بالخطب الرنّانة والسيوف الخشبيّة – على سبيل رفع العتب – فقدت اليوم ماء وجهها وهي تتسابق للحصول على رضى تل أبيب ومن وراء تل أبيب .

أمّا غلاظ الرقاب – كما يسمّيهم بولس الرسول – الذين لا يمتدّ بصرهم لأبعد من الأرباح السهلة، والذين ضربت الأطماع طوقًا حول ضمائرهم فباعوا انتماءهم بثمن أقلّ ما يقال فيه إنّه بخس فقد توهّموا سلمًا ولكن أنّى لهم ذلك والعدوّ متربّص ينتظر الفرصة السانحة؟

والصهيونيّة، في هذا الخضمّ، تلعب لعبة الإعلام وتتحكّم به ولا سبيل للمواجهة إلاّ بشعب أوسع ثقافة وأعمق وعيًا وأكبر تضحية .

أيّها السادة،

جهة واحدة، على مساحة الوطن العربيّ، فهمت هذه الحقيقة واستنفرت كلّ الطاقات ، فكسرت بتصميمها وصبرها وتضحياتها واستعدادها لبذل الدماء نصف قرن من الاغتصاب والجبروت والهيمنة.

هؤلاء ، حملهم إيمانهم بالقضيّة على الزهد بكلّ ما عداها فحطمّوا الوهم وزرعوا الأمل.

وما زالت الدرب طويلة ....

وما لقاؤنا هنا اليوم حول كتاب "من تاريخ الصهيونيّة في أرض الإسلام" إلاّ لوضع المطامع الصهيونيّة في رقعة الضوء وللمساهمة في دحض الباطل ونشر الوعي وثقافة المواجهة .

جاندارك أبي عقل

المشاركون في الندوة

أستاذ إحسان مرتضى

أستاذ متخصّص باللغة العبريّة وباحث في الشؤون الإسرائيليّة، له العديد من المقالات والأبحاث المنشورة في الصحف والمجلاّت.
أستاذ إحسان مرتضى يناقش اليوم "نداء نابليون" ويعلّق عليه.

د. جميل قاسم

أستاذ باحث في الفلسفة، من مؤلّفاته : الفكر المحض المختلف والمؤتلف. وأخيرًا : العرب وما بعد الحداثة
أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانيّة – مادّة الجماليّات.
شارك في عدّة مؤتمرات عن الصهيونيّة آخرها في مصر. يتناول اليوم بالبحث: كيف نتعاطى مع المسألة الصهيونيّة؟ كيف ننظر إلى الآخر اليهوديّ ؟

الأب د. سهيل قاشا

- مؤرّخ له الكثير من المؤلفات، منها :
- الصهيونيّة تحرّف الإنجيل
- اليهوديّة الصهيونيّة تحرّف الكتاب المقدّس

- قراءة جديدة في الماسونيّة وشهود يهوى
- التوراة البابليّة
- أثر الكتابات البابليّة في المدوّنات التوراتيّة
- مقتبسات شريعة موسى من شريعة حمورابي

يعطي الآن رؤية شاملة عن الكتاب .

د. لويس صليبا

متخصّص في الأديان المقارنة وباحث في الفلسفة والأديان والتاريخ. مؤلّف ومحقّق وناشر.

إستدرجته المغالطات الواردة في كتاب "يقظة العالم اليهوديّ" إلى تصنيف كتاب في موازاته بغية التصويب. يحدّثنا عن الكتاب ويعلّق على ما قيل في هذه الندوة.

الأحد 13 أيّار 2007

الرويس – مجمّع سيّد الشهداء

مداخلة د. لويس صليبا

مؤلّف كتاب "من تاريخ الصهيونية في أرض الإسلام"

"دراسة لجذورها في المشرق وتلفيقاتها لتاريخه"

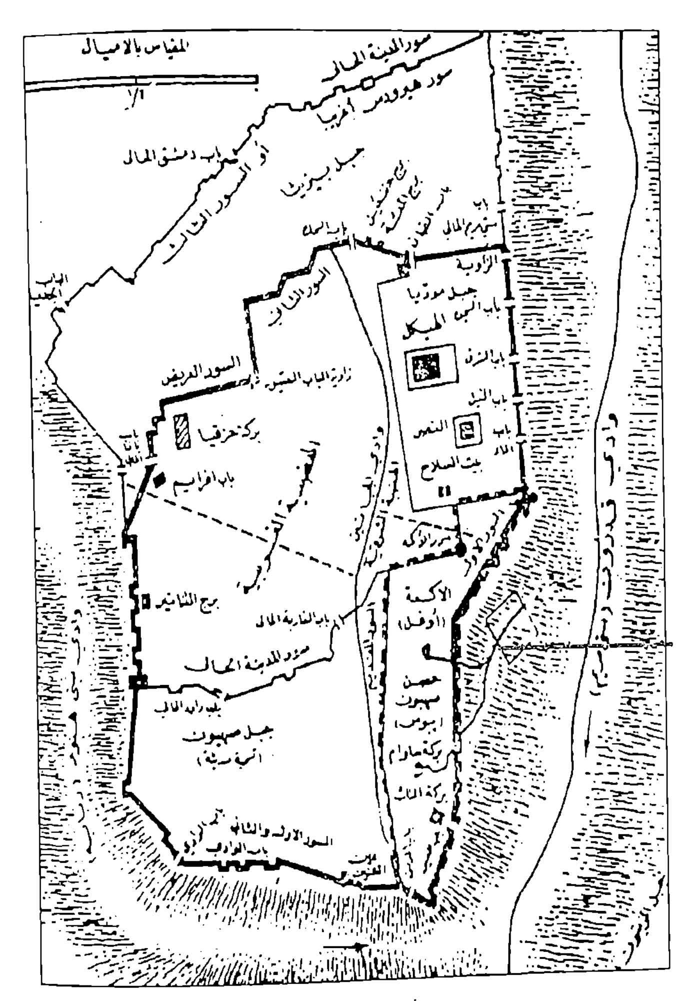
في الندوة حول هذا الكتاب

معرض المعارف الحكمية

مجمع سيّد الشهداء في ضاحية بيروت

الأحد 07/05/13

الساعة الخامسة مساءً



خريطة أورشليم في أقدم عصورها

أودُّ في مستهلِّ كلمتي أن أوجّه تحيـــة شـــكرٍ وإكبـــار لجمعيـــةِ المعارفِ الإسلاميةِ الثقافية. فأقول لمسؤوليها: لقد نجحتُم فـــي تنظـــيم معرضٍ للكتاب وتظاهرةٍ ثقافية شاركَ فيهـــا مئـــات الألـــوف. ولكـــن إنجازَكم لا يتوقفُ عن هذا الحد. فمعرضُكم، وما تخلّله من نشـــاطات منعطفٌ أساسيٌ في تاريخ لبنان الثقافي: فكثيرة هي النوادي والحركات والرابطات التي تدّعي الثقافة. والتي نظّمت وتنظّم معارضَ للكتاب في مختلف مناطق لبنان. ولكن نشاطها هدفَ ويهدِفُ في الغالب إلى الربح المادّي أولاً، والدور السياسي ثانياً.

أما أنتم في جمعية المعارف الإسلامية الثقافية فقـــد قـــدّمتم لكـــل هؤلاء، ولنا نحن المؤلفين والناشرين، ولكل المثقفين في لبنـــان مـــثلاً واقعياً وحيّاً عن كيف يكون النشاط الثقافي المنزّه عن الربح المـــادي. فاستحقيتم الشكر والإكبار.

أما كتابي: "من تاريخ الصهيونية فـــي أرضِ الإســـلام: دراســـةٌ لجذورها في المشرق وتلفيقاتها لتاريخه". فهو جزء من سلسلة أشرفتُ على إصدارها في دار ومكتبة بيبليون. وعنوانُهـــا: "اليهوديـــة بـــأقلام يهودية" وقد بَلَغَتْ العناوينُ الصادرة ضـــمنها اليـــوم عشـــرةَ كتـــب. والسلسلة هذه تعتمد المقاربةَ عينَها التي ألتزمُ بها في مجـــال دراســـة وتدريس الأديان المقارنة. أي المقاربة الداخلية للأديـــان. أو دراســـة الأديان من الداخل. لذا تُفسح المجال لليهود أنفسِهم للحديث عن ديـــنهم

في شتى المجالات: العقائد والشرائع والتاريخ وغير ذلك.

والكتاب أساساً، كما تشير صفحةُ عنوانِه ومقدّمتُـــه دراســـةٌ وردٌّ على كتابٍ آخر وضعه عام 1934 مؤلفٌ يهودي مصري اسمه إيلـــي ليفي أبوعسل وعنوانه: يقظة العالم الهيودي. وقد أشرتُ في المقدّمـــة إلى أن موادَ كتابِ يقظة العالم اليهودي وموضوعاته، وما تضمنتها من مغالطات وتلفيقات، استدرجتني رويداً رويداً إلى تصنيف كتابٍ يماثـــلُ الأولَ حجماً. وما كان ذلك هدفي في الأساس. ففي كتاب أبي عسل عددٌ من الوقائع، والعديد من التركيبات والتلفيقات التي قد تبدو للوهلة الأولى صادقة، لاستنادها إلى هذه الوقائع مثل مسألة نداء نابوليون المزعـــوم إلى اليهود أو الدور المنسوب لحاييم فارحي خازن الجزّار في الـــدفاع عن عكّا بوجه حصار نابوليون وغير ذلك الادعاءات التي كان لا بـــدَّ من تفنيدها بطريقةٍ علمية موضوعية، واستقراءِ المصادرِ بشأنها.

ولعلَّ أبرز مساهمات الكتاب وجديده تسليطُه الأضواء علـــى أول شكل من أشكال اللوبي اليهودي الذي تعاني منه اليوم أميركا والـــدول الغربية.

فقد عرفت الدولة العثمانية شيئاً من هذا القبيل. فالصيارفةُ وخَزَنَةُ الولايات، أي وزراء ماليتها، من آل فارحي اليهود، كانوا، في فترة من الفترات، يمسكون بخزائن عكّا والشام وبغداد واسطنبول فـــي الوقـــت عينه. حتى قيل عنهم «إن الولاة ماسكون قرون البقرة، وآل فـــارحي يأكلون حليبها».

وكان آلُ فارحي على اتصالٍ دائم ببعضهم البعض، كـــل يُعلـــمُ الآخر ويسهّل له. فسيطروا على مراكزَ للقرار في الدولـــة العثمانيـــة.

فأفادوا واستفادوا في تعيين مَن يرغبون في المناصب العليا، وإزاحة أو عزل مَن لا يرغبون فيه، أو يقفُ في طريقهم. كما كان لهم تأثيرٌ مباشرٌ في عدد من أحداث جبل لبنان. كحرب البشيرين بين الأمير بشير الشهابي الكبير والشيخ بشير جنبلاط (عام 1825) وهي أولُ حربٍ اكتست طابعاً طائفياً وقسمت جبل لبنان عامودياً. فاليهود من آل فارحي الذين ساندوا درويش باشا انتقاماً لمقتل أخيهم حاييم بأيدي عبدالله باشا، عملوا، على ما يبدو، بوسائل شتى على استمالة الشيخ بشير جنبلاط لمناصرة درويش باشا. ما وضعه في مواجهة عبدالله باشا وحليفه الأمير بشير الكبير. ومما يقول المؤرخ نوفل الطرابلسي المعاصر لتلك الأحداث في هذا الصدد «وأرسل درويش باشا سلمون وروفائيل اليهوديين اللذين كانا كتبة خزنة الشام إلى الشيخ بشير جنبلاط ليفهماهُ خاطرَ الوزير».

وكان الشيخ بشير جنبلاط على علاقة وثيقة باليهود من آل فارحي وهو أمر يستحق التوقّف عنده. فهم مَن أنقذوه من الإعدام عندما أوجسَ السلطان العثماني خيفة من طموحه بإقامة إمارة درزية تمتد حدودها من البحر حتى جبل حوران، وفق تعبير المؤرخ الشوفي المعاصر د. سليم هشّي. الذي يضيف نقلاً عن مصدر تاريخي معاصر لتلك الأحداث: «أمر السلطان العثماني حاكم عكّا سليمان باشا بإعدام الشيخ بشير وإرسال رأسه إلى اسطنبول. غير أن إسحق فارحي مدير ماليّة الدولة العثمانية الذي تربطه وابن عمّه حاييم صداقة متينة بآل جنبلاط، توسّط لدى السلطات وأقنعه ببراءة الشيخ من الاتهامات (...) فعفا السلطان عنه».

فآل فارحي كانوا إذاً أصحاب فضلٍ على الشيخ بشير جنبلاط. ويبدو أنهم نجحوا في مسعاهُم في استمالتِه إلى جانبِهم وجانبِ درويش باشا. وبالتالي تأليبه على عبدالله باشا وحليفه الأمير بشير.

وهذا مثلٌ واحد، وغيضٌ من فيضٍ، مما كان يقوم به لوبي آل فارحي داخل السلطنة العثمانية، وفي الكتاب أمثلة أخرى عديدة. حَرِصْنا أن تكون بأجمعِها موثّقةً ومعتمدةً على روايات تاريخية موثوقة.

وقول الحق، والتزام الصدق سيف ذو حدّين. يفرض عليك أن تُنصف حتى الأعداء. ولا أغالي إذا قلت أن ما كتب ويُكتب عن اليهود في العربية فيه الكثير من التجنّي والاختلاق. لا بل إن أكثره يمكن إدراجه ضمن فئةِ الكتابات المعادية للسامية *Antisémitisme*. ومن بين الأساطير التي لما تزل الكتبُ العربيةُ تتناقلها وتروّجُ لها مسألة استنزاف الدم عند اليهود. وغالباً ما تُورد هذه الكتب حادثةَ مقتلِ الأب توما الكبوشي في دمشق 1840 كمثلٍ على ذلك. وهذا ما دفعنا إلى التصدّي لهذه المسألة بموضوعية وتجرّد. فعدنا إلى شهادة معاصرة لهذا الحدث، أغفلتها جميع الكتب، إنها شهادة د. ميخائيل مُشاقَة الذي عرف الأب الكبوشي عن كثب وكان مقرّر لجنة الأطباء التي استدعيت لفحص الأشلاء. فنشرنا شهادته المطوّلة هذه. وناقشنا فرضياته وعلّقنا عليها. ووافقناه فيما خلُص إليه من أن مقتلَ الأب توما كان يستهدفُ السرقة والنهب. ولا علاقة له بتهمة استنزاف الدم التي هي اليوم مجرّدَ أسطورةٍ من أساطير القرون الوسطى.

تبقى إشكاليةٌ تناولها الكتاب وهي الفرق بين اليهودية والصهيونية.

ونحن بالطبع نرفضُ الدمج والمساواة بين التعبيرين والمفهومين. ولكننا نذهب إلى أبعدِ من ذلك فنطرحُ السؤال: كيف ولماذا تحول يهودُ أرضِ الإسلام إلى مؤيدين أو ناشطين أو حتى روّادٍ في الحركة الصهيونية. وأطروحتنا الأساسية هنا أن الصهيونية، كحركة، لم تكن عملَ يهودِ الغرب وحدَهم. فليهود الولايات العثمانية دورٌ بارزٌ فيها. والجوابُ على الأسئلة المهمة هذه ليس باليسير. ويتطلّب المزيدَ من البحث والتقصّي. ولكننا في دراستنا ميّزنا بين جماعات يهودية لم تتجاوب مع المطامع الصهيونية ولم تؤيدّها، لا سيما في البداية. وأخرى تبنّتها وسارت في ركابها.

وقد أبرزنا في هذا الصدد موقف يهود العراق في العشرينات من القرن السابق المصرّ على الاندماج في المجتمع العراقي. ورفض الانسياق في تأييد المشاريع الصهيونية.

وبالمقابل لقيت المشاريعُ والأفكار عينُها كل تأييد وتشجيع وحماس لدى يهود مصر. فما الذي دفع أولئك وهؤلاء إلى المواقفِ المتناقضةِ هذه؟! وما كانَ موقفُ يهود سائر الولايات العثمانية وأرض الإسلام بشكل عام كتونس والمغرب وإيران وغيرها من الموضوع عينه؟ مسألة تحتاجُ إلى مزيدٍ من الاستقصاء واستقراء المصادر.

وكما عرفت أرضُ الإسلام يهوداً تبنّوا الأفكار والمشاريع الصهيونية وآخرين رفضوها. عرفت أيضاً يهوداً أُخَر تذبذبوا بين الانتماء الديني والانتماء السياسي أو الدنيوي، وحاييم فارحي، خازنِ ولاية عكّا نموذجٌ معبّر لهذه الفئة، ولجدلية الانتماء هذه. وما تناولُنا له بشيء من التوسّع في كتابنا إلا بسبب هذا الالتباس في شخصيته

ودوره، والتذبذبِ بين الإخلاص للوالي والولاية من ناحية، والمشاركة من ناحية أخرى بما أسميناه: أولَ إشكالِ اللوبي اليهودي في الدول الحديثة المشار إليه سابقاً.

وهنا لا بد لي من التنويه بما جاء في كلمة الزميل د. جميل قاسم. فقد أصاب لبّ الموضوع بقوله أن كتابي يطرح إشكالية العلاقة مع الآخر. الآخر وليس بالضرورة العدو حكماً. وهذه العداوة المجانية والسافرة التي غالباً ما نواجه بها اليهود غير مميزين بين اليهودية كدين والصهيونية كمذهب سياسي واجتماعي أضفَت على خطابنا السياسي طابعاً عنصرياً وتعصبياً. لقد ساهم العرب، دون شك، في خطابهم السياسي الذي لم يتعامل مع اليهود كعرب في هجرة يهود البلاد العربية وأرض الإسلام إلى إسرائيل. ويهود العراق، مثل بيّن على ذلك إذ لم يعد أمامهم في نهاية الأربعينات من القرن العشرين سوى خيار الهجرة. ما كان إليه يسعى الكيان الإسرائيلي. وملاحظة الدكتور قاسم حول وجوب تنزيه الخطاب السياسي للمقاومة من شعارات تسيء إليها مثل "الموت لأميركا". تأتي في محلها. فمعاداة سياسة معينة شيء والانجراف إلى معاداة شعب كامل شيء آخر. نعادي أميركا كشعب ووطن من ناحية، ونرتمي على أدراج سفاراتها من ناحية أخرى طلباً لتأشيرة دخول. ونعمل المستحيل للحصول على إقامة في ذلك البلد. أما الحصول على الجنسية الأميركية فأقصى الأمنيات. فأين الحكمة في تمني الموت لشعب يسعى الكثيرون منا للانتماء إليه... ويفخرون بانتمائهم متى حصل.

وختاماً: ما فائدة كتابنا والإشكاليات التي يطرحُ ويحاولُ الإجابةَ

عليها في الصراعِ مع عدوٍ يغصبُ أرضنا، ويقتلُ أهلنا؟!.

في أساليب الترويج الصهيونية، كما قلنا وبيّنا، القليلُ من الوقائع. والعديدُ من التركيبات والتلفيقات التي قد تبدو للوهلة الأولى صادقة، لاستنادها إلى هذه الوقائع.

وكم تداعت في الحرب الأخيرة، تلفيقاتٌ وأساطير. أمامَ كلمةٍ صادقة ومعرفةٍ واعية.

وفي تعاليم حكماء اليوغا الهندية أن من أمضى اثنتي عشرة سنةٍ لا يقول فيها إلا الحقيقة. يصبح كلُّ ما يقوله حقيقة. الحقيقة، والصدقُ في التزامها والتعبيرِ عنها، أمورٌ كفيلةٌ بصنع المعجزات.

فلا فائدة ولا ضرورةَ للتلفيق عن الآخر بموازاة ما يختلقه هو عنا.

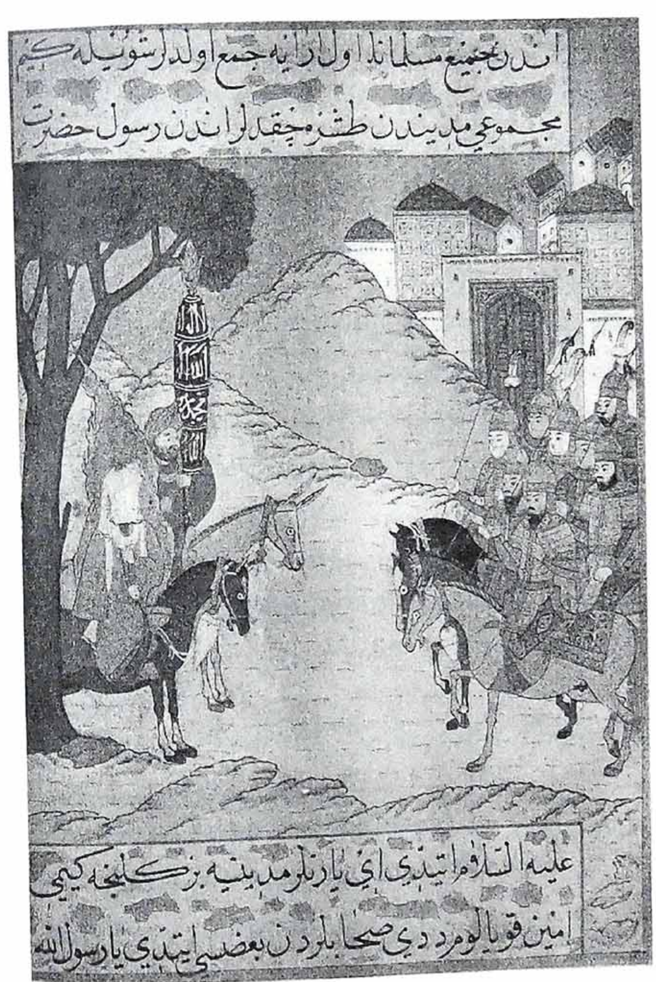
إنها دعوة إلى معرفةِ الآخر، كما يَعْرفُ هو نفسَه ويعبّر عنها. معرفة نقاطِ القوّةِ ومكامنها فيه. قبل نقاط الضعف. معرفةُ طريقةَ تفكيرِه بل ولغته أيضاً. "مَن تعلّم لغة قومٍ أمنَ مكرهم" يقول الحديث الشريف.

وبكلمة معرفةُ الآخر في واقعه هو، وليس عبر إسقاطاتنا عنه.

وأولى الخطوات على درب النصر...

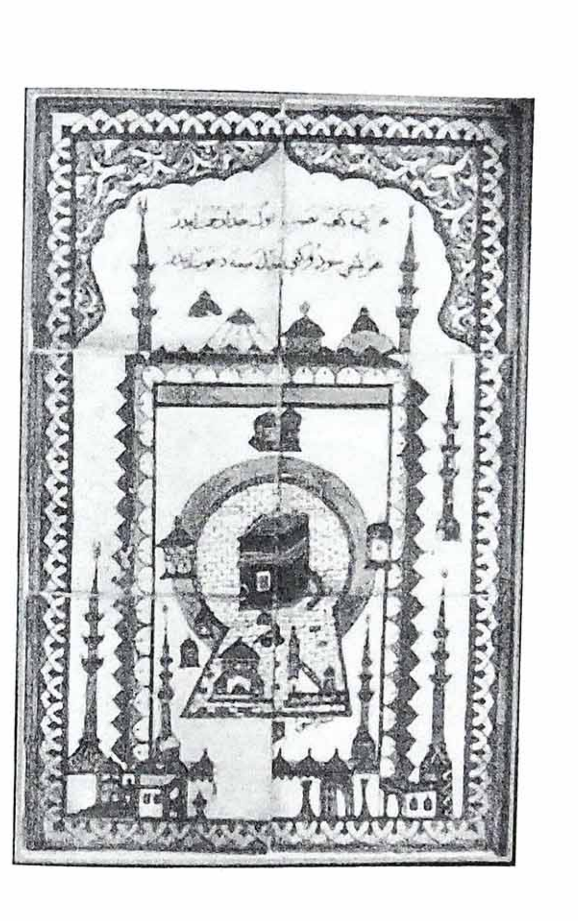
وأولى ضروريات الحفاظ عليه أيضاً...

تكمن في الصدق والمعرفة.



الاستعداد لفتح مكّة/منمنمة فارسيّة

فهرس الصوَر



المحتويات

كتب للدكتور لويس صليبا / دار ومكتبة بيبليون

(تابع ص 2 من الكتاب)

II. في الدراسات الهندية والفيدية

16- L'Hindouisme et son influence sur la pensée musulmane selon Al-Bîrûnî (m1048), Paris, 1995, 2ème édition, 2009, 250 p.

17 – الأيورفيدا والطب العربي: دراسة في الطب الهندي وأثره في الإسلام، مع تحقيق لمقالة من جوامع كتب الهند للطبري. 350 ص

18 – أقدم كتاب في العالم : ريك فيدا، دراسة. ترجمة وتعليقات. ط3. 590 ص

19 – موسوعة الأيورفيدا(الطب الهندي): دراسة علمية، ودليل عملي للتداوي، وحفظ العافية. 770 ص

20 – ديانة السيخ بين الهندوسية والإسلام: تاريخها، عقائدها، صراعها مع الإسلام مع نصوص من كتابها المقدّس. ط2، 320 ص

21 – الصمت في الهندوسية واليوغا، تعاليمه واختباراته في الفيدا وسير الحكماء المعاصرين. ط2، 300 ص

III. في التصوّف

22 – إشارات، شطحات ... ورحيل: أناشيد ومختارات صوفية مع أبرز شطحات الحلاج والبسطامي ولوحات لعدد منها، ودراسة لظاهرة الشطح في التصوف، بقلم المستشرق بيير لوري. ط2. 180 ص

23 – مرآة القلب: حكايات وأغنيات عاشق. ومحاولات في العشق الصوفي، مع مختارات من الأنهارفافيدا وكتابات الشركسي الصوفي، مقدمة بقلم جاد حاتم، مع ذيل في القُبلة في التصوف والأديان. ط2، 190 ص

24 – الرغبة المبتسرة، أبحاث ومحاولات في المحرّم. تقديم ماجدة داغر. 260ص

25 – المعراج بين المحدّثين والمتكلّمين والمتصوفين، دراسة ونشر وتعليق لكتاب المعراج للقشيري. ط2، 340 ص

26 – مقامات الصمت والمدن المقدّسة: مع ملحق في الصمت واليوغا ومقدّمة للمستشرق بيير لوري. 260 ص